
مجلة الابتسامة
يوسف زيدان
متاهات الوهم

متاهات الوهم

متاهات الوهم

يوسف زيدان

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: تاريخ / فكر / مقالات

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٣/٣١٦٢
ISBN 978-977-09-3213-1

يوسف زيدان

متاهات الوهم

دار الشروق

ترنيمةٌ

الحرفُ حمّالُ احتمالاتٍ،

وأحوالُهُ محيِّرةٌ

.. حين نحبو إليه، يحنو

فيمنحُ المحرومَ،

ويُفرحُ المحزونَ،

ويحوطُ الوحيدَ،

ويحتضنُ الحائرَ

ثم يحلِّق نحو الأحلام المستحيلةِ، حيث تُمحى الحدودُ المحذِّرةُ

.. وحين نحيدُ عنه، يمحو

يمحقُ أرواحنا

يحتُّ أحجارنا

يُحيل الحياةَ حُفَرَ جحيمٍ، حِمَمها مُحجِّرة

.. الحروفُ للأرواح حبسٌ ساحقٌ ومِلحٌ حارقٌ، أحيانًا

وأحيانًا، حلاوةٌ

وحريةٌ، وحُبٌّ، بَحرٌ، وارتحالاتٌ متحرِّرة

مقدمة

في زمن البدايات، كنتُ شغوفًا بكتابة «المقالات» لكونها السبيل الأنسب للبوح المباشر بشوارد الأفكار والشواغل، وكانت أولى مقالاتي قد نُشرت بجريدة الأهرام بعنوان «تراثنا بين المحققين والبيروقراطيين» أيام كنت في العشرينيات من عمري، وبثثتُ فيها بعضًا من مظاهر العنت والويلات التي يلقاها الباحثون في مجال المخطوطات، على يد العاملين في المكتبات العريقة وفي دار الكتب المصرية على وجه الخصوص. ولسنواتٍ طوالٍ تالية، اقتصر نشر مقالاتي على الجريدة المذكورة (الأهرام) التي كانت تحظى آنذاك بكثير من الرصانة والوقار والاحترام، مما حدا بي للاحتذاء بهذه الصفات في كتاباتي. بقدر المستطاع بالطبع، وبحسب ما رأيته أيامها صوابًا. وفي بداية العقد الأخير من القرن العشرين، الحزين، كتبتُ لفترةٍ مقالات أسبوعية في عدةِ جرائد خليجية، وأسعدني أنهم كانوا يدفعون مكافآت مالية كنت أراها كبيرة، وكنتُ أُسلسل المقالات لتصدر لاحقًا في كتاب، مثلما هو الحال في كتابي «التراث المجهول».

وجرى أمرٌ لا مجال الآن لذكره، دعاني إلى قطع الكتابة في غير الصحف المصرية، والاقتصار على قليلٍ من المقالات التي أكتبها بين حينٍ وحين، لإفساح أوقاتي للصناعات الثقافية الثقيلة (تأليف الكتب، تحقيق النصوص التراثية، عمل الدراسات المتخصصة، إقامة المؤتمرات والندوات الدولية في المجالات التراثية، بناء المحتوى الفكري لمكتبة الإسكندرية.. وغير ذلك) ومع انشغالي التام وانهماكي الذي ندمتُ عليه لاحقًا، من أجل «مكتبة الإسكندرية» التي كانت أملًا واسعًا ثم صارت ألمًا

موجعًا عقب ثورة يناير ٢٠١١؛ كنتُ قد توقفت تمامًا عن كتابة المقالات الصحفية خلال السنوات الخمس الأولى من الألفية الجديدة، وبعد إلحاحٍ من جريدة «الوفد» كتبتُ لمدة عامين مجموعة المقالات التي أصدرتُ المجموعة الأولى منها في كتابي (كلمات: التقاط الألماس من كلام الناس) الذي صدر عام ٢٠٠٨، وهي السنة ذاتها التي ابتدأت فيها كتابة مقالاتي الأسبوعية بجريدة «المصري اليوم» وجعلتها في موضوعات مترابطة، كنتُ أكتبها متسلسلةً على هيئة «سُباعيات» هي أصولُ فصولِ هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن، الذي هو الكتاب الأول من ثلاثة كتب، كل منها يحتوي على سبعة فصول.

وبطبيعة الحال، فقد اقتضى نشر «السُّباعيات» في هذه الكتب الثلاثة، معاودة النظر في بعض الأفكار المنشورة بالمقالات وإعادة بناء كثير منها، على النحو المناسب للنشر في كتاب. بما يتضمنه ذلك من كتابةٍ جديدة وتعديلات عديدة، لكثير من المواضع. مع حرصي على استبقاء الفقرات (التوثيقية) كما هي من دون تعديل، لتكون بمثابة شهادة مباشرة على مجريات أمورٍ حدثت بمصر والمنطقة العربية، أثناءِ كتابتي هذه المقالة أو تلك. وكنتُ أرنو من خلال الكتابة الأسبوعية إلى إضاءة منطقة معتمة في الوعي العام، أو إعادة بناء بعض التصورات المغلوطة لعديد من الوقائع.

وخلال إعدادي لهذه الكتب الثلاثة، كانت ترنُّ في أذني عبارة «العماد الأصفهاني» وتتردَّد أصداؤها في أعماق ذاتي، حيث يقول هذا الرجل النَّابه: «إنه لم يَرَ أحدٌ كتب كتابًا، وعاد إليه (بعد فترة) إلا وقال: لو غيرتُ هذا لكان أحسن، ولو عدَّلتُ ذاك لكان يُستحسن. وهذا دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر».. وهذا معنى عميق، لو كان كاتبه أفصح لجعلَ ختام عبارته: «وهذا دليلٌ على طلب الكاتب للكمال المستحيل».

وقد تزامن إعداد هذه الكتب وإعادة النظر فيما سبق لي كتابته؛ مع وقوع تداعياتٍ عديدةٍ وآثارٍ مريعة لثورة يناير ٢٠١١ معظمها لم يكن متوقعًا، ومعظمها كان متطرفَ النتائج والتأثيرات العامة العميقة. فمن ابتهاجٍ مفاجئ بذلك (الورد اللي فتَّح في جناين

مصر) فأزاح النظام الفاسد المستبد الذي كان يأمل في توريث الحكم، إلى الانهيار المريع في الحالة الأمنية وشراسة ذيول النظام الساقط في معاداة الثورة، يعاونهم في ذلك السفلةُ والجهلةُ والغوغاء الذين راحوا يمرحون كما يشاءون بأنحاء البلاد.. ومن أحلامٍ محلِّقة في سماوات الاستبشار، إلى انكساراتٍ صادمة وانحرافاتٍ في مسار الثورة التي تفرقت مياهُ نهرها، فصارت فورة. ومن تطلُّعاتٍ عالية طموح انقلبت إلى ارتداداتٍ للوراء يصحبها نشيج أمهاتٍ تنوح.. ومرَّتِ الأيامُ مريرةَ التواتر ومرهقةً، فعبرتْ بالفواجع على العموم وعليَّ (بطبيعة الحال) فكان ما كان، مما سأذكر منه طرفًا في فصول هذه الكتب الثلاثة، سباعية الفصول.

وفي هذا الكتابُ الأول من «السباعيات» الثلاثة، نستعرض بعض المدارات التي تأخذ بالعقل الجمعي، الغربي والمصري، إلى التيه الجماعي المؤدي بالضرورة إلى حالة (الخَبل العام) بسبب دوران أفكارنا حول محاور وهمية واعتقادات خيالية لا يؤكدها إلا التاريخُ الرسمي، المغلوط.. والفصول السبعة لهذا الكتاب، تسعى لتبديد هذه «التوهُّمات» وتثير شغف القارئ إلى إعادة النظر في خرافاتٍ تخايل الأذهان، ويؤسِّس عليها وعيٌ مغلوط يتوسَّل بالمغالطات إلى تحقيق الطموحات المرادة من هؤلاء الساعين إلى تجهيل الناس لإحكام القياد حول رقابهم، ومن ثمَّ إلى السيطرة التامة عليهم. وفي الكتاب الثاني «دوَّامات التدين» سبعة فصول أخرى، تعكس جميعها حقيقة المفارقة بين جوهر الدين ومظهر التدين، وهما أمران كثيرًا ما يتناقضان. وفي الكتاب الثالث الأخير «فقه الثورة» تبيانٌ عبر فصولٍ سبعة للمعنى العميق للثورة، واستشراف لمسار الثورات العربية التي صارت فورة، وتأملٌ لما جرى ويجري من حولنا من صحوةٍ مجيدة كانت شرارة ثورةٍ اندلعت على يد الأحرار تحت شمس الضحى، ثم آلت بالليل إلى أصحاب اللحى.

ولأن الإسهاب يستوجب الإغراب، والتطويل يستجلب التهويل، فسوف أختمُ هذه التوطئة بإشاراتٍ موجزةٍ إلى أن الفصول السبعة للكتب الثلاثة لم تلتزم بالترتيب

الزمني للمقالات الأصلية، لا سيما وأن هناك مقالات مفردة كانت كثيرًا ما تأتي «بين سُباعيتين» وقد أدمجتُ بعضها مع سُباعيات أخرى، ورتَّبتُ الفصول بحسب اتساق موضوعاتها، وليس تسلسل نشرها. وبالطبع، قمتُ بعمل التعديلات الأسلوبية اللازمة، وصحَّحتُ ما كان قد وقع عند نشر المقالات من هناتٍ وسقطات، وزوَّدت الصفحات بالهوامش الشارحة كلما دعت الحاجة، من دون تزيُّد في ذلك أو زيادات غير لازمة.

د. يوسف زيدان

الإسكندرية في منتصف صيف العام ٢٠١٢

الفصل الأول

أوهامُ المصريين

للمصريين أوهامٌ يختصون بها، وأخرى يشاركون فيها غيرهم. وبدايةً، فإن مقصودي بالوهم هو باختصار: الاعتقادُ الخياليُّ بصحة أمرٍ ما، والإيمانُ به، ثم المبالغة في تأكيده، من دون أن يكون له إثباتٌ في الواقع الفعلي. ولذلك، فإذا قلنا مثلًا إن «الحبيب الوفي» و«العنقاء» و«الغول» أوهامٌ، فمرادنا من ذلك أنها أشياء يتمناها الناسُ أو يؤمنون بها على نطاق واسع، مع أنها ليست موجودةً في الواقع. فقد كان القدماءُ من العرب، ومن غيرهم، يعتقدون في وجود طائر أسطوري يعيش مئات السنين. وبحسب ما كانوا يتوهَّمون، هو كائنٌ هائلُ الحجم، حتى أنه يخطف بمخالبه الأفيال! وإذا انتهت حياته يحترق ويبقى زمنًا كالرماد، ثم يقوم من رماده ثانيةً ويحلِّق في السماء. هذا الطائر الأسطورى يُسَمَّى في العربية «العنقاء» ويُسمى أيضًا «طائر الفينيق» واسمه في الفارسية «سِيمُرْغ» وله أسماءٌ أخرى في لغاتٍ أخرى.. أما الغول فهو اعتقادٌ قديم عند العرب منذ زمن ما قبل الإسلام، يزعم وجود كائنٍ ضخمٍ يشبه الإنسان لكنه لا يتكلم، وهو مخيفٌ خطيرٌ يظهر في الليل ولا يدخل المدن، وإنما يفتك في الصحاري بالتائهين والمنفردين، وقد روى كثيرون ممن صاروا يُسَمَّون بعد الإسلام «أهل الجاهلية» حكايات خرافية عن لقائهم في البيداء بالغول، وانفلاتهم منه بضربة حظٍّ لا تتيسَّر دومًا لكثيرين.. وأما الحبيب أو «الخِلّ» الوفي، فقد أُدخل ضمن المستحيلات الثلاثة، باعتباره وهمًا يتمناه الأصفياء في الأصدقاء، والمحبُّ في المحبوب، لكنه يظلُّ دومًا حلمًا بعيد المنال، وليس له من الواقع الفعلي نصيب.

وبصرف النظر عن المستحيل الثالث «الوفاء» فإن العنقاء والغول، هي من نوع الأوهام الوجودية ذات الطابع الخيالي، كالعماليق عند العرب، والطيطان عند اليونان،

وكزواج الإنس بالجن، وسُكْنَى الآلهة فوق جبل الأوليمب، وتفاعل بعض المهووسين مع العفاريت، وعديد من الاعتقادات التي طالما ملأت النفوس.. وما هي في واقع الأمر إلا أوهام.

وهناك لفظة مهذبة تُطلق على بعض هذه الاعتقادات الوهمية، هي كلمة «الأساطير» التي أشار إليها القرآنُ الكريم، وجعلها مرتبطة بالأولين بحيث يصير المراد من التعبير القرآني (أساطير الأولين) هو تلك الأوهام المسيطرة على عقول الناس، مع أنها ليست حقيقية.. وفي هذا الفصل الافتتاحي، الذي هو في الأصل سباعيةٌ نُشرت تحت عنوانه(١)، نضع تحت الضوء أوهامًا مصرية. منها ما يختصُّ به بعضُ المصريين من أهلنا، كاعتقاد بعض (الأقباط) بأن جبل المقطم لم يكن في مكانه الحالي، وإنما تزحزح عن موضعه منذ زمن الفاطميين استجابةً لدعاء أحد (الصالحين) الذين أرادوا أن يثبتوا للخليفة الفاطمي، أنهم أصحاب الدين الحق. وهي خرافةٌ يرددها (الآباء) دومًا، ولا يوجد لها أي مستند في التاريخ أو في العقل والمنطق.. ومن أوهام المصريين ما لا يختصّ بهم، وإنما يشاركون فيها غيرهم، مثل وهم المخلِّص.

المخلِّص الذي لا يخلِّص

«مجيء المخلِّص، انتظار المخلِّص، عودة المخلِّص».. تعبيراتٌ دالة على أُمنيةٍ مستحيلةٍ كانت الجماعاتُ الإنسانية تلجأ إليها في فترات الشعور الجماعي بالقهر والضيق، لتُضفي على الحاضر أملًا يجعل الحياة محتمَلةً، مهما كان ذلك الأمل وهميًا. وقد أشرتُ في كتابي «اللاهوت العربي» إلى أن (المخلِّص) فكرة يهودية الأصل، إذ ظل اليهود خلال القرنين السابقين على مجيء المسيح، ينتظرون المخلِّص المسمَّى عندهم (المسيَّا، الماشيح) وهو الذي سوف يحقق وعد الرب لأبنائه بامتلاك الأرض، وهو الوعد الذي بذله الله من دون مبرر، لأبرام «إبراهيم» التوراتي. حين قال بحسب ما جاء في سِفر «التكوين» الذي هو أول الأجزاء الخمسة للتوراة (وهي أعجب

(١) في أواخر صيف العام ٢٠١٠ نُشرت المقالات السبعة، أسبوعيًا، ابتداءً من اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر.

وأشنع الكتب في تاريخ الإنسانية) ما نصُّه: «لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرضَ، من نيل مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات».

ولم يفكِّر اليهود في أن هذا (الوعد) هو من الجهة المقابلة (وعيد) للشعوب المستقرة في تلك الأرض الموعودة. فالإله التوراتي يحدِّد هذه الأرض ويَعِدُ بها اليهود، كأنها خاليةٌ من سكانها. ومن هنا صار اليهود في مأزقٍ شديدٍ ما بين رغبتهم في التعلُّق بالوعد الإلهي (الوهمي) وظروفهم التاريخية والمعاصرة (الفعلية) وفقًا للظروف والمتغيرات الدولية التي انسحق فيها اليهود أيام السَّبي البابلي، وأيام تدمير الرومان لعاصمتهم «أورشليم» التي اسمها المسيحي «إيليا» ثم صارت عند المسلمين «القدس». وأيام الفتك المسيحي المريع باليهود في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي عقابًا لهم على مساعدتهم للفرس، فضلًا عن غزو المسلمين لهم في ابتداء شأن الإسلام. غير أن المسلمين كانوا أرحم باليهود من المسيحيين، فلم يعرف تاريخ الإسلام قرارًا إمبراطوريًّا كهذا الذي أصدره «هرقل» ليُلزم فيه اليهود باعتناق المسيحية وترك ديانتهم اليهودية، وإلا أحلَّ المسيحيون دماءهم[1]. ولم يقم المسلمون خلال تاريخهم الطويل، بمذبحةٍ عامة (مَقْتَلة) كتلك التي فتك فيها المسيحيون باليهود، في غمرة الابتهاج بعودة الصليب المقدس (صليب الصلبوت) إلى مكانه بإيلياء (القدس) بعدما كان الفرسُ قد انتزعوه زمنًا، ثم أعاده الإمبراطور هرقل بعدما انتصر في حربه ضد الفرس.. وليس المراد بصليب الصلبوت، إلا قطعة من الخشب كان يُعتقد أنها بقيت من الصليب الذي عَلَّق عليه الرومانُ السيدَ المسيح، وقد عثرت عليه «هيلانة» أم الإمبراطور قسطنطين الكبير، بعدما دلَّها عليه بعض العامة في إيلياء (أورشليم، القدس) فأقامت فوقه كنيسة القيامة في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي، ووضعت قطعة الخشب في صندوق ظل محفوظًا هناك، حتى انتزعه الفرسُ في بداية القرن السابع الميلادي، ثم أعاده هرقل، ثم ضاع بعد ذلك. العجيبُ هنا، أن المعروف تاريخيًّا والثابت من الروايات، أن الرومان كانوا يضعون قتلاهم على الأعمدة، لا الصُّلبان.

(١) قاعدة «إهدار دم المخالفين» لم تكن في واقع الأمر فكرةً إسلاميةً حسبما يظنُّ كثيرون، وإنما أصلها يهوديٌّ صرَّحت به التوراة بوضوح، في سياق ما يُعرف بحروب الرَّبِّ، ثم بالغ المسيحيون في تطبيق هذه القاعدة الوحشية، حسبما سنذكر لاحقًا.

المهم الآن، أن اليهودية سطعت فيها بقوةٍ فكرةٌ وهمية ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد، تقول إن «وعد الربِّ» لن يتحقَّق، إلا مع ظهور بطلٍ يهودي أو نبيّ أو مهديٍّ منتظر أو ماشيح، وهو الذي سيكون ملكًا لليهود، سوف يعيد مجد المملكة اليهودية المندثرة (مملكة داود وسليمان) التي بالغ المتأخرون في تصوير عظمتها واتساعها، مع أن هذه «المملكة» لم تكن بحسب المصادر العبرانية المبكرة، تزيد في مساحتها عن أي مدينة صغيرة في ذاك الزمان.

وقد ذكرتُ في كتابي «اللاهوت العربي» كثيرًا من النصوص الدينية المقدسة، الواردة في أواخر العهد القديم. وكلها تدل على هذا «الانتظار» اليهودي للمخلِّص، وذكرتُ عديدًا من الذين ادَّعوا أنهم ذلك (المخلِّص) منهم «ثوداس» و«النبي المصري» و«ميناندر» و«سيمون الساحر» وغيرهم ممن زعموا أنهم مخلِّصون، لكنهم لم يخلِّصوا، وإنما بطش بهم الرومان مثلما بطشوا بالسيد المسيح وصلبوه، بحسب الاعتقاد المسيحي العام، أو شُبِّه لهم بحسب ما يؤكده الإسلام.

وهكذا كان السيدُ المسيحُ، هو أحد تجلِّيات «المخلِّص» اليهودي. وقد صوَّرته الأناجيل على تلك الصورة، وأكَّدت عليها بتأكيداتٍ لا تطيق الشك، ولا تحتمل الترجيح، فالمسيح «يسوع» يهوديٌّ صريحٌ، وهو الذي قال بحسب إنجيل متى: «لم أرسل إلا لخراف إسرائيل الضالة». وقال لتلاميذه المعروفين في التراث المسيحي باسم «الرسل» وفي التراث الإسلامي بوصفهم القرآني «الحواريين» ما نصُّه: إلى طريق الأمم لا تمضوا.. والمقصود بالأمم هنا، غير اليهود.

ثم تطوَّرت المسيحية فصارت خلاصًا لكل البشر، وليس لليهود فحسب، بمعنى أن المسيح صار «الفداء» للإنسانية كلها، لأن المجتمعات الإنسانية كانت كلها تحتاج إلى هذا الخلاص، وليس اليهود وحدهم، نظرًا إلى قتامة العالم آنذاك وفساد الحكم الروماني وتردِّي الأوضاع في أنحاء الإمبراطورية.. وانتشرت المسيحية باعتبارها «بشارة» من السماء للإنسان، لكن الواقع الإنساني لم يكفَّ اضطرابه وظلمه للمساكين والضعفاء والمغلوبين، فكان على هؤلاء لكي يحتملوا واقعهم المرير، أن ينتظروا مرةً

أخرى «عودة المسيح» وهو الاعتقاد الذي اتخذ أشكالًا كثيرة، قديمة ومعاصرة، منها ما تعتقده جماعة «شهود يَهْوَه» الحالية، وهي جماعة تمزج بين اليهودية والمسيحية، وتدعو الناس إلى العمل من أجل التعجيل بعودة المسيح، وتجعل ذلك مشروطًا بإقامة هيكل سليمان من جديد، وهو ما يقتضي إزالة المسجد الأقصى من مكانه[1]. وبالطبع، فإن هذا الأمر من شأنه تأجيج أوار الحرب بين المسلمين وغير المسلمين، باعتبار أن هذا «المخلِّص» الذي ينتظره غير المسلمين، لا ينتظره المسلمون المقدِّسون للمسجد الأقصى (أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين).

غير أن التراث الإسلامي عرف أيضًا منذ زمن قديم، فكرة المخلِّص. ولكنه جعلها تحت عنوان (المهديِّ المنتظَر) الذي بحسب التعبير العربي الإسلامي، الشيعي خصوصًا: سوف يملأ الأرض عدلًا بعدما مُلئت جورًا وظُلمًا.. ولم يختصّ الشيعة بالاعتقاد في المهديِّ المنتظَر، وإنما ظهر أيضًا ولكن بدرجة أقل وضوحًا، في المعتقدات الإسلامية السُّنِّية. لكن الشيعة عبر تاريخهم الطويل، عانوا من الاضطهاد ومن مرارة الشعور بالظلم، بأكثر من السُّنَّة. ولذلك ازدهرت فكرة المخلِّص (المهدي المنتظر) عند الشيعة، بأكثر مما عليه الحال عند السُّنة.

إذن، لا تأتي فكرة المخلِّص من فراغ، وإنما تأتي من الفراغ السلطوي لجماعة مقهورة تتأسَّى (من الأسى) بالتعلُّق بالأمل الذي يمتد في أذهان الناس قرونًا، ثم يتوارثونه جيلًا بعد جيل، فيشيع في النفوس ذلك الأمل (الخلاصي) المخفِّف لوطأة الواقع. ويبدو لي، وقد أكون مخطئًا، أن فكرة «المخلِّص» ليست قاصرة على أتباع اليهودية والمسيحية والإسلام، فحسب، بل هي أملٌ إنساني عام. نجده أيضًا عند غير هؤلاء، تحت مسميات غير تلك، منها مثلًا «المنقذ» وهو اللقب الذي أُعطي لأول

---

(١) شهود يهوه، طائفةٌ مسيحيةٌ ظهرت سنة ١٨٧٠ في ولاية بنسلفانيا الأمريكية، مع جهود وأفكار «تشارلز راسل» الداعية إلى نبذ فكرة التثليث (الثالوث) ورفض عديد من الاعتقادات المسيحية، مثل شفاعة القديسين وإحراق العصاة في الجحيم وأفضلية شخص على آخر.. وعلى الرغم من الصورة القاتمة التي رسمها الإعلام العربي، فإن جماعة «شهود يهوه» مسالمة، ولا تهدف إلا لغاية واحدة، هي التعريف بالإله «يهوه» والتبشير بملكوت السماء في الأرض.

ملوك البطالمة «بطليموس بن لاجوس» الذي أنقذ مصر والإسكندرية من الفوضى التي كان يمكن أن تُحدثها وفاة «الإسكندر» المفاجئة، حيث قام بطليموس الأول الملقب باليونانية «سوتير» بجهد هائل في تثبيت أركان «الدولة» ولذلك عُرف بهذا اللقب، الذي يعني باللغة العربية: المنقذ أو المخلِّص.

وهناك نماذج كثيرة من تاريخ البشر، تدل على أن فكرة المنقذ (المخلِّص) هي أملٌ إنساني يراود معظم الجماعات المقهورة أو المعرَّضة للخطر أو التي تعاني من مشكلات كبرى، إذا طال عليها الزمان وهي تعاني من ذلك، من دون أملٍ (فعليٍّ) في إصلاح الأحوال. غير أن خطورة هذا الأمر لا تكمن في كونه أملًا مريحًا للنفوس، وإنما لأنه يقعد بالناس عن العمل اللازم لخروجهم مما يعانون، على اعتبار أن «المخلِّص» هو الذي سوف يقوم بذلك.. لكن المخلِّص لا يخلِّص، ويبقى دومًا مثل وهمٍ لا يفعل في الواقع، إلا تبرير القعود عن العمل.

وهناك من يعتقد أن «التاريخ» هو ترفٌ فكري أو معرفة نظرية مجردة، مع أن التاريخ في واقع الأمر هو الخطوة الأولى لفهم الواقع المعيش، في جملته وتفصيلاته. ولسوف أعطي على ذلك مثلًا واحدًا، يتصل بفكرة المخلِّص:

لن تجد في المجتمعات الأوروبية الحالية، أو الغربية المتقدمة عمومًا، حضورًا في أذهان الناس لفكرة المخلِّص. وذلك لسببٍ بسيطٍ هو أن هذه الجماعات عرفت أن (الحلَّ) لا يأتي إلا مع حركة الجماعة نفسها. وفي المقابل من ذلك، نرى الناس في بلادنا لا يزالون ينتظرون الحلول التي تأتي من خارجهم، فمن ذلك النظر إلى «حسن نصر الله» باعتباره المخلِّص العربي من الظلم الإسرائيلي، ومن ذلك ظهور العذراء كلَّما ساءت الأحوال العامة وتدهورت، ومن ذلك هذا الإهاب الوهمي الذي اتخذه «محمد البرادعي» فور إعلان نيته الترشُّح للرئاسة (قبل الثورة المصرية في يناير ٢٠١١) أعني إهاب «المخلِّص» الذي يأتي من بعيدٍ لتخليص الناس مما يعانونه. فقد فوجئتُ بكمٍّ هائل من التأييد الشعبي، والاستجابات السريعة التي ظهرت على الإنترنت (فيس بوك تحديدًا) لخطوة البرادعي، وكأنه المخلِّص الذي أتى من بعيد على حصان «نوبل»

محمولًا بأجنحة سمعته الدولية الطيبة، لينقذ مصر من شبح التوريث ومن مشكلاتها الكثيرة السياسية.

وللوهلة الأولى، لم يسأل المؤيِّدون للبرادعي عن خبرته السياسية، وعن برنامجه، وعن إمكانية ترشُّحه القانونية، وعن رؤيته الاجتماعية والفكرية والسياسية لمستقبل البلاد. وإنما انتبهوا إلى ذلك، بعد فترة من «الفرحة» المفاجئة بخبر الترشُّح. ولا أعلم صراحةً، إن كان البرادعي سوف يترشَّح بالفعل أم لا، وسوف ينجح إذا ترشَّح أم لا، وسوف ينقذ الناس إذا نجح أم لا؛ وإنما ما يشغلني هو خطورة الاستجابة (الفورية) التي حدثت عقب تردُّد الأنباء عن نيته الترشُّح، فتطابقت صورته في الأذهان مع وهم المخلِّص[1].

وبالطبع، فإن الوهم المصري العام الداعي إلى انتظار المخلِّص، لم يُولد به المصريون المعاصرون، وإنما تم تغذيتهم بهذه الفكرة شيئًا فشيئًا، وعبر طرقٍ كثيرة موحية لهم بأن كل ما عليهم هو الانتظار.. والأمل.. والسكون.. والفرحة بالمخلِّص حين سيأتي، لا محالة، خصوصًا أن الضجة الكبيرة التي ثارت في السنوات الماضية تحت مسمَّى (الإصلاح) انتهت إلى لا شيء. وفيما يلي، سوف أستعرض بعض الطرق، أو بالأحرى «الحيل» التي خيَّلت للناس أن المخلِّص آتٍ لا محالة، وكرَّست في وعينا العام وهمًا عميقًا يدعونا إلى الصبر على المعاناة وانتظار المخلص، بدلًا من العمل لتخليص أنفسنا.

الناصر أحمد مظهر

منذ سنواتٍ بعيدةٍ قال لي واحدٌ من أساتذة الفلسفة المصريين، مازحًا، إنه اشتغل في شبابه بفن التمثيل. ولما استفهمت منه، مستغربًا أنني لم أره في أيِّ مشهد سينمائي، قال وهو يبتسم: ألا تذكر الجموع التي ظهرت في فيلم «الناصر صلاح الدين» لقد كنتُ

(١) بعد نشر المقالة بأيام، أكد د. محمد البرادعي لعديد من الصحف المصرية، أنه ليس (المخلِّص) أو المهدي المنتظر، وأن الواجب على المصريين أن يتحركوا بأنفسهم لدفع الظلم عنهم، بالعصيان المدني مثلًا. لكنه لم يكن يتخيَّل آنذاك أن ساعة (الثورة) باتت وشيكة، ولسوف تندلع بعد أيام معدودات.

واحدًا من هؤلاء الجنود، فأيامها كنتُ مجنَّدًا في الجيش وكانوا يأخذون الآلاف منا للاشتراك في تصوير المشاهد الحربية.

أدهشني يومها أن الجيش المصري يهتم بالتصوير السينمائي، واستغربتُ عند انتباهي إلى أن هذا الفيلم تم إنتاجه سنة ١٩٦٣ أي إن الجنود الذين ساقوهم ليكونوا (كومبارس) هم أنفسهم الجنود الذين سيق بهم قبل ذلك إلى اليمن لخوض حربٍ لا ناقةَ لنا فيها ولا جمل، وهم الذين بعد ذلك انهزموا في فضيحة ١٩٦٧ المسماة تخفيفًا وتلطيفًا، وكذبًا وتلفيقًا «النكسة». لأن المجندين آنذاك، كان الجيش يحتفظ بهم بعد انتهاء فترة تجنيدهم، فيما كان يعرف بنظام (الاستبقاء) وكان الجندي منهم يقضي في «الخدمة العسكرية» فترة قد تقارب العشر سنوات، بينما بقيةُ المصريين مخمورون بكأس البطولات العسكرية (السينمائية) التي تمجِّد الجندية.. ومجدَّدًا، تذكرت أمل دنقل حين قال في قصيدته:

قلتُ لكم في السنة البعيدة،
عن خطر الجندي، عن قلبه الأعمى، وعن همته القعيدة.
يحرس مَنْ يمنحه راتبه الشهريّ
وزيَّه الرسمي،
ليُرهب الخصوم بالجعجعة الجوفاء، وبالقعقعة الشديدة.
لكنه إن يَحِنِ الموتُ فداءَ الوطن المقهور والعقيدة
فرَّ من الميدان، وحاصر السلطان، واغتصب الكرسيّ،
وأعلن الثورة في المذياع والجريدة
قلتُ لكم، لكنكم لم تسمعوا هذا العبث
ففاضت النار على المخيمات، وفاضت.. الجثث[1].

ومثل غيري من المصريين والعرب، شاهدتُ في طفولتي فيلم «الناصر» مرارًا، لأنه كان أشبه بالمقرر الدراسي الذي يعرض دوريًّا في المناسبات «القومية» أيام كانت

---

(١) لطالما تردَّدت في نفسي هذه الأبيات، وذكرتها في كتاباتي، لا سيما بعد اندلاع ثورة يناير وما جرى بعدها، حسبما سيأتي بيانه في الكتاب الثالث من هذه السباعيات.

هناك قناة تلفزيونية واحدة، ثم قنوات قلائل، تواظب على عرض الفيلم بانتظام، حتى ارتبطت فكرةُ «القومية» في الأذهان بفيلم «الناصر» المرتبط بدوره بشخصية الرئيس «عبد الناصر» المرتبط بالحلم العربي العريض «تحرير القدس».

والتجارةُ في الأحلام من أربح التجارات، وأكثرها خسةً. ولذلك فقد احتشد لهذا الفيلم «الحلم» أو حُشد له، كبار صناع السينما آنذاك. فمع المخرج العبقري يوسف شاهين، قام بالديكور وعمل المناظر، العبقري: شادي عبد السلام. أما القصة والسيناريو والحوار، فقد قام بها ثلاثة من الكُتَّاب الكبار «محمد عبد الجواد، ونجيب محفوظ، وعبد الرحمن الشرقاوي» وكان الممثلون «النجوم» كُثرًا، منهم: صلاح ذو الفقار، ونادية لطفي، وحسين رياض، وعمر الحريري، وزكي طليمات، وحمدي غيث.. وعلى رأسهم الفارس: أحمد مظهر (صلاح الدين الأيوبي).

وقد كان أحمد مظهر في الأصل، أي قبل احترافه التمثيل، ضابطًا في سلاح الفرسان المصري. فلا غرابة في أن يُجيد مع مخرج مثل يوسف شاهين، تمثيل دور الناصر صلاح الدين، ويجسِّد صورته في الأوهام على نحوٍ مثير. ولذلك، فلا يكاد أحدنا يسمع اسم «صلاح الدين الأيوبي» إلا ويتذكر على الفور، وبشكل لا إرادي، مشهد أحمد مظهر وهو يصيح من فوق فرسه وقد ارتدى الملابس التاريخية، داعيًا لتحرير أورشليم القدس.

ومضت بنا الأيامُ فادحةً، حتى جاء اليوم الذي كففتُ فيه عن رؤية ذلك الفيلم، بعدما رأيتُ أحمد مظهر في لقاءٍ تلفزيوني يبكي بمرارة، لأنهم سوف يخرِّبون فيلَّته التي بأطراف القاهرة، لأنها تعترض طريق الكوبري الواصل بين القاهرة ومدينة أكتوبر عبر الطريق الصحراوي، وهي الوصلة التي نعرفها اليوم باسم «المحور».. ومات أحمد مظهر (الناصر) كَمَدًا.

وقد حقق هذا الفيلم (الحلم) نجاحًا جماهيريًا ودعائيًا ساحقًا، في زمن الإعلام الموجَّه، لكنه واجه فشلًا فنيًا ذريعًا وخسارة مالية فادحة، لأن المساندة (الحكومية) في إنتاجه لم تستطع أن تخفِّف من عبء التكلفة المالية «الباهظة» التي أدَّت إلى

إفلاس منتجة الفيلم، اسمها آسيا، لأن الميزانية الإجمالية بلغت ثلاثة وسبعين ألف جنيه مصري، أيام كان للجنيه المصري احترام، وهي ميزانية كانت تكفي لإنتاج خمسة أفلام بحسب المعمول به في ذلك الزمان البائس، المسمَّى اصطلاحًا الستينيات.

وبطبيعة الحال، حرصت الحكومة المصرية آنذاك على تعويض المنتجة (آسيا) عن خسارتها المالية، بإسناد أعمال أخرى «مضمونة الربح» إليها، وتسويق أعمالها الأخرى لتعويض خسارتها. ولكن أحدًا لم يفكر في الخسارة الكبرى التي لحقت بالوعي المصري والعربي العام، بسبب مخيالية هذا الفيلم ومخايلاته وأكاذيبه الكثيرة تالية الذكر. وأرجو من القارئ ألا يفزع مما سيأتي، فيُبادر بالإنكار.

بدايةً.. لم يكن «صلاح الدين» هو ذلك «البطل» الذي تم الترويج له في زمن حكم العسكر، لأنه كان مثلهم عسكريًّا، فالتاريخ يخبرنا بحقائق مغايرة عما عرفناه من فيلم «الناصر».. فمن ذلك، أن صلاح الدين الأيوبي، كان قائدًا خائنًا للسلطان «نور الدين» وهو مولاه الذي أرسله على رأس الجيش من دمشق إلى مصر، لتأمين حدودها ضد هجمات الصليبيين. فترك صلاح الدين ذلك الأمر ومهَّد لنفسه السلطة، ولأقاربه، وأهمل المهمة التي جاء من أجلها. حتى أن السلطان نور الدين جهَّز جيشًا لمحاربة صلاح الدين (المنشق) ولكنه مات ليلة خروج هذا الجيش، فسنحت الفرصة لصلاح الدين كي يستولي على عرش السلطان، واستطاع استمالة بعض القواد وحارب الآخرين، حتى استقام له السلطان. ومن العجيب الدال على شخصية صلاح الدين أنه كان في الوقت ذاته، قائدًا من قواد السلطان نور الدين «السُّني» ووزيرًا للحاكم الفاطمي لمصر «الشيعي»، مع أن الدولتين كانت بينهما خلافات لا تقل عمقًا عما كان سائدًا آنذاك بين المسلمين (أصحاب البلد) والمسيحيين الغزاة الذين اشتهروا باسم الصليبيين.

ثانيًا: بعد مناورات كثيرة ومداورات اضطر صلاح الدين الأيوبي مدفوعًا بالغضب العربي العارم، إلى محاولة اقتحام القدس وإخراج المحتلِّين منها. لكنه لم يفلح في انتزاعها من قبضة الصليبيين، إلا صُلحًا (سنة ٥٨٣ هجرية) ثم أعادها الأيوبيون ثانيةً إلى الصليبيين كهدية، سنة ٦٢٨ هجرية. ولم تكن القدس تُعرف بهذا الاسم الذي

تردَّد في الفيلم كثيرًا، فالمسلمون الأوائل والمسيحيون، لم يعرفوا لهذه المدينة اسمًا إلا (إيليا) أما أورشليم فهي التسمية العبرية للمدينة التي كانت موجودةً قديمًا بهذا الموضع، وهدمها «إيليوس هادريان» وبنى على مقربة من أنقاضها مدينةً أخرى هي «إيليا» أو «إيلياء» نسبةً إليه.. وتم استعادة الاسم العبري على يد المسيحيين، بعد قرون، لإضفاء القداسة على المدينة. أما القدس وبيت المقدس، فهي أيضًا تسمية عربية إسلامية أطلقت على المدينة استنادًا إلى تسميتها العبرية القديمة «بيت هاميقداش».

ثالثًا: احتوى الفيلم الذي كتبه كبار الكاتبين آنذاك، على مغالطات لا يمكن أن يكونوا قد سهوا عنها، ولا بُدَّ (فيما أرجِّح) أن تكون قد أُمليت عليهم. فمن ذلك شخصية «عيسى العوَّام» التي قدَّمها صُنَّاع الفيلم على أنه رجلٌ مصريٌّ مسيحي (يعقوبي) وجعلوه قائدًا عسكريًّا، في وقت كان المسيحيون في مصر والشام يدفعون الجزية مقابل إعفائهم من الالتحاق بالجيش (وهي ميزة لو أتيحت اليوم، لاستفاد منها كثيرٌ من المسلمين والمسيحيين، بل سارعوا إليها).. ثم يصل الإفك السينمائي إلى مداه، حين يقترن عيسى العوام (صلاح ذو الفقار) براهبةٍ فاتنة من الكاثوليك (نادية لطفي) في وقتٍ كان فيه الأرثوذكس، وما زالوا، يرون أن الكاثوليك كُفار. فضلًا عن أن الراهبات لا يرتبطن أصلًا بالرجال، أيا كانت ديانتهم. والأعجب من ذلك والأكثر فكاهةً، أن عيسى العوام الذي عاصر الحروب الصليبية، هو رجل (مسلم) بحسب ما أخبرتنا به المصادر التاريخية، كان ينقل المؤن للقلاع الساحلية المحاصرة، عائمًا، ثم مات في ليلةٍ غريقًا. وإذا بالحمولة التي كان عليه إيصالها، تطفو حتى ترسو في المكان الذي كان من المقرر أن يوصِّلها إليه، فقال معاصروه إن هذا الرجل (المسلم) المسمَّى عيسى العوام، أدَّى الأمانة حيًّا وميتًا.

ومن أجل إرضاء المسيحيين في مصر المعاصرة، المعصورة، بل المهصورة في زمن الستينيات على يد الضباط الأحرار «جدًّا» صار هذا الرجل على يد صُنَّاع الفيلم مسيحيًّا لا مسلمًا، وتم استغلال اسمه «عيسى» لتزييف شخصيته. ولا يفوتنا هنا، أن هذه «الترضية الحكومية» في الفيلم الذي تكلَّف قرابة السبعين ألف جنيه، ارتبطت

آنذاك برغبة الحكومة المصرية (الرشيدة) في إقامة كيان سياسي كنسي مصري، بإعلاء شأن كنيسة الإسكندرية (في القاهرة) ولذلك قدَّمت الحكومة سبعين ألف جنيه مصري أخرى، وقطعة أرض كبيرة بالعباسية، لإقامة «البطرخانة» الحالية. كان ذلك في زمن البطرك الهادئ المسالم الوديع «كيرلس السادس» ولم تكن الحكومة المصرية تدري أن الأمر سوف يتفاقم ليصل إلى ما وصل إليه هذه الأيام، ويتطوَّر إلى ما نشهده مؤخرًا من كلام الجهلة والسفهاء الذين صاروا في غفلةٍ من الزمان يتصدرون وسائل الإعلام.

نعود إلى الناصر أحمد مظهر، للتأكيد على أنه يختلف عن الناصر صلاح الدين، الذي تختلف حقيقته التاريخية عن صورته (السينمائية) في أذهاننا، وهي تختلف بدورها عن صورة الرئيس عبد الناصر بكل ما فيه من فضائل ومثالب؛ لنقول من بعد ذلك كله، إن وهم «المخلِّص الذي لا يخلِّص» كان وهمًا يتم توجيهه تلاعُبًا بالعقول، وتضييعًا لعقل هذه الأمة. وللأسف، فمن أراد أن يرى صورة سينمائية أقرب إلى الواقع التاريخي، وفيها كثير من الفن، فعليه بأن يشاهد فيلم «مملكة السماء» وهو الفيلم الذي لم تنجح الكنيسة المصرية الحالية في إجبار الحكومة المصرية الحالية على منعه، مثلما حدث مؤخرًا مع الفيلم البديع «أجورا» الذي يحكي عن مقتل العالمة «هيباتيا» ويحكي مرحلة مهمة في تاريخ مصر.

وبعد، فلنختتم هذا الكلام بنكتةٍ(١) سمعتها مؤخرًا، تقول: ظلَّ إمامُ مسجدٍ كبيرٍ يدعو الله في صلاة الجمعة قائلًا «اللهم أرسل لنا صلاح الدين لتحرير القدس» فاستجاب الله له، وخرج الناسُ من المسجد فوجدوا صلاح الدين على حصانه، يدعوهم لتحرير «أورشليم القدس» لكنَّ المصلِّين اعتذروا تباعًا عن عدم اللحاق به، لأن أحدهم عنده موعد مع طبيب الأسنان، وآخر مرتبط بحفل عيد ميلاد زوجته، وآخر عليه أن يأخذ أولاده إلى الدروس الخصوصية.. إلخ، فلم يجد صلاح الدين من حوله أحدًا، فصعد ثانيةً إلى السماء. وفي الجمعة التالية، دعا الإمام بعد الصلاة من جديد، قائلًا: «اللهم أرسل لنا صلاح الدين لتحرير القدس، هو والناس الذين كانوا معه».

---

(١) النكتة، في فصيح اللغة، هي: الدقيق من القول.

ومراعاةً لحقوق الملكية الفكرية، فهذه النكتة قالها لي مؤخرًا صديقي المخرج خالد يوسف، الذي أرجو ألا يُضطر يومًا لإتحافنا بفيلم (حلم) عن الظاهر بيبرس أو قطز أو أي «بطل» من هؤلاء العسكريين الذين تؤكِّد حياتهم الحقيقية أنهم كانوا أبطالًا من «البُطلان» وليس من «البطولة».. فالبطولةُ لا تكون فرديةً، وهي لا تتم ولا تؤتي ثمارها إلا بعد خروج «الناس» من الباطل، وبقائهم بعيدًا عن حيل المتلاعبين بالعقول، والزاعقين كذبًا في آذان الناس بالأوهام، والمتهتكين الهاتكين للحقائق المؤسَّسة للوعي العام.. فلعلَّ الله يرحمنا منهم، ولا يتحفنا بجديدٍ منهم ينادي في أهل زماننا بالباطل، قائلًا: «اللهم أرسلْ لنا رمسيس الثاني لتحرير قادش».

الخلافةُ والبابوية

على الرغم من (الغاغة) التي يثيرها اليوم في مصر، نفرٌ من «الرجال» المتحدِّثين باسم الإله في الأرض، فإن الأمور التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين في هذا البلد، لا تزال أكثر بكثير من الأمور التي تفرِّقهم. ليس على مستوى الواقع المعيش فحسب، وإنما أيضًا على مستوى التاريخ الطويل المشترك الذي صاغ عبر مئات السنين واقعنا المعاصر. وقد أشرتُ إلى ذلك بالتفصيل، في محاضرةٍ عامةٍ عُقدت قبل سنوات قليلة في مكتبة الإسكندرية، جمعت بين البابا شنودة وكاتب هذه السطور، وتحدث فيها «البابا» عن تاريخ كنيسته ومسيرته الرهبانية، بينما تحدثتُ عن حضور المسيحية في التراث العربي الإسلامي. وقد وضعتُ فيديو المحاضرة على صفحتي بالفيس بوك وموقعي على الإنترنت، ليعلم الناس ما كنا نقوله لإخواننا المسيحيين من كلام المحبة، قبل بضعة أعوام.

وقبل بضعة شهور، هاجت النفوسُ بسبب التصريحات التي أدلى بها واحدٌ من هؤلاء الذين يظنون في أنفسهم أنهم (لسان الإله) الناطقون بالحقيقة المطلقة، وما هم في واقع الأمر إلا كائناتٌ فكاهيةٌ تحبُّ إحداث «الهوسة» كل حين. وبمناسبة «فكاهي، وهوسة» فإنه في فصيح اللغة العربية، يقال عن الرجل أنه (فَكِهٌ) و(فَاكِهٌ) إذا كان يأكل الفاكهة كثيرًا، وإذا كان ينال من أعراض الناس. وصاحبنا الفكاهي يفعل

هذين الأمرين بإمعان، وليته يكتفي بالأمر الأول منهما، ويرحم الناس من (البُمب) الذي يطلقه في وجوههم كل حين. حتى أنه لم يتورَّع عن وصف المسيحيين المصريين الإنجيليين (البروتستانت) وهم قرابة مليون إنسان مصري، بأنهم والعياذ بالله، أولاد زنا، لأنهم لم يتزوَّجوا بالطريقة التي يراها هو شرعية: مع أن إخواننا «الإنجيليين» الذين وصفهم صاحبنا بهذه الصفة البشعة، هم في واقع الأمر أناسٌ طيبون عقلاء، ولم ير الناس منهم إلا خيرًا. وخيرًا يفعلون حين يتعاملون مع مثل هذه البذاءات التي تُقال في حقهم، بحسب ما أوصاهم به السيد المسيح، ولأنهم فيما أعلم، يراعون وصايا المسيح وتعاليمه الداعية إلى المحبة (حتى للأعداء) فقد ترفَّعوا عن الردِّ على هذا الكلام الوضيع.. أما كلمة «الهوسة» فمرادي منها ليس المعنى الفصيح المشتق من الهوس، وإنما المعنى العاميّ الذي يذكِّرني بلغة (الهوسا) وهي إحدى اللغات غير المفهومة لنا، التي يستعملها بعض سكان المنطقة الواقعة غرب الصحراء الإفريقية. وأعتقد أن وسائل الإعلام المصرية، إذا كَفَّتْ عن توجيه الأنظار نحو أقاويل هذا الشخص الفكاهي، أو عرضتها باعتبارها نوعًا من «الهوسا» الفكاهية أو النُّكات ثقيلة الظل، أو «الفذلكات» الفلسفية لشخصٍ لم يدرس الفلسفة، أو «نفسنة» سخيفة لرجل دين مسكين يظن في نفسه الظنون ويتوهَّم الأوهام. فإننا إذا نظرنا لأقواله من هذه الزاوية، كان ذلك أوفق لنا. لكن الأنسب لأقاويله الجوفاء هذه (الإنجيليون أولاد زنا غير شرعي، المسلمون اليوم ضيوفٌ في مصر.. إلخ) هو أن تُهمل تمامًا حتى لا ينشغل الناسُ بها، ويظنَّ بعض الحمقى والمساكين ذهنيًّا أنها كلام جاد، جاد به أحد المجتهدين السابحين في أوهام القرن الخامس الميلادي.

في القرن الخامس الميلادي، ظهرت في مصر بقوةٍ مسألة البابوية، كقضية مصيرية يموت بسببها البسطاء. وفي القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) ظهرت مسألة الخلافة الإسلامية، التي أثَّرت بدورها في تطور فكرة البابوية، وتأثرت بها. وفيما يلي سوف أستعرض لمحات تتصل بموضوع «الخلافة» وتطورها، وارتباطها بالبابوية، ثم أُشير بعد ذلك إلى مسألة «البابوية» وارتباطها بالخلافة. لنرى معًا كيف نتجت أوهامٌ مصرية عديدة، معاصرة، من هاتين الفكرتين القديمتين:

الأصل في «الخلافة» أنها مفهومٌ سياسيٌّ إسلاميٌّ ذو طابع ديني، وأعتقدُ أن اللفظة استُعملت منذ نشأة الدولة الإسلامية، للإشارة إلى نمطٍ من الحكم يختلف عن النظام الملكي. وقد ورد في الحديث الشريف، أن رجلًا دخل على النبي فأخذته الهيبة وراحت ركبتاه ترتعدان (في نص الحديث: أخذ تُرعد فرائصه) فطمأنه النبي بأن قال له: «هوِّن عليك، فلستُ بملكٍ ولا جبار، أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد».

وفي السيرة النبوية والقرآن الكريم، وردَ أن زوجات النبي هُنَّ «أمهاتُ المؤمنين» وهو ما يدلُّ بشكل غير مباشر، على أن النبيَّ هو «أبو المؤمنين» وإلا لما صارت زوجاته أمهاتٍ لهم. وقد استقر في الأذهان هذا المفهوم (الأبوي) للنبي، مع الممارسة العملية للسلطة؛ مع أن القرآن الكريم يقول صراحةً ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ إلا أن الانتماء الأبوي والقَبَلي في العقلية العربية، وضع النبي في مرتبة «الأب» للمؤمنين، وجعل زوجات كلِّ حاكم عربي حتى يومنا هذا بمنـزلة أمهات لمعاصريه، ولذلك لا يتزوَّج أيُّ شخصٍ من أيِّ زوجةٍ تركها الحاكم العربي بالوفاة أو بالطلاق، مهما كانت صغيرة السن.. وبمناسبة الإشارة إلى «أمهاتِ المؤمنين» لا بد هنا من لفت الأنظار إلى فجاجة انتقاد الجهلة للنبي محمد ﷺ، بسبب كثرة زوجاته، ففي واقع الأمر لم يكن نبي الإسلام متفرِّدًا بذلك في ذاك الزمان، ولا منفردًا به عن بقية معاصريه، الذين كانوا يتزوَّجون كثيرًا حسبما كان الحال يسمح آنذاك. بل إن زوجات النبي محمد، أقل عددًا بكثير من زوجات أنبياء وشخصيات العهد القديم المقدس عند اليهود والمسيحيين، خاصةً داود وسليمان، وأقل عددًا بكثيرٍ من «المحظيات» اللواتي حظي بهن ملوك مسيحيون أتقياء، أسهموا في نشر الديانة المسيحية بأنحاء الأرض، ومنهم «هرقل» الذي لم يقنع بزوجته وحريمه، وإنما (تزوَّج) أيضًا ابنة أخته «مرتينة» تحت سمع وبصر أساقفة زمانه ومباركة كثيرٍ منهم. مع أن ذلك كان دومًا ممنوعًا ومحظورًا، في الديانات الرسالية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام).. لكن الكلام شيء، ورغبات الحاكم شيءٌ أشدُّ وأَوْلى بالطاعة والمباركة، وعلى المتضرِّر أن ينتظر الإنصاف يوم القيامة.

نعود إلى مفهوم «الخلافة» الذي ورد لفظه في القرآن الكريم كصفةٍ لعموم الإنسان، فقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ والخلافة هنا مفهومٌ عامٌّ في الإنسان المستخلَف في الأرض، ولا يُقصد بها

تحديدًا المعنى السياسي، ولا اللقب الذي اتخذه الحكام المسلمون من بعد وفاة النبي.. وربما يرجع اختيار المسلمين لهذا اللقب (الخليفة) إلى كونه لفظة قرآنية ترتبط بمفهومٍ للحكم القائم على متابعة سيرة النبي، وليبتعدوا قدر الإمكان عن مفردات «الملك، الإمبراطور، القيصر، الشاه، كسرى» وهي تسميات سلطوية ارتبطت في أذهان المسلمين الأوائل، بالعنجهية المؤدية إلى فساد أهل السلطة. ومن هنا، خطب أول الخلفاء المسلمين «أبو بكر الصديق» في الناس بعد تولِّيه الأمر قائلًا: «لقد وُلِّيت عليكم (لاحظ هنا أن الفعل مبني للمجهول) ولستُ بخيركم، فأطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعةَ لي عليكم».. وهي عبارة معروفة، تدل على أن فكرة (العقد الاجتماعي) بين الحاكم والمحكوم، كانت واضحةً في أذهان المسلمين الأوائل بشكلٍ تلقائيٍّ ومباشر، كما تدل على أن المسلمين الأوائل تحاشوا متابعة النسق السلطوي العالمي السائد آنذاك، وهو المتمثل في دولتيْ الفرس والروم. وهما الدولتان اللتان نَخَرَ سوسُ السلطة عظامَهما، ومهَّد لتهاوي كل دولةٍ منهما بمجرد أن مسَّتها يدُ المسلمين العسكرية. ولهذا اعتبَر الحكامُ المسلمون الأوائل (أي أخذوا العبرة) بسابقيهم ومعاصريهم، واختاروا لرأس الدولة الوليدة اسم «الخليفة» الذي يُحيل ضمنًا إلى امتداد الأبوية النبوية في شخص المتولِّي أمر المسلمين، على اعتبار أنه (يخلف) النبي في الأمر. وبهذا المعنى، كان الخلفاءُ الأربعة المشهورون خلفاءَ للنبي في الأرض ومِنْ ثَمَّ حكامًا للمسلمين، ولذلك كانوا يتحاشون في حُكمهم البهرجة السلطوية التزامًا بالسيرة النبوية التي منها يستمدون شرعية حكمهم للمسلمين. ثم تطور الأمر حتى صار بحسب التعبير العربي القديم، والحديث الشريف (مُلكًا عضوضًا) أي ملكية يُعَضُّ عليها بالنواجذ[1]. وهو ما ظهر واضحًا في زمن الخلافة الأموية، ومن بعدها الخلافة العباسية، ومن بعدها المحاولة البائسة التي قام بها المماليك في مصر والشام لإحياء الخلافة العباسية بعد سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية، كي يكتسب المماليك (أولاد الناس) الذين لم يَعرف الواحد منهم أبًا، الشرعيةَ السلطويةَ على اعتبار أنهم يمثلون الخليفة (الشكلي) الحبيس في قلعة الجبل بالقاهرة، المسماة اليوم «قلعة محمد علي».

(١) الحديث النبوي: الخلافة بعدي ثلاثون عامًا، ثم تصير مُلكًا عضوضًا.

وكانت آخر «خلافة» إسلامية هي الدولة العثمانية، التي عضَّت بالنواجذ على السلطة، حتى أن الخليفة العثماني كان ليلة جلوسه على العرش يقتل كل إخوته، ليضمن أنهم لن ينازعوه في سلطانه أو ينتزعوه منه. وقد قتل أحد سلاطين العثمانيين ثلاثة وعشرين أخًا له، في ليلةٍ واحدةٍ، كي ينام قريرَ العين مُطمئنًا إلى أن أحدًا من مستحقي «الخلافة» لن ينازعه في أمر السلطة.

وقد انتهت دولة العثمانيين «الخلافة الإسلامية الأخيرة» بعدما تطرَّق إليها الفساد، وفقًا للقاعدة التي ذكرها «ابن خلدون» حين أكَّد أن البذخَ والترفَ، من المقدمات الممهِّدة لانهيار الدول. وقد قام «كمال أتاتورك» بإسقاط الخلافة، ثم أمعن في طمس معالمها باسم (العلمانية) التي أنقذ بها تركيا من براثن التخلف العثماني. وبينما كانتِ دولُ العالم تستفيق من آثار الحرب العالمية الأولى، وتستعد للحرب العالمية الثانية؛ كانت أمام الدول العربية مهامٌّ ضخام للخروج من مأزق التخلُّف العربي، واللحاق بطفرة التقدم الأوروبي. ولكن بدلًا من توجيه الأنظار إلى هذه (المهمة الحضارية) انهمك الملوك المصريون والسعوديون في الخلاف حول أحقية الملك فؤاد أو الملك سعود بالخلافة، وانقسم (العلماء) في أواخر العشرينيات من القرن العشرين، ما بين مناصرٍ لهذا (الملك) أو ذاك، ثم ما لبث هؤلاء العلماء أن انهمكوا في (النضال) حول أحقية كُلٍّ منهما بالخلافة المنحلَّة. وعُقدتَ المؤتمرات في القاهرة وفي الرياض، وثارت الخلافات، وتنازع الناس حتى فشلوا وذهبت ريحُهم.

ومع صدور كتاب «علي عبد الرازق» الشهير (الإسلام وأصول الحكم) وهو الكتاب الذي أكَّد أن الخلافة ليست شرطًا لقيام دولة الإسلام، هاجت ضد مؤلِّفه نفوسُ المعارضين والمغرضين، وتعقَّبوا الرجل حتى جعلوا حياته جحيمًا. لكنه في المقابل جعل حلمهم مستحيلًا، لأن الأوهام لا تستطيع الصمود طويلًا، إذا توجَّهت نحوها أنوارُ العقل والمنطق.

ومع انتصاف القرن العشرين خرج معظم المسلمين من وهم (الخلافة) المؤيَّدة من السماء، وأسهمت الحكوماتُ العسكريةُ التي حكمت معظم البلاد العربية والإسلامية،

في القضاء على وَهْم (حُلم) إحياء الخلافة.. ونسي معظمُ الناس هذا الأمر، ولم يعد يحلم به أو يتوهَّمه إلا جماعاتٌ محدودة العدد، تهرب بوعيها من مشكلات الواقع بالتحليق في سماء التوهُّمات. من غير اعتبارٍ لحقيقةٍ بدهيةٍ، هي أن إقامة الخلافة الإسلامية اليوم يقتضي أولًا تغيير نظام العالم أجمع، كي يمكن قبول مثل ذلك النظام السياسي.. ولا أظن أن أيَّ جماعةٍ من جماعات الحالمين اليوم بالخلافة، قادرةٌ على تغيير العالم. والله سبحانه أخبرنا بأنه لا يغيِّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، ولم يقل تعالى: حتى يحلموا أو يحلِّقوا في الأوهام.

وقد أراد الرئيسُ الراحل «أنور السادات» أن يجمع بين السلطتين العسكرية والروحية، فراح يعتكف بسيناء في «وادي الراحة» ويُطلق على نفسه اسم «الرئيس المؤمن» متناسيًا أنه رجل عسكريٌّ في الأساس، وأنه بهذه «العسكرية» حَكَمَ البلاد. ولتأكيد أنه (مؤمن) أطلق من دون وعي، ماردَ الجماعات الدينية المتطرفة التي استوحت لنفسها من فكرة «الخلافة» فكرةَ «الإمارة» فصار لكل جماعة (إسلامية) أميرُ (جماعة) ترى في نفسها أنها فقط الإسلامية، وبقية المسلمين هراطقة. وما لبث الناسُ الذين أحسنوا الظن في البداية بالجماعات الإسلامية (المتأسلمة) المتطرفة، أن اكتشفوا الحقيقة البسيطة القائلة إن هؤلاء المتأسلمين هم مجرد جماعة ساعية إلى السلطة، وإن هؤلاء «الأمراء» ليسوا «خلفاء» وإنما رءوسُ إرهابٍ نسوا أن الدعوة الإلهية (القرآنية) كانت لإعداد العُدَّة لإرهاب ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ فإذا بهم يرهبون المسلمين والمسيحيين وعموم المصريين، فيفرح بإرهابهم لنا: عدو الله، وعدونا، وآخرون من دونهم لا نعلمهم.

البابويةُ والخلافة

شهد النصف الثاني من القرن العشرين عمليةً عكسيةً لافتةً للنظر، فما كاد المسلمون يستفيقون من وَهْم «الخلافة» ومن الظن بأنها شرط لقيام الدولة التي يعيش الناس فيها تحت (ظلّ) الحاكم الذي هو (ظلّ) الإله في الأرض، حتى دخل المسيحيون في وَهْمٍ مطابقٍ من الجهة العكسية، بظنهم أن حياة الفرد المسيحي لا تستقيم إلا مع وجود

البابوية. ومراعاةً لحساسية الموضوع الذي سنطرحه عبر السطور الآتية، فمن المهم أن نورد قبل الخوض فيه، بعض المقدمات الضرورية الممهِّدة له، وهي ما نوجزه في النقاط الأربع الآتية:

أولًا: إن مرادي بالخلافة والبابوية هنا، هو الصورة السلطوية التي تستند إلى الحكم الدنيوي، وفقًا للحق الإلهي. وليس المراد من المفردتين، المعنى المجازي للرعاة والدعاة الذين يدعون إلى الله ويرعون هذه الجماعة (المؤمنة) أو تلك.

ثانيًا: إن كلامي عن المسلمين والمسيحيين لا ينطوي بالضرورة على عموم أهل الديانتين، فالتنوع داخل كل جماعة مصرية قد يمتد حتى يصل أحيانًا إلى حد التناقض، داخل الجماعة الواحدة. وعلى ذلك، فمقصودي هو «بعض» أولئك وهؤلاء، وليس جميعهم.

ثالثًا: إن تناول مثل هذه الظنون والأوهام، لا أقصد به الخوض في الاعتقاد الإيماني وصُلب الديانة المسيحية أو الإسلامية. ولذلك، فلن أتعرَّض للأحوال الدينية المتمثلة في الكتب المقدسة (الإنجيل والقرآن) وإنما أستعرض فحسب، صور الوعي العام الناتج عن مواقف تفسيرية وتأويلية، وعن اجتهادات فردية وطرق مختلفة في فَهْم الدين.

رابعًا: إن حديثي التالي ينطلق من قاعدة «المحبة» الواجبة على المسيحي والمسلم معًا، ومن ضرورة المناقشة العميقة (الهادئة) لتلك الموضوعات، بدلًا من إهمالها الذي يقود إلى استفحالها (في الظلام) وانتشارها في اللاوعي العام، ثم تصير مثل قنابل موقوتة يفجِّرها أصحاب المصالح الدنيوية، وقتما يريدون وحسبما يرون الوقت مناسبًا.. وبعد هذه «التمهيدات» أقولُ وبالله التوفيق:

البابويةُ والخلافةُ فكرتان تعودانِ إلى ما قبل المسيحية والإسلام، وترتبطان في جذورهما التاريخية بالدنيا، وليس الدين. وقد ذكرتُ فيما سبق، بعض اللمحات التاريخية التي تطورت خلالها فكرة «الخلافة» منذ فجر الإسلام حتى أيامنا الحالية التي تحوَّرت فيها الفكرة إلى صيغة «أمير الجماعة». ويبقى أن نشير فيما يلي بإشارةٍ موجزة، إلى أن الأصل العربي القديم في مسألة الخلافة هو أصلٌ سابقٌ على ظهور

الإسلام، يرتبط بالنظام السلطوي العربي الذي يقوم على أساس القبيلة التي يحكمها (شيخ القبيلة) ويدير شئونها وفقًا للقواعد العرقية التي تعتدُّ بالنَّسَبِ والقرابة. وقد ارتبط هذا المفهوم السلطوي القديم، بنظام السلطة في الإسلام من خلال مفهوم (الإمام) الذي هو المعادلُ الموضوعي لشيخ القبيلة، ولذلك قالوا في بداية «الدولة الإسلامية» بقاعدةٍ جمعت بين الإمامة والقَبَلية، انطلاقًا من حديثٍ شريفٍ رواه أحمد والطبراني، هو: الأئمة من قريش.

ثم تحوَّرت فكرةُ «شيخ القبيلة» لاحقًا إلى صيغة «شيخ الإسلام» التي انفصل من خلالها الحكم الديني للجماعة، عن الحكم السياسي الذي صار مخصوصًا بالخليفة (الخلفاء الأربعة، الخلفاء من بني أمية، الخلفاء من بني العباس، الخلفاء من العثمانيين..) فلم يعد من مهام الخليفة الأساسية، إمامة المصلِّين بالمسجد الجامع في عاصمة الخلافة، مثلما كان الحال في فجر الإسلام وفي زمن الفتوحات، وإنما توزَّعت المهام على نحوٍ يختصُّ فيه «شيخ الإسلام» بأمور الدين، ويختصُّ «الخليفة» بأمور الدنيا. مع الحفاظ على الصلة الخفية (القوية) بين هذا وذاك، والاحتفاظ بأولوية الخلافة على المشيخة، بمعنى أن الخليفة لا بُدَّ أن يكون راضيًا عن شيخ الشيوخ. ومع الاحتفاظ أيضًا بالسِّمة الأساسية لكل سلطة منهما، أعني صفة «الوراثة» في الخلافة، وصفة «الصلاح» في شيخ الشيوخ. ومن ثم فالحكم السياسي يورَّث بالضرورة، وليس من الضروري أن يتم توريث المنصب الديني. لأن الله بحسب الاعتقاد الشعبي العام، قد يخلق من (ظهر) العالم فاسد.

أما مفردة «البابوية» فهي الصيغة العربية التي تُرجمت إليها الكلمة اليونانية «بطريركية» فالبابا هو البطرك، وهو البطريق، وهو البطريرك. وقد ظهرت هذه الكلمة وتحدَّد هذا المفهوم، في وقتٍ سابقٍ على ظهور الديانة المسيحية. حيث أُطلقت صفة «البطرك» على كل عضو في مجلس الشيوخ الروماني «السناتو» الذي اشتق اسمه من كلمة (سناكس) اللاتينية، التي تعني الرجل المسن أو الأب. وعلى هذا النحو، تم استعمال المعنى المجازي لكلمة «بطرك» أو «أب» بما يفيد أن أعضاء السناتو هم

بمنـزلة آباء للشعب ورعاة للجمهور. وقد ظل هذا المعنى القديم باقيًا حتى وقت قريب، فكان أعضاء المجلس البلدي في الإسكندرية حتى النصف الأول من القرن العشرين، يُسمَّون: آباء المدينة (بالمعنى الإداري والسياسي للأُبوة).

وعندما انتشرت المسيحية في القرنين الثاني والثالث للميلاد، أحسَّ الناسُ المؤمنون بالدين الجديد آنذاك، بضرورة أن يكون لهم آباء روحيون يرأسهم «بطرك» بالمعنى الديني للكلمة، وليس بالمعنى الإداري والسياسي. وقد جاءت الديانةُ المسيحيةُ أصلًا كحركة إصلاحٍ للديانة اليهودية، وثورة روحية على المادية التي انتهى إليها اليهود في ذاك الزمان. كما جاءت من الجهة المقابلة، كحركة رفضٍ اجتماعيٍّ وتمرُّدٍ هادئ على الظلم السياسي لأباطرة الرومان، وعَنَتِ الحكام المحليين التابعين لروما «عاصمة العالم القديم».

بدأت المسيحيةُ من فلسطين والشام ومصر، وهي أطراف العالم اليوناني الروماني القديم، ثم غزت قلب الإمبراطورية (روما) حيث ظهر للمرة الأولى منصب «البابوية، البطريركية» كرئيسٍ لرجال الدين، ورأسٍ للإكليروس، وقمةٍ للتسلسل الهرمي للقساوسة. وظل لفظ «البابا» لزمن طويل يختص تحديدًا برأس الكنيسة في العاصمة الإمبراطورية، بحيث لا يحق لأيِّ رجلِ دينٍ آخر في أيِّ مكانٍ آخر، أن يوصف بالبابوية. ورويدًا، صار كل رجل دين «أبًا» لجماعته التي يتولى رعايتها، أو هو بحسب التعبير المصري المعاصر (أبونا) وصار «بابا روما» هو أبو الآباء. ورويدًا، اضمحلَّ سلطان روما السياسي وتأسست عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية هي «بيزنطة» ذات الأسماء العديدة: القسطنطينية، إسلامبول، إسطنبول، الآستانة، إستانبول. ورويدًا شعرتْ المدن الكبرى أنها الأحق بصفة «مدينة الله العظمى» فتنافس رءوس الكنائس في بيزنطة والإسكندرية وأنطاكية وأثينا، للوصول إلى مرتبة «البابوية» لجميع المؤمنين في العالم. وما لبث هذا التنافس الكنسي أن ظهر في الاجتماع العالمي (المسكوني) لرجال الدين المسيحي، وهو المعروف اصطلاحًا باسم: مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية. ثم صار خلافًا حادًا بين الكنائس الكبرى في مجمع أفسوس الأول (سنة ٤٣١ ميلادية)، ثم أصبح صراعًا مريرًا

في مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١ ميلادية)، وهو الاجتماع الذي انشقت فيه الكنائس، وأُهين الأسقف العام للإسكندرية الأنبا[١] ديسقوروس.

وأدى الصراعُ الكنسيُّ المريرُ إلى كوارث إنسانيةٍ أدَّت إلى سقوط مئات الآلاف من البسطاء، ضحايا للعقيدة (شهداء) لأنهم اعتقدوا أنهم جنودُ الحق وأهل الفرقة «الناجية» التي ستتحدث عنها بعد حين.. ترنُّ الآن في أُذني، قصيدة محمود درويش الختامية «لاعب النرد» حيث يقول:

ومصادفةً،
صار منحدر الحقلِ في بلدٍ، متحفًا للهباء
لأن ألوفًا من الجند ماتت هناك، من الجانبين،
دفاعًا عن القائدين اللذين يقولان: هيَّا
وينتظران الغنائم في خيمتين حريريتين، من الجهتين
يموت الجنودُ مرارًا، ولا يعلمون إلى الآن مَنْ كان منتصرًا
ومصادفةً،
عاش بعضُ الرواة وقالوا: لو انتصر الآخرون على الآخرين،
لصارت لتاريخنا البشري، عناوينُ أخرى.

وقد استقر حالُ المسيحيين بعد حينٍ من الدهر، على قاعدة الخلافِ المذهبيِّ المريع وعلى رئاسة عدة بابوات «بطاركة» في روما (الكاثوليك) وأثينا (الأرثوذكس اليونان) وأنطاكية (الأرثوذكس السريان) والإسكندرية (الأرثوذكس المصريين) والقسطنطينية (الأرثوذكس الملكانيين) مع وجود سلطة سياسية واحدة في تلك النواحي، هي الإمبراطورية البيزنطية التي انهزمت لاحقًا أمام المسلمين الفاتحين.

ولأن حياة الإنسان مزيجٌ من الدين والدنيا، وجدلية دائمة بين ما هو دنيوي وما هو ديني (وكلاهما لا غنى له عن الآخر) فقد شهد تاريخ المسيحية تقلُّبات كثيرة بين السلطتين الدنيوية «السياسية» والدينية «البابوية»، ودلَّت الشواهد على أن ضعف

---

(١) أنبا وأمبا، تعني حرفيًا: الأب المعلِّم.

السلطة السياسية يؤدي إلى ازدياد السلطة البابوية وهيمنتها، لأن الاهتراء السياسي (الدنيوي) يؤدي بالضرورة إلى بؤسٍ اقتصادي واجتماعي، يدفع الناس البسطاء إلى التعلُّق بالأمل (الديني) لإدراك النعيم الأخروي، عوضًا عن فقدانهم السعادة في هذا العالم. وهو ما يظهر واضحًا في العصور الوسطى الأوروبية المسماة «عصور الظلام»، حيث كان «البابا» في روما هو المهيمن على الملوك والأمراء. بل كان هو الذي يعيِّن هؤلاء الملوك، وكأنه الرئيس الفعلي للعالم الأوروبي وملك الملوك جميعهم، باعتبار أنه الصورة المعاصرة (المتجدِّدة) للمسيح في الأرض، ومن ثم فهو ظلُّ الإله وخليفة المسيحيين كلهم. مع أن السيد المسيح، قال في صريح الإنجيل: «مملكتي ليست من هذا العالم».

وفي مصر كان الأرثوذكس المصريون يعانون الويلات من الأُرثوذكس الملكانيين، الذين كانوا آنذاك: أصحاب البلد. فلما جاء المسلمون، رأى الفاتح البديع «عمرو بن العاص» أن من مصلحته ومصلحة البلاد، أن يستدعي الأنبا «بنيامين» بطرك الأرثوذكس المصريين، من المخبأ الذي كان قد اختفى فيه.. وبعد قرونٍ من انتظام حال المسيحيين المصريين، مع العرب الكثيرين المقيمين بمصر من قبل الفتح، ومع المسلمين الكثيرين الذين جاءوا بعد الفتح، ومع اليهود الذين سكنوا مصر قبل الفتح وبعده؛ ظهرت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) اتجاهاتٌ مسيحيةٌ مصريةٌ تطوَّرت في إطار الدولة الإسلامية المصرية، تزعم أن لمصر تاريخًا دينيًّا (مسيحيًّا) خاصًّا، يتمثل في سلسلة الخلفاء الروحيين للسيد المسيح. وكان أشهر «إعلان» لذلك آنذاك، هو كتاب أسقف الأشمونين «ساويرس بن المقفَّع» الذي وضعه باللغة العربية (لأن أغلب أهل مِلَّته، كما يقول: ما عادوا يعرفون غيرها) وجعله بعنوان: «تاريخ الآباء البطاركة».. وبالمناسبة، فإن كلمة «المقفع» تعني صانع السِّلال التي تسمَّى بالعامية القُفف، ويسمَّى صانعها المقفّع.

يستهلُّ ساويرس بن المقفَّع كتابه الذي طُبع مؤخرًا عدة طبعات، بديباجةٍ يقول فيها ما نصُّه: «وأنا ممن لا يجب أن يكتب بخط يده البالية الفانية، شيئًا من أخبارهم (يقصد:

الآباء البطاركة) فاستعنتُ بمَنْ أعلم استحقاقهم (مكانتهم) من الأخوة المسيحيين، وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه من أخبارهم، بالقلم (اللغة) القبطي، إلى القلم العربي الذي هو معروفٌ عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر، لعـدم (لانعدام) اللسان القبطي من أكثرهم».. ونلاحظ في النص السابق، المنقول بتمامه، أن المؤلف لم يستعمل كلمة «الأقباط» للإشارة إلى المسيحيين المصريين، وأنه استعمل كلمة «القبطية» بالمعنى المتعلق فقط باللغة، وليس بالدين.

ثم يبدأ الأسقف ساويرس بن المقفع كتابَه ببيانٍ أن سلسلة الخلافة الروحية للمسيح في مصر، تبدأ بأول البطاركة «الرسول العظيم المعلِّم بولس المصطفى».بحسب تعبيراته الدالة على تأثُره الواضح بالمفاهيم الإسلامية السائدة في عصره، حيث نلمح الصفات الإسلامية الشهيرة (الرسول، المصطفى) وقد أُضيفت في النص إلى الحواريِّ «بولس» تلميذ السيد المسيح، الذي كتب الإنجيل المعروف باسمه. ثم ينتقل المؤلف إلى الحلقة الثانية في سلسلة الخلفاء (البطاركة) وهو بحسب نص الكتاب «رئيس أساقفة الإسكندرية، مرقس اليهودي» وقد استوقفني وصفه له باليهودي وبرئيس أساقفة الإسكندرية، في وقتٍ لم يكن فيه بالإسكندرية أساقفة مسيحيون. وعلى كل حال، فإن «مرقس» المذكور، هو ذاته «سان ماركو» الذي نقل الإيطاليون منذ قرونٍ طوالٍ جثمانه الذي كان مدفونًا بالإسكندرية، ودفنوه في الكنيسة البديعة الموجودة اليوم في مدينة «فينسيا» أو «البندقية» التي تعدُّ واحدة من روائع العمائر المبهرة منذ قرون.

ويمرُّ الكتاب على فتراتٍ زمنيةٍ لا يذكر فيها أي «بطرك» مما يعني أن سلسلة الآباء البطاركة، انقطعت في سنوات عديدة. كما يمرُّ على آباء بطاركة من أمثال ديمتريوس الكَرَّام (١٨٩ - ٢٣١ ميلادية) الذي كان متزوِّجًا. لكن الأسقف السابق عليه، رأى في منامٍ أن الذي سيدخل عليه ومعه عنقود عنب (كَرْم) سوف يصير أسقفا، فدخل هذا المزارع البسيط وفي يده عنقود من بواكير ثمار العنب، فعرضوا عليه الأمر فأشفق على نفسه من هذه المهمة: «فأخذوه قهرًا وقيَّدوه بقيدٍ حديد» ولما اعترض المعترضون عليه بأنه متزوِّج، رَدَّ عليهم المؤمنون حسبما ورد بالنصِّ في كتاب (الآباء البطاركة)

لي: «قال تلاميذ المسيح في قوانينهم، إن الأسقف إذا كان متزوجًا بامرأةٍ واحدةٍ، يُمنع من ذلك، لأن الزوجة المؤمنة طاهرة وفراشها طاهر ولا ذنب عليها».

وفي النص السابق الذي نقلته بحروفه، تتجلَّى عدة أمورٍ أهمها أنه لا مانع من أسقفية المتزوِّج، وأن المسيحية كانت تسمح بتعدُّد الزوجات (وإلا لما قال: بامرأةٍ واحدةٍ) وأن تلاميذ المسيح كانت لهم قوانين. لكن الأهم من ذلك كله، أن المؤلف لم يستعمل كلمة «البابا» وإنما كان يقول دائمًا «البطرك» الذي بحسب التعريف الذي قدَّمه له في الكتاب: هو أسقف مدينة الإسكندرية، وله الرياسة على أساقفة أعمالها. أي المناطق التابعة لها. مما يعني أن البطرك مفهومٌ مكانيٌّ يرتبط بموضعٍ محددٍ هو الإسكندرية، وليس حسبما يتوهَّم اليوم كثيرون، ممن يردِّدون أن البطريركية هي المكان الذي يكون فيه البطرك، أيًّا كان هذا المكان.

ومع تراكم الموروث «البطريركي» ومداومة تأكيد رجال الدين المسيحي ضرورة الطاعة للبطرك والمحبة لها، على اعتبار أن البطرك الذي صار يسمى مؤخرًا «البابا» بيده مفاتيح الملكوت الأعلى «ملكوت السماء» فضلًا عن أن التحلُّق حول البطرك، يعطي شعورًا بالأمان للجماعات المؤمنة التي تشعر في قرارة نفسها بالتوجُّس والخوف المقيم والقلق، وغير ذلك من المشاعر التي طالما غمرت قلوب الأقليات على مَرِّ العصور. ومن هنا حرص الآباء دومًا على عدم اندماج الشعب (الأقلية) مع بقية الجمهور (الأغلبية) كي يضمنوا دومًا طاعة هؤلاء المساكين، المحتاجين دومًا إلى الأمان الروحي والاجتماعي.

وفي عديد من المراجع والمصادر التاريخية، تقابلنا النصوص الدالة على وجوب طاعة المسيحيين (الشعب) للآباء، وعلى رأسهم البطرك. وهو الأمر الذي امتد بفعل التغذية المستمرة، حتى مطلع العصر الحديث وصولًا إلى واقعنا المعاصر. ففي نصٍّ مهم من كتاب يُفترض فيه الحيدة والوصف المجرد، هو كتاب (وصف مصر) الذي أنجزه علماء الحملة الفرنسية في بداية القرن التاسع عشر، نقرأ في الجزء المعنون «المصريون المحدثون» بحسب الترجمة العربية التي قام بها «زهير الشايب» في صفحة ٢٧ وما بعدها، الآتي:

«تتخذ أمة الأقباط (في مصر) كرئيس أعلى لها وكزعيم دينيٍّ ودنيوي، حبرًا هو الشخصية الأولى في الكنيسة، ويلقب بالبطريرك.. ولا تُعرف لسلطته حدود، إلا ما تفرضه العادات المستقرة وإرادة حكام البلاد. وهو يفصل في كل الخلافات التي تقع بين كل رعيته.. ويثق القبطي ثقة عمياء في قساوسة طائفته، ولهؤلاء القسس (القسوس) تأثير كبير على النفوس، وبمقدورهم بقليل من الحيلة أن يسيئوا استغلال ذلك، لكنهم في غالب الأحيان جهلةٌ مثل بقية أبناء الشعب. وليس ثمة بينهم إلا عددٌ ضئيل للغاية، قد وصلوا إلى درجة من العلم يستطيعون معها أن يقرأوا كتب الطقوس الدينية.. وبالرغم من هذا التقدير العميق لرجال الدين، فإن القبطي لا يسمح لزوجته أن تسفر عن وجهها أمامهم، بل إن البطريرك لا يمكنه أن يرى سيدة سافرة، إلا إذا كان زوجها هو الذي سمح بذلك، وعن طيب خاطر»...انتهى النصُّ.

إشارةٌ: الفقرة الأخيرة تدل على أن المسيحيات في مصر أيام الحملة الفرنسية، لم يكنَّ سافرات.. إشارةٌ أخرى: سافرات هي عكس محجبات.. إشارةٌ أخيرة: الحجاب اختراع يهودي في الأساس أخذه المسيحيون من اليهودية، وأخذه المسلمون عن أولئك وهؤلاء.. فتدبَّر. وختامًا للكلام عن الخلافة والبابوية (البابوية والخلافة) لا بد من الإشارة إلى نقطة يجتمع عندها هذان المفهومان، هي تأكيد كل منهما لرعاياه أنهم تحديدًا «الفرقة الناجية» وهذه نقطة محورية، تستحق أن نتوقف عندها.

الفرقةُ الناجية

عاد من العمرة أحدُ الفلاحين فجاءه شقيقه مهنِّئًا بسلامة الوصول، ومستخبرًا منه عما رآه هناك، فقال له الذي اعتمر: واللهِ يا أخي، لقد تأملت هناك في أحوال المعتمرين من حولي، فلم أجدهم مستمسكين بالدين مثلنا، فتأكَّدتُ من أن الإيمان الصحيح لا يوجد إلا بمصر فقط، لكنني بعد عودتي تأملتُ في أحوال أهل المدن المصرية فوجدتهم لا يعرفون صحيح الإيمان أيضًا، فعرفتُ أنه موجود في القرى والريف فقط؛ ثم رأيتُ معظم هؤلاء القرويين يخالفون الشريعة الحقَّة ولا يعرفون صحيح الإيمان، فعرفت أنه موجود في قريتنا فقط؛ ثم رأيتُ معظم أهل قريتنا لا يلتزمون ولا يعرفون صحيح الإيمان. فعرفتُ أنه موجود في أسرتنا فقط؛ ولكن معظم أفراد أسرتنا لا يحافظون على الحدود الشرعية بدقة،

ولا يعرفون صحيح الإيمان؛ فعرفتُ أن الإيمان الصحيح والالتزام الدقيق بالشريعة موجودٌ عندي وعندك فقط، ولكني أشكُّ كثيرًا في إيمانك.. تلك هي «النكتة» التي سمعتُها من صديق، وعدَّلتُها هنا لتناسب النشر والإشارة إلى «النقطة» الدقيقة التي سوف نعرض لها فيما يلي، كي نرى كيف نشأت وتطورت خُرافةُ الفرقة الناجية، وكيف يقوم هذا المفهوم الديني (المأزوم) على قاعدة الاستبعاد للآخرين:

الفرقةُ الناجية، مفهومٌ دينيٌّ قد يبدو للوهلة الأولى إسلاميًّا. لكننا سنرى أن الإطار العام في هذا المفهوم هو فقط الإسلامي. أما (المحتوى) فهو قديمٌ عتيق، يقتضي فهمه أن نعود إلى زمنٍ سحيق سابق، لنرى كيف نشأ ثم تطور حتى صار صفةً غالبة، وخرافة مسيطرة على عديد من الناس في زماننا المعاصر.

في الحضارات الأولى التي أعطت للإنسانية أصول ومبادئ المعرفة والفن والأدب، أعني في مصر القديمة واليونان واليمن وشمال الجزيرة، كان الناس يعبدون لآلاف السنين آلهةً متعدِّدة، ويدينون بأديان مختلفة فيما بينها. وهي الديانات التي سوف تُسمَّى لاحقًا، باسمٍ جامعٍ يتضمَّن الإدانة لها، هو «الوثنية» ويطلق على أهلها اسمٌ عامٌّ طافحٌ بالرفض، هو: الكفار. وفي تلك الأزمنة القديمة قامت حروبٌ كثيرةٌ بين الدول والجماعات، بعضها كان خاطفًا وبعضها الآخر كان يمتد لسنوات طوال، لكنها في نهاية الأمر كانت حروبًا محدودة بحدود الأهداف الكامنة وراءها، والدافعة لها، وهي بشكل عام تتمثل في أهدافٍ محددة من نوع: توسيع النفوذ السياسي، والبحث عن مزيد من الثروات، وردِّ الإهانات، وحماقات الحكام ومؤامرات الحروب.. ومثل ذلك من أمور.

ولم تشهد الحضارات القديمة فيما نعرف، حربًا واحدة شُنَّت أساسًا لسببٍ دينيٍّ، بمعنى أنه لم تحارب جماعةٌ أو دولةٌ من أجل نُصرة الإله أو تأكيد الدين والعقيدة. فلا مصر القديمة حاربت الحيثيين لإجبارهم على الإيمان بآمون أو «رع» أو «تاسوع طيبة»، ولا اليونان غزت العالم لبسط سلطان الإله زيوس، ولا الفرس بسطوا سلطانهم على الأرض المجاورة باسم المجوسية والثنوية (أي عبادة الإلهين: النور المسمَّى يزدان،

والظلام المسمَّى أهرمن).. وكأن أهل الأزمنة القديمة، كانوا على نحوٍ ما يطبّقون القاعدة الإلهية التي جاءت بعدهم بقرون من الزمان، في قوله تعالى ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ وكأنهم كانوا على نحوٍ ما يدركون أن للإله تجليات مختلفة، لا يصحُّ الخلاف والجدال حول صحة بعضها وضلال بعضها الآخر. وهو الإدراك الواعي الذي نلمحه في تلك الترنيمة الدينية البديعة، المنسوبة إلى الإلهة المصرية إيزيس: «أنا الطبيعةُ، أنا الأمُّ الكونية، سيدةُ العناصر كلها. عُبِدتُ بطرقٍ شتى، وأُطلِقتْ عليَّ أسماءٌ كثيرة، لأن جميع أهل الأرض يقدِّسونني»..

وفي التراث اليهودي، تشكَّل منذ وقت مبكر اعتقادٌ يقول إن اليهود وحدهم هم أبناء الربِّ، والآخرين من الناس هم «الأمم». وجعل اليهود الانتساب لدائرتهم المتميِّزة خياليًا، يتم على أساسٍ عرقي لا إيماني. فاليهودي (النقي) هو من كانت أمُّه يهودية، والذي يؤمن بدياناتهم من دون أن يولد لأمٍّ يهودية، فهو لا يسمَّى يهوديًا وإنما هو «هودي» أو «متهوِّد» بمعنى أنه أقلُّ درجةً وأخفض منـزلةً. إذن، في اليهودية تصوُّر قائم على أن «النسل الإبراهيمي» من الزوجة الأولى «سارة» هو فقط (شعب الله المختار) من دون تبيانٍ لسبب ذلك الاختيار، أو تعليلٍ لذلك الاحتقار الذي ينظر به اليهود إلى الآخرين. وأظنه في حقيقة الحال، ردًّا على الاحتقار بالاحتقار! المهم هنا، أن هذه الفكرة نبتت أولًا مع اليهودية على أساسٍ عرقي.

ومع صراع المذاهب والكنائس المسيحية، تولَّدت في النفوس فكرة مستقاة من التراث اليهودي السابق على المسيحية، مفادها أن أهل هذه الكنيسة بالذات هم فقط المؤمنون، وسائر المعارضين «هراطقة» لا يستحقون صفة أبناء الربِّ. بمعنى أن كل جماعةٍ ترى لنفسها فقط، فضلَ الإيمان الذي يجعلهم الناجين من نار الكفر وجحيم الهرطقة، سواءٌ في الدنيا أو في الآخرة. ومن هنا ظهرت في التراث المسيحي المكتوب باللغة اليونانية، وهي اللغة الرسمية للكنائس الكبرى آنذاك، نصوصٌ تسمى باليونانية «أناثيما» وهي الكلمة الخطيرة التي تعني بالعربية «اللعنات» أو «الحرومات» وما هي إلا إقراراتٌ إيمانيةٌ تُعرض على الشخص المسيحي. فإن قَبِلَها صار من المؤمنين

الناجين وإن أنكرها أو اعترض على شيء فيه. فهو هرطوقي (كذا) لا ينتسب للجماعة التي اختارها الربُّ.

وفي الإسلام، وفي غمرة صراع المذاهب العقائدية (الكلامية) الكثيرة، والتيارات الدينية المتعدِّدة المختلفة «أهل السنة، المعتزلة، الأشاعرة، الخوارج، الشيعة.. إلخ» اشتهر حديثٌ نبوي خطيرُ المعنى، يقول ما نصُّه: «تفترق أمتي على بضعٍ وسبعين فرقة، كلُّها في النار، إلا واحدة». وقد عُرفت هذه الفرقة «الواحدة» في التراث الإسلامي باسم «الفرقة الناجية» وتأسَّس على ذلك مع مَرِّ الأيام واحتدام الخلافات المذهبية، ما يُشبه الإجماع على هذا المفهوم، مع أن كثيرين من المحدِّثين (علماء الحديث النبوي) نقدوا سند هذا الحديث ومتنه، أي روايته ومضمونه؛ إلا أن ذلك لم يمنع من انتشار فكرة الفرقة الناجية، خاصةً في أزمنة التخلف الحضاري وضعف دولة الإسلام.

ومع أن كثيرًا من المؤرِّخين المسلمين تحاشوا النظر في اعتقادات الجماعات الإسلامية المختلفة من زاوية «الفرقة الناجية» ومع أن عديدًا من علماء السَّلَف جعلوا جميع الفرق والمذاهب داخلةً في إطار الإسلام بمعناه العام، وهو ما يظهر من عنوان كتاب الإمام أبي الحسن الأشعري: «مقالات الإسلاميين». إلا أن القرون الأخيرة (والسنوات الأخيرة، والأيام الأخيرة) شهدت نزوعًا عجيبًا نحو تأكيد مفهوم الفرقة الناجية، وهو ما أدى إلى انقسامات شديدة بين الجماعات التي تقوم على أساس عقائدي، سواء كانت جماعاتٍ كبرى لها تاريخ وتراث كالسُّنة والشيعة، أو جماعاتٍ فرعية مثل تلك التي سُمِّيت مؤخرًا (الجماعات الإسلامية) وهي تسمية تُخرج غيرهم من الدائرة (الإسلامية) التي يزعمون. ثم أمعنوا في تطبيق مفهوم الفرقة الناجية على بعضهم البعض، فكانت الانشقاقات الكثيرة بين الجماعات الكثيرة (الإسلامية) فضلًا عن الصراع المرير بين المذاهب، الذي وصل في القرن السابع الهجري (في الشام) إلى تقاتل الأحناف والشافعية، ورَفْض كل منهما التزاوج والمصاهرة مع الآخر. ووصل في يومنا هذا إلى تكفير أولئك لهؤلاء، وكلهم أصلًا مسلمون، وردّ هؤلاء على أولئك بالتكفير.

ومهما يكن من صحة الحديث النبوي المذكور سابقًا، الذي لم ينصّ صراحةً على لفظ (الفرقة الناجية) فإن الإمعان في إشاعة هذا المفهوم والترويج له على مَرِّ تاريخنا، ومُرِّه، يعود في تقديري إلى «أزمة» نفسية تعصف بأصحاب هذه الاتجاهات التي تسلب الجميع صفةَ الإيمان، ومن ثم صفة النجاة من عذاب الآخرة، ومن ثم وجوب التنكيل بهم في الدنيا.. وهو مدخلٌ خطير، ووَهمٌ عظيم، يخالف أبسط المعاني التي دعت إليها الديانات عمومًا، ويهدر الفكرة الأساسية في أي دين: أعني فكرة أن الإله، هو إله الجميع.

سوف أكتفي بهذا القدر، ليس لأن الموضوع انتهى (فالموضوعات الكبرى لا تنتهي أبدًا) وإنما لأنني لستُ إلا صانعَ أسئلة، وداعيًا إلى التفكير والتأمُّل. ولا أطمح إلا لإثارة نهم العقول إلى النظر والمعرفة، آملًا الخروج من معتقل الأهواء والأوهام.

مصرُ المحروسة

حتى وقتٍ قريب، ولزمنٍ طويل سابق، كان الذين يذكرون اسم مصر أو القاهرة يُلحقون بكل اسم منهما صفة «المحروسة» فيقولون: مصر المحروسة، القاهرة المحروسة. وكان بعضهم يستغني أحيانًا بالصفة عن الاسم، على اعتبار أنه إذا قال «المحروسة» فقط، فمراده الإشارة إلى مصر أو القاهرة. وكنتُ في الصِّغر أعتقد أن هذه الصفة تخصُّ بلدنا وعاصمتنا، لكنني رأيتُ لاحقًا في نصوصٍ تراثيةٍ كثيرة، أنهم كانوا يقولون أيضًا (دمشق المحروسة، حلب المحروسة، حماة المحروسة) فهو إذن تقليدٌ مصري/ شامي قديم، لا يختص بالضرورة بمدينة معينة. وقد تفنَّن أهل الأدب السابقون في (تلوين) هذا المعنى بضروب البلاغة وبدائع العبارات التي منها مثلًا قولهم «سور حَماة بربها محروس» وهي العبارة التي إذا انعكست حروفها وقُرئت من آخرها إلى أولها أعطت القول نفسه، وبتعبيرٍ تراثي، فإن العبارة واحدةٌ إذا قُرئت طَرْدًا وإذا قُرئت عَكْسًا. ولكن ما علينا الآن من تفانين البلاغيين، ومن اعتيادنا وصف (الحراسة) وتكراره على المسامع حتى صار راسخًا في الأذهان. فالسؤال

الآن: إذا كانت مصر والقاهرة وغيرهما (محروسة) فمن الذي يحرسها؟ أم أن تلك (الحراسة) وَهْمٌ في الأذهان؟

في قصيدةٍ غير مشهورة لمحمود درويش، كتبها تعليقًا على اتهام الفلسطينى «سرحان بشارة سرحان» بقتل الرئيس الأمريكي كيندي، وجعلها بعنوانٍ حداثيٍّ غريب هو (سرحان يشرب القهوة في الكافيتريا). يستهلُّ الشاعر نصَّه الشعري بقوله:

يجيئون،
أبوابنا البحرُ، فاجأنا مطرٌ
لا إله سوى الله، فاجأنا مطرٌ
ورَصَاصٌ
هنا الأرضُ سجادةٌ، والحقائب غربةٌ.

وفي قلب القصيدة يقول محمود درويش، بعدما توغَّل في رسم صورٍ شعرية (سريالية) مستقاة من شخصية «سرحان بشارة» ومن تجربة الشاعر نفسه، ما نصُّه:

وما شرَّدوكَ، وما قتلوكَ
أبوك احتمى بالنصوص، وجاء اللصوص
ولستَ شريدًا، ولستَ شهيدًا
وأُمُّك باعتْ ضفائرها للسنابلِ
والأمنيات

كنتُ قد قرأت هذه القصيدة أولَ مرةٍ أيام كنتُ تلميذًا بالمرحلة الإعدادية، فلم أفهمها تمامًا آنذاك، ولكن علقت بذهني منها أجزاءٌ. وقبل سنوات كنتُ أُلقي محاضرة في جامعة الدول العربية عنوانها «الخروج بالتراث من النصِّ إلى الخطاب» وفي أثناء كلامي، ومن غير تدبيرٍ مسبق، أردتُ التدليل على ضرورة التخلُّص من حالة الانبهار بالتراث، سعيًا لإعادة بنائه وتطويره، فاستشهدتُ بما قاله محمود درويش: أبوك احتمى بالنصوص وجاء اللصوص.. وثار الحاضرون بسبب ما قلته، وصخب عليَّ الدكتور «محمود الطناحي» وصاح بحنقٍ في القاعة تعليقًا على قول الشاعر «أبوك احتمى

بالنصوص وجاء اللصوص» وزعق بما معناه أنه لا يجوز الاستشهادُ بهؤلاء الشعراء، فإن المقصود بالنصوص في كلامهم هو القرآنُ الكريم، ولا يصحُّ الكلامُ بهذا الشكل عن القرآن ووصفه بأنه نصٌّ أو نصوص.

في ذاك الوقت، كانت أزمة الدكتور «نصر حامد أبو زيد» قد ابتدأت بسبب كتابه (مفهوم النص) وكان بالشارع المصري صخبٌ آخر عنيف، انتهى إلى ما نعرفه من الختام الحزين المهين، الذي لحق بنا كبلدٍ يزعم أنه متحضِّر وبالدكتور نصر أبو زيد الذي آل أمره إلى الهجرة عن مصر[1]. ولأنني أيامها كنتُ أصغر سنًّا من المشاركين في المؤتمر، بعشرات الأعوام، فقد ألزمني الأدبُ بالسكوت. فلم أردّ على ما قاله د. محمود الطناحي، وخصوصًا أنني رأيتُ صديقي د. فيصل الحفيان (منسِّق المؤتمر) وقد امتقع وجهُه خشية انفلات النقاش الأكاديمي، وتحوُّله إلى جدال سجالي. لكنني بقيتُ من بعدها أفكِّر طويلًا في أمورٍ من مثل: ما الضيرُ في وصف القرآن الكريم بأنه «نصٌّ» لا سيما أن مشايخنا القدماء كانوا يقولون من غير حرج، عبارات من نوع: وقد نصَّ القرآنُ الكريم على ذلك.. وفي نصِّ الحديث النبوي أن.. لا اجتهاد فيما نزل فيه نصٌّ (لا اجتهاد مع النصّ) ولم يؤثَرَ عن واحدٍ من مشايخنا التراثيين أو مشاهير أعلام الإسلام، أنه قال إن النصوص تحرس من اللصوص.

وثارت في باطني منذ ذلك الحين، تساؤلات عن السرِّ الذي يدعونا للاحتفاظ بنسخةٍ من المصحف الشريف في السيارات، وهو التقليد الذي صار عامًّا عند سائقي التاكسي المسلمين. بل وجدتُ مؤخرًا بعض طائرات مصر للطيران، تضع في مدخلها إطارًا زجاجيًّا مغلقًا، بداخله مصحف (قرآن) ليس للقراءة.

هل يحرس المصحفُ الشريف؟ وإذا كان كذلك، فهل حراسته مخصوصة بالمسلمين، أم هو يحرس الإنسان بعامة؟ وهل تفعل آيات القرآن بذاتها، أم بصدق التلفظ بها؟.. معروفٌ أن الإمام «عليَّ بن أبي طالب» عندما احتالوا عليه برفع المصاحف

---

(١) لم يكن الصديق الدكتور «نصر أبو زيد» حين نُشرت هذه المقالة قد مات في الغربة، ميتَة الغريبة بعد سنوات طوال قضاها طريدًا، لا يقر له في بلاده قرار.. سأعود لاحقًا لتلك النقطة.

فوق أسنَّة الرماح، قال عبارته المشهورة: «هذا الكتاب لا ينطق وإنما ينطق به الرجال». ومعروفٌ أن طائفة الشيعة الإسماعيلية المعروفين باسم «الحشَّاشين» كان من تقاليدهم أن يمزق الواحدُ منهم المصحف في مرحلةٍ معينة من مراحل دخوله في هذه الجماعة (أو هكذا قيل عنهم) ومعروفٌ أن أعداء المسلمين، قديمًا وحديثًا، كثيرًا ما مزَّقوا المصاحف غيظًا من قوة المسلمين.

إذن، لم يتأثَّر القرآن الكريم بهذه الأفعال، ولم يزل المصحف بآياته محفوظًا في صدور المسلمين، وفي آذانهم.. فما هو سرُّ الحراسة؟.. الذي أميل إليه، وقد أكون مخطئًا، أن المؤمن بالمصحف الشريف هو الذي يحفظه، لا العكس. ومن ثَمَّ، فلا معنى للوهم العام والظنِّ الشائع بأن وجود نسخة المصحف، غير المقروء، في وسائل الانتقال يحفظ المتنقِّلين. ولربما يقول قائلٌ: الذي «يحرس» هو الله تعالى وليس الكتاب العزيز، وبالتالي فإن الواجب على الإنسان المسلم، أن يبقى في حراسة الله وليس في حراسة المصحف. ولهذا القائل نقول: لكن الله تعالى قال في قرآنه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل إنه تعالى سيعمل لنا، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ولم يقل إنه تعالى سوف يبدأ بالتغيير والإصلاح والحراسة.. وربما يعترض معترضٌ، بأن الله قال في قرآنه إنه تعالى ﴿يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي الحديث القدسي «مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب». ومن ثم فإن الله هو الحارس وكتابه تعالى يحرس أيضًا. وهذا المعترض نُحيله إلى بابٍ واسعٍ من كلام الأئمة، في الفرق بين التوكُّل والتواكل؛ وإلى تأكيد الفقهاء وعلماء أصول الدين أن الإنسان لا غنى له عن العمل أولًا، ثم من بعد ذلك يرجو من الله التوفيق في عمله. وإلا صار الإنسان مثل ذلك الرجل الذي ظل أعوامًا يدعو الله أن يفوز بورقة يانصيب رابحة، ولم يستجب الله له، ولكنه مع ذلك ظل يدعو ويبتهل حتى تجلَّى له في المنام واحدٌ من كبار الأولياء، وصاح فيه: «قد يستجيب الله لك، ولكن عليك أولًا أن تشتري ورقة يانصيب».

وعلى أي حال، فلنترك جانبًا ذلك الجدال (النظري) حول حقيقة «الحراسة» ومصدرها، لننظر في التجارب الفعلية التي مرَّت بها هذه الأمة في تاريخها الطويل، ومن ذلك واقعةٌ هائلة حدثت في القرن السابع الهجري. ففي بداية ذاك (القرن) من الزمان، كان في وسط آسيا مملكة إسلامية كبيرة تُعرف تاريخيًّا باسم «الدولة الخوارزمية» نسبةً إلى إقليم خوارَزم الموجود حاليًا في دولة أوزبكستان. وكانت هذه الدولة قد بلغت من القوة قدرًا كبيرًا جعل حاكمها «محمد خوارزمشاه» يستسلم لأطماعه التوسُّعية التي دفعته إلى التفكير في إسقاط الخلافة العباسية في بغداد، ليكون هو الحاكم الإسلامي (الخليفة) على عموم الأرض الممتدة من حدود الصين إلى شواطئ المحيط الأعظم (الأطلنطي).. وقد أرسل خوارزمشاه جيشًا إلى بغداد، ليحقِّق له أطماعه، ولكن العواصف الثلجية فتكتْ بالجيش الجرَّار، في جبال فارس الشمالية وتخطَّف الأكراد ما بقي منه. ولم يرجع إلى الديار الخوارزمية إلا بضعةٌ من الناجين الذين قصُّوا على (خوارزمشاه) الويلات التي قابلتهم وعصفت بهم.

وعلى الجانب الآخر من العالم الإسلامي، وفي عاصمة الخلافة «بغداد» كان الناس يتخوَّفون من وصول الجيش الخوارزمي الذي اعتقد الجميعُ آنذاك، أنه لا يُقهر ولا ينهزم. فلما وقعتْ الوقائعُ وخيَّبتْ المساعي التوسعية الخوارزمية، راح الأدباء والشعراء في بغداد يتغنَّون بأن الخلافة مبارَكة، وبأن بغداد محروسة، وبأن الذي يريد دولة العباسيين بسوءٍ فسوف تعوقه السماء من الإضرار بها. وسادت هذه الفكرة في الأذهان وعَمَّ الوهمُ، فارتاح الناس في بغداد إلى حكاية (الحراسة) الموهومة، التي دعت الحاكمين والمحكومين إلى إهمال ما يجب عليهم، للدفاع عن عاصمة الدنيا آنذاك.

غير أن «خوارزمشاه» تواصلت حماقاته وأحلامه التوسُّعية، فتوجَّهت أطماعه إلى ناحية الشرق، وناجز الحاكم المغولي العظيم «جنكيز خان» واستفزَّه بشكلٍ لا يمكن السكوت عنه. فاندفع الجيشُ المغولي واجتاح أرض الدولة الخوارزمية، ثم واصل تقدُّمه غربًا حتى وصل بعد عقود (سنة ٦٥٦ هجرية) إلى أسوار بغداد المحروسة، التي ثبت

تاريخيًّا أنها غير محروسة. فقد جرت أحداثٌ مهولة، يضيق المقام هنا عن بيان فظاعتها، حتى أن بغداد لم تقم لها قائمة من بعد ذلك بقرونٍ طوال، ولم يعد بعدها الناسُ يصفون بغداد بالمحروسة. وبالطبع، لم تكن فكرة (وهم) الحراسة هي السبب الوحيد للكارثة، فقد كانت هناك عدة أسباب لسقوط بغداد بيدِ المغول. منها فساد الحكم، وصراع الشيعة مع السُّنَّة في بلاط الخليفة، وعدم تقدير خطورة الوضع العسكري المتدهور في دول الإسلام. لكن الاعتقاد بأن البلد (محروس) يظل من أهم هذه الأسباب المسبِّبات لسقوط بغداد.

وفي زماننا المعاصر (سنة ١٩٦٧ تحديدًا) وقف الجيشُ الإسرائيلي على مسافةٍ قريبة من القاهرة، ولم يفكر في دخولها لأسبابٍ إستراتيجية بحتة. لكن بعض المصريين اعتقدوا آنذاك أن المانع من ذلك، هو أن القاهرة «محروسة» بالمعنى الغيبي، وليس الإستراتيجي. فامتلأت المساجد بالعاكفين والرُّكَّع السجود، وظهرتْ العذراء فوق قباب الكنائس، وروَّجت الحكومة (المهزومة) لهذه الأمور (الوهمية) ليستعيد الناس التوازن بعد الهزيمة «النكسة» التي جرت على أرض الواقع، بما هو فوق الواقع وخارج حدود العقل. وهنا مكمن الخطر في وَهْم الحراسة، الذي يدفع الناس لا شعوريًّا إلى إهمال التدبير اللازم للحماية، اتكالًا منهم على أن البلاد تحرسها قوى فوقية (ميتافيزيقية) مع أن وقائع التاريخ، وقواعد المنطق، يدلان على أن المكان الذي لا يحرسه أهله، غير محروس. والنصوص لا تحمي من اللصوص.

ولو كانت بلادنا محروسة، لما تَعَاقَبَ عليها كلُّ مَنْ استطاع إليها سبيلًا. فالفُرس احتلوا البلاد مرتين، وألحقها الرومان بسلطانهم مراتٍ امتدت لمئات السنين، وظل أولئك وهؤلاء يحكمون البلاد ويسومون أهلها سوء العذاب. وفي زمانها الإسلامي استولى على حكمها ما لا حصر له من أشكال الحاكمين، فمن سُنَّةٍ إلى شيعةٍ، ومن أفاضل الرجال إلى العبيد من أمثال كافور، ومن العقلاء إلى المهووسين.. نخرج من ذلك (إذا أردنا الخروج) بحقيقةٍ بسيطةٍ تصيح في وجوهنا كطفلٍ وليد، مفادها أنه لا معنى لوهم (البلد المحروس) ما لم يقم أهل هذا البلد بحراسته.

مصرُ المستهدَفة

في المقابل من وَهْم «مصر المحروسة» يقوم وَهْمٌ مقابل هو «مصر المستهدفة». وقد يبدو لنا للوهلة الأولى، أن هذين الوهمين متناقضان متنافران، ويدفع أحدهما الآخر. لأن الاعتقاد الظنِّي العام في الحراسة بمعناها الغيبي، يخالف الظنَّ الاعتقاديَّ العام في (الاستهداف) أو بالإحساس بأن خطرًا غامضًا يَحيقُ بالواقع ويُحدق بالناس من حيث لا يعلمون.. وبدايةً، فإن مقصودي بوَهْم (مصر المستهدفة) هو ذلك الظنُّ المخايل الذي يوحي همسًا بأن بلادنا في حالة استهدافٍ، وتُحاك ضدها في الخفاء المؤامرات، وهو ما يعبِّر عنه البعضُ اصطلاحًا بقولهم «نظرية المؤامرة». ولسوف نرى أن هذا الشعور الخفيَّ بالمؤامرة يرتبط بالإحساس الغامض بالحراسة، وأن هذين الوهمين المتقابلين متفاعلان دومًا، ودائمًا ما يستدعي أحدهما الآخر، فالبلد (محروس) لأنه مستهدف ولولا أنه (مستهدف) لما صار محروسًا. ولسوف نرى أن «الإعلام العام» أو ما صار يسمى مؤخرًا «الميديا» كان عادةً ما يؤدي دورًا مهمًّا في إشاعة الوهمين، معًا، وفي ترسيخ هذين الظنَّين في اللاشعور الجماعي. حتى اعتاد العامةُ، (ولا أقولُ الجهلة والدهماء) على قبوله لمناسبته لحالة «العامية» وغلبة الغيبية، وهو الأمر الذي تمتد جذوره عميقةً في تاريخنا على النحو الآتي بيانه:

في زماننا القديم، وقعت أهوالٌ جِسامٌ في طول البلاد وعرضها بسبب التَّفانين اللاهوتية التي اخترعها «إخناتون» وبطش بناءً عليها بأهمِّ علماء العالم في ذلك الزمان البعيد، وهم «كهنة آمون»، وقام بنفيهم وإجبارهم على العمل مثل (الفواعلية) في الصحراء. وتمادى إخناتون في غيِّه حتى اضطرب حال مصر واهترأت حدودها[1]، ثم خلفه على العرش «توت عنخ آمون» الذي مات في التاسعة عشرة من عمره (أو أُغتيل) فأرسلتْ زوجته إلى ملك الحيثيين (أعداءِ البلاد) تطلب منه أن يزوِّجها ابنه، لأنها لا تجد في مصر رجلًا يستحقها. ولكن الضابط «حور محب» سحق حلمها، وقتل

(١) سوف نعود للكلام عن «إخناتون» في الفصل السابع، الأخير، من الكتاب الثالث (فقه الثورة) وعنوانه: الحكمة المؤنثة.

الأمير القادم من أطراف الشام (دولة الحيثيين) ليركب البلاد والعباد. وكان من الطبيعي في غمرة هذا الاضطراب، أن يسود الاعتقاد بأن مصر التي كان اسمها آنذاك «كيمي» مستهدفة، لكن الآلهة سوف تحرسها. فلما استقرت البلاد بيدِ الضابط «سيتي الأول» مؤسس عصر الرعامسة (الذي هو خليفة الضابط «حور محب» الذي كان بدوره خليفة الضابط رمسيس الأول) وبعدما هدأت الأحوال في زمن الفرعون العظيم رمسيس الثاني، أراد هذا الفرعون أن يخرج بجيشه لتأمين الحدود وتدمير مملكة خيتا (دولة الحيثيين) لكنه حوصر عند حدود بلادهم بمنطقة مستنقعات وكاد يهلك هناك على أيديهم، حتى أنقذه طلابُ المدرسة العسكرية المصرية الحدودية التي كانت آنذاك بقرب مدينة (حلب) الحالية.. فكيف تمت صياغة هذه الوقائع في الأذهان؟

الشاعر المصري القديم «بنتاؤر» كتب سيرة رمسيس الثاني، وأرَّخ لما وقع في «قادش» قائلًا: إن الفرعون حين حوصر، ناجى الربَّ (آمون) وجهر أمامه بشكواه من المصير المحدق به، فأنقذه آمون. وقد تناقشتُ في تلك المسألة مع واحدٍ من علماء المصريَّات المعدودين في بلادنا، الصديق الدكتور محمد صالح، مستغربًا من إعادة بناء الواقعة في الوعي المصري القديم، على اعتبار أن «آمون» كان هو الذي حرس المحروس رمسيس. وقد فوجئتُ بصديقي بعدما انهمكنا في ذكر التفاصيل، يقول ما نصُّه: «ربنا حمى مصر يومها وحرسها من أعدائها، على الرغم من أخطاء رمسيس الثاني العسكرية».. قال ذلك، وهو الذي يعلم أن طلاب المدرسة العسكرية كانوا هم المنقذين.

وعلى مستوى الشعور الجمعي العام، كانت هناك عقائد عظيمة للمصريين، في ذاك الزمان بعضها ممتدٌّ فيهم إلى اليوم، منها أن الإنسان يتألف من سبعة أشياء لا غنى له عن واحدٍ منها، هي: الكا (القرين، الحاسة السادسة)، البا (الروح، النفس)، الآخ (الفطرة السليمة)، الرِّن (الاسم، الهوية)، الشوت (الظل)، الغِت (البدن، الجثة)، إيب (القلب، اللب).. و«الكا» هو الروح الحارس الذي هو بمنـزلة الأخت للإنسان، ولذلك ما زال كثيرون منَّا حين يجزعون على طفلٍ يقع أو يتعرض للحسد، يصيحون

(يا ختي عليك) لاستجلاب هذا الروح الحافظ الحارس. وهكذا يظهر لنا أن فكرة الحراسة «الميتافيزيقية» قديمة جدًّا في تراثنا، مثلها مثل فكرة الاستهداف وكُمون الأخطار في الظلام، وهو ما يجعل من المنطقي والمقبول لدى الناس أن يحكم البلاد العسكريون، لأنهم هم الحماة من الاستهداف والخطر.

وفي زماننا الوسيط، وقعت أهوالٌ جِسامٌ في طول البلاد وعرضها بسبب اضطراب حكم المماليك وفتك بعضهم ببعض، مع بدء خروج المغول على مشارف دولة الإسلام، بسبب حماقات «محمد خوارزمشاه» التي أشرنا إليها سابقًا. وفي غمرة الاضطراب العام وتدهور الأحوال، قفز على العرش مملوكٌ من أولئك المجلوبين من خارج البلاد، ولا يُعرف للواحد منهم أبٌ ولا جدٌّ ولا أقارب (ولذلك أسماهم المصريون: أولاد الناس) وكان اسم هذا المملوك «قُطُز» فقط، من دون ذِكْر لمن كان أبوه.

وبعضُ المؤرِّخين المعاصرين يعتبر «قطز» بطلًا، لأنه حسبما يتوهمون انتصر على الجيش المغولي في عين جالوت. لكن حقيقة الأمر، أن الجيش المغولي الذي دَمَّر بغداد سنة ٦٥٦ هجرية، كان قوامه مائة وعشرين ألف مقاتل، يقودهم السَّفَّاح هولاكو (حفيد القائد العظيم: جنكيز خان) وهو الجيش الذي انهزم لاحقًا وعلى رأسه هولاكو، على يد «بركة خان» حفيد «جنكيز خان» الذي كان متعاطفًا مع الإسلام والمسلمين، وكان يحذر هولاكو من تدمير بغداد، لكن الأخير لم يستمع لتحذيراته وتهديداته القوية. فلما فعل هولاكو أفعاله الشنعاء، قطع عليه بركة خان (زعيم القبيلة الذهبية للمغول) كل الإمدادات، وخلعه، فعاد هولاكو إلى قلب آسيا وانهزم هناك أمام بركة خان.

أما الذين انهزموا في «عين جالوت» فقد كانوا في حقيقة الأمر، شراذم جيش هولاكو وبقاياه في الشام، وكان تعدادهم ثمانية عشر ألف مقاتل فقط، ولم يكن هولاكو على رأسهم. ولذلك، فمع أن بعضَ المؤرِّخين المعاصرين يعتبر «قطز» بطلًا، فإنني أراه غير ذلك. بل أراه صاحب أكبر (جناية) على تاريخنا السياسي الوسيط، لأنه بعدما قفز على العرش، قال بمبدأ: الحُكمُ لمن غَلَب. وقد اكتوى هو بنارِ المبدأ العسكري (الفُتوَّاتي)

عقب انتهاء موقعة عين جالوت، وقبل عودة المماليك إلى مصر. فقد قتله جماعة منهم لنيل منصبه، فتجمَّع المماليك حول أكبرهم سنًّا (سنقر الأشقر) الذي سألهم: مَنْ الذي فعلها؟.. يقول مؤرِّخونا القدامى: فتقدَّم بيبرس لأنه كان أكثرهم رعونةً، وقال «أنا فعلتها» فقال له سنقر الأشقر: اجلسْ مكانه، فإنه قال: «الحكمُ لمن غَلَب».

ومن يومها ظل الحكم في بلادنا لمن غلب، بمشروعيةٍ صريحة لا تستتر خلف (الخلافة) فقفز كثيرون على العروش بسطوة الجيوش. وحتى الذين لم يقفزوا، استدعاهم المصريون ورفعوهم على كرسي العرش، مثلما حدث مع «محمد علي» الذي كان قد جاء إلى مصر كواحدٍ من المرتزقة سنة ١٨٠١ ميلادية، فإذا به بعد أربعة أعوام، وبناءً على رغبة المصريين الذين صاحوا في وجه قنابل نابليون «يا خفيَّ الألطاف نجِّنا مما نَخاف» فلما أنجاهم خفيُّ الألطاف، وانصرف جيش نابليون عن مصر لأسبابٍ لا علاقة لها بمصر أصلًا، سعى هؤلاء المشايخ إلى محمد علي «العسكري» وجعلوه هو وسُلالته من بعده «أصحاب البلد». وبقي المصريُّ في زمانهم، فلاح.. خرسيس.. نرسيس.

وفي أيامنا الحالية، ألقى الرئيس حسني مبارك في بدء حُكمه المديد[1]، خطابًا لأهل مصر قال فيه عبارة «إن مصر مستهدفة» بشكل عارض. ولا شك في أن الرئيس يوم قال ذلك، كان يُشير إلى شيء لم يصرِّح به؛ ولكن بمجرد أن تلفَّظ بذلك انطلق إعلامنا من بعدها لفترة طويلة، مؤكدًا أن (مصر مستهدفة) وصار هذا التعبير متداوَلًا، حتى أننا لو راجعنا الجرائد والمطبوعات ووسائل (الميديا) آنذاك، سوف نجد العبارة التي ذُكرت عَرَضًا، مذكورة مئات المرات ومشفوعة بالتحليلات والتأكيدات والتهويلات والتهويمات والخزعبلات.. لماذا؟ لأن مصر مستهدفة مع أنها محروسة! ولا بد لها من حاكم (بطل) لديه خلفية عسكرية، لينقذ البلاد وقت اللزوم!

.. طيب، ما الذي يمكن أن نخرج به من هذه الوقائع، التي قد تبدو متباعدة تاريخيًّا؟ نخرج بأن أوهام المصريين عريقة، لها أصالة سبعة آلاف سنة. فكلَّما اضطربت

---

(١) نُشرت هذه السباعية في سبتمبر ٢٠١٠ قبل قيام ثورة يناير، وخلع الرئيس.

الأحوال العامة وسادت الجهالة، ساد التفكيرُ الخرافيُّ والمناخُ المناسب لأوهام الحراسة والاستهداف، وانطلقت (الميديا) في تأكيد الأمر بين الناس وإشاعته، وهو ما فعلته وسائل إعلامنا المعاصرة مع عبارة مبارك (العَرَضية) وفعلته قبل قرون «السيرة الظاهرية» التي تغنَّت بأمجاد الأرعن القاتل «بيبرس» وفعلته قبل ذلك بقرونٍ، نقوشُ المسلات وجدرانِ المعابد التي صوَّرت رمسيس الثاني كما لو كان هو المنتصر الوحيد في معركة «قادش» ولم تصوِّر معه على العجلة الحربية، أيَّ مصريٍّ آخر يحارب. فهو يرمي بسهامه من القوس (من دون أن يناوله السهام أحد) وتحته يتساقط الأعداءُ صَرْعَى.. فهو المنقذُ الوحيد، وابنُ الشمس، وابن الشعب، والرئيسُ المؤمن، والحاكمُ لأنه غلب، والناصرُ، وحارسُ منجزات الثورة المباركة، والملهمُ، وبطلُ الحرب والسلام.. قال الشاعر ساخرًا:

ولا جديد لدى العروبة،

بعد شهرٍ يلتقي كُلُّ الملوك، بكل أنواع الملوك

من العقيد إلى الشهيد، ليبحثوا

خَطَرَ اليهودِ على وجود الله[1]

ونخرج من ذلك، بأن التأسيس لوهم (مصر المستهدفة) ينطلق من آلياتٍ محددة وشروطٍ بعينها. منها إذكاءُ حالة الغباء العام والجهالة العمومية، لأن الناس إن فهموا سيدركون أن أيَّ أرضٍ فيها خيرات لا بد أن تكون مستهدفة، وأي شعبٍ تغمره الجهالة والأوهام يكون مستهدفًا. ومنها أن وسائل الإعلام تجعل من الحاكم أيًا مَنْ كان، هو «المعادل الموضوعي» للبلد، ولذلك تُنصب له التماثيل في كل مكان أو تملأ سيرته الأسماع ويتلوها المنشدون أو تعلَّق صوره الكبيرة وراء كل كبير، ليستمدَّ منه الجالس (الحراسة) ويدفع عنه (الاستهداف) ويستجلب الحماية من الطامعين في كرسيِّه.

ومن آليات إشاعة هذين الوهمين المتفاعلين فيما بينهما (الحراسة، والاستهداف) قمعُ المعارض لأيِّ وَهْمٍ منهما، فالذي يتشكَّك في أن مصر محروسةٌ والذي لا يؤمن

(١) من قصيدة محمود درويش «مديح الظل العالي» التي كتبها أيام حصار بيروت.

بأن مصر مستهدفةٌ، هو هرطوقيٌ يهدِّد الاستقرار، ومأجورٌ يريد أن يجور. أو هو على أقل تقدير، شخص لا يحب هذا البلد (الحنون) ويخدم أغراض الأعداء والعياذ بالله.. نعوذ بالله العليِّ العظيم، من كل فكرة تخالف المألوف، أو تؤكد المكشوف، أو تفكُّ الملفوف.. فدعونا ندعو من قلوبنا ونبتهل، كي يديم الله علينا الأوهام ويمنَّ علينا بالأحلام، ويهبنا الكسل الذهني كي نقاوم التفكير المنطقي والجادَّ من الكلام.. اللهم احفظْ لنا مصرنا المحروسة فأنت تعالَى تعلم أنها مستهدفة، ولن ينقذها إلا العسكريون.. والطُفْ بنا، واصرفْ عنا أذهان المؤهَّلين للفهم.. وادفعْ بفضلك خوفَ الطغاةِ من الأغنيات، وخوفَ الغزاةِ من الذكريات[1].

(١) اندلعت الثورة المصرية، التي أجهضها لاحقًا العسكريون، بعد مرور أيامٍ قلائل على نشر هذه المقالة، بخاتمتها الساخرة.

الفصل الثاني

بشاعةُ المقوقس

الخرافاتُ المرتبطة بفتح مصر

أَصلُ البلاوي الحواديتُ والحكاوي[1]

لو جعلتُ عنوان هذه المقالة فصيحًا، لكان «سببُ البلايا، الخرافات والحكايا» غير أن العنوانَ العاميَّ كما سنرى بعد قليل، أقرب دلالةً على المسألة التي نطرحها في هذه السباعية، لأن (فتح مصر) التفَّتْ حوله في أذهاننا، كثيرٌ من الحواديت والحكاوي التي راجت عند العامَّة من الناس، أو تمَّ الترويج لها عن عمد، حتى صارت ملمحًا أساسيًّا من ملامح ثقافتنا المصرية المعاصرة، المعصورة.

وكنتُ أولًا قد نويتُ أن أُنهي السباعية السابقة (الفصل السابق) بمقالةٍ ختاميةٍ عن فتح مصر، الذي يصرُّ بعضنا على تسميته (غزو مصر) لاعتبارات خاصة سوف نتعرَّض لها لاحقًا. لكنني حين شرعتُ في كتابة المقالة، وجدتها قد استطالت حتى خرجت من الحيز المتاح، نظرًا إلى كثرة «الأوهام» المرتبطة في أذهاننا بهذه المسألة من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى لمحاولة البعض منَّا استغلال هذا الموضوع المترع بالتوهُّمات (الحواديت والحكاوي) في صياغة وعيٍ تاريخيٍّ كاذبٍ، مغلوطٍ، من شأنه أن يكون سببًا مباشرًا أو غير مباشرٍ، لعديدٍ من البلايا (البلاوي) في واقعنا المعاصر.

---

(١) بدأتُ نشرَ هذه السباعية في شهر نوفمبر ٢٠١٠ في الوقت الذي بدأ فيه د. محمد سليم العوّا، المفكر الإسلامي المعروف، سلسلة محاضرات (أسبوعية أيضًا) تتناول الموضوع ذاته، من وجهة نظره المعتمدة على الأخذ بما يسمى عند علماء الحديث النبوي (السند) بينما كنتُ أكتب مقالاتي انطلاقًا من القاعدة الخلدونية «ينبغي إعمال العقل في الخبر».. وكان المقرر أن نلتقي معًا في صالوني الشهري الذي ينعقد في القاهرة بساقية الصاوي، بجلسة الأربعاء الأول من شهر فبراير ٢٠١١ لعرض وجهتيَ النظر، والوصول إلى قناعات عامة مشتركة.. غير أن الثورة المصرية اندلعت شرارتها في آخر شهر يناير، فأذهلتنا عن ذلك وشغلتنا عنه بالشواغل المشهورة.

ولكي نتصوَّر كمَّ الغرابة والسذاجة في الأخبار التاريخية المتعلقة بفتح مصر، يكفي أن نورد ثلاثة أمثلة مما احتوت عليه كتب التاريخ، القديمة والمعاصرة، وهي أمثلة لحواديت وحكاوي لا يستطيع أي عقلٍ أن يقبلها.

المثالُ الأول، ما جاء في الكتب من أن عمرو بن العاص افتتح مصر، أو غزاها، فاستقرت بيدِه في أقل من عامين. وهذا مما يصعب فهمه، لأننا لو تصوَّرنا جيشًا تعداده بضعة آلاف، معظمهم من المشاة (الراجلين لا الفرسان) يدخل من بوابة مصر الشرقية «العريش» ثم يقطع شمال سيناء حتى يصل إلى حوافِّ الدلتا الشرقية، ثم يسير بحذاء فرع النيل الذي كان يسمَّى «الفرع البيلوزي» نسبةً إلى البلدة المسمَّاة باليونانية بيلوز (وبالعربية الفرما، وباللغة المصرية القديمة البَرَمون) وقد كان لنهر النيل آنذاك، خمسة أفرع في الدلتا.. ثم من بعد ذلك يتجه الجيش جنوبًا، إلى حيث الوادي الواسع الذي أُقيمت فيه بعد عدة قرون مدينة القاهرة، وكان اسمه آنذاك وادي الكاهيرا (كاهي رع) وهو الاسم الذي صار يُنطق لاحقًا بشكل معدَّل عربيًّا (القاهرة) ومنه قولنا قاهرة المعز، تمييزًا لها عن اسمها الذي كانت تعرف به المنطقة سابقًا.. وهذا الموضع كان يقف على طرفه المحاذي لمجرى النيل، بلدة كبيرة بناها الفرس وأسماها المصريون «القصر» وهي المعروفة اليوم بمنطقة «حصن بابليون».. المهم، وفقًا لما تحكيه لنا الكتبُ التاريخية، القديمة والجديدة، فإن هذا الجيش استكمل سيره بمصر على غير هدى، حتى وصل إلى الفيوم وخاض عدة وقائع، ثم عاد إلى ناحية الحصن وأقام هناك «الفسطاط» أيْ مجمع خيَام العسكر، ثم سار بحذاء فرع النيل الغربي، المسمَّى اليوم «فرع رشيد» حتى وصل إلى عاصمة البلاد آنذاك (الإسكندرية) وملك زمامَها بعد حصارها. وإذا عرفنا أن هذا الجيش السحري، حاصر قبل الإسكندرية المدنَ التالية: الفيوم، والقصر (حصن بابليون) والفرما، ودفاشير! لَصَار لدينا سؤال منطقيٌّ لا جواب له: كيف استطاع هذا الجيش، من دون طائرات ومركبات فضائية وموتوسيكلات (وغير ذلك مما لم يكن قد تم اختراعه) أن يقطع هذه المسافات سيرًا على الأقدام، ويحاصر الحصون، ويعبر الأنهار، ويقطع المسافات التي تعد اليوم بمئات الكيلومترات، وينتصر.. كل ذلك في أقل من عامين؟

والمثالُ الثاني، المدهش، أن عمرو بن العاص دخل مصر ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقيل أربعة آلاف، كلهم من قبيلة «عَكّ» اليمنية التي كان المسلمون الأوائل يسمونها (قبيلة الأخابث) ويسمون الوادي المؤدي إليها (طريق الأخابث) لأنهم كانوا أول القبائل التي ارتدَّت عن الإسلام بعد وفاة النبي. فإذا بهذا الجيش الغازي، ويا للعجب، يحاصر الحصن الشهير (الفرما) ويدخله، ويأسر منه ثلاثة آلاف مقاتل من جيش الروم، ويرسلهم إلى «المدينة المنورة» مقيَّدين في السلاسل، حسبما يؤكد المؤرِّخون المسلمون[1]، لكن الخليفة (عمر بن الخطاب) يأمر بإطلاق سراح هؤلاء الأسرى «لعهدٍ كان قد سَبَقَ لهم!»، فكيف غلب هؤلاء أولئك، وكيف أسروهم، ومن أين جاء عدد هؤلاء الأسرى «الثلاثة آلاف» وما هو ذلك «العهد» الذي كان قد سبق؟

والمثالُ الثالث، الأدهش، أن كل الكتب القديمة والجديدة التي تحكي لنا الحكاوي والحواديت عن فتح أو غزو مصر، تتحدث عما تسميه «حصار الإسكندرية» بل تفصِّل الأمر وتتحدث عن حصار الإسكندرية الأول، وحصارها الثاني بعد ثورتها على (الاحتلال الإسلامي) حيث قام جيشُ الروم بقيادة «منويل» بطرد المسلمين، فعاد عمرو بن العاص وافتتح المدينة (عاصمة البلاد) ثانيةً، بعدما حاصرها. وأقسم متوعِّدًا أثناء حصارها، قائلًا: «والله لئن مَلَكْتُها لأجعلنَّها مثل بيت الزانية».. (يقصد، أنه سوف ينزع أبوابها ويحطم أسوارها).. والسؤالُ المنطقيُّ الذي لا جواب له هنا، هو: كيف يمكن للمسلمين أصلًا، محاصرة الإسكندرية؟ فهذه المدينة من يوم بنائها حتى يوم كتابتي هذه المقالة، تنام كالعروس على شاطئ البحر. ولم يكن للعرب المسلمين في زمن الفتح (الغزو) خبرةٌ بركوب البحار أو عبور الأنهار، حتى إن الخليفة «عمر بن الخطاب» اشترط على «عمرو بن العاص» ألا يعبر أيَّ مجرى مائي، قائلًا له بحسب ما ورد في كتب التاريخ: «لا تجعل بيني وبين جند الإسلام ماءً، فحيثما أردتُ ركبتُ دابتي وجئت إليهم».. فكيف يكون الحصارُ بدون سفن ومراكب؟ وكيف يتم الحصارُ، والإسكندريةُ تحميها من خلفها بحيراتٌ ومستنقعاتٌ كثيرة (هي التي يتم تجفيفها اليوم،

---

(١) راجع ما ذكره عن ذلك مؤرِّخون مشهورون من أمثال: ابن عبد الحكم، ابن زولاق، البلاذري.

لإقامة ما يسمى: داون تاون) وقد ذكر المؤرخون القدامى، من اليونان السابقين والعرب الفاتحين، أن أسوار المدينة كانت ضخمة جدًّا وتحميها آلات الحرب الهائلة، ومنصوبًا عليها ما لا حصر له من المنجنيق (آلة قذف النار والأحجار) وكان بها من جيش الروم قرابة أربعين ألف جندي.. فكيف حاصرها عمرو بن العاص، وكيف فتحها مرَّتين؟

ثم يصير سؤالنا السابق أكثر إدهاشًا، حين نعرف من أقدم مؤرِّخٍ لفتح مصر «ابن عبد الحكم» أن مجموع قتلى جيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، من حين ابتدأ الفتحُ والحصارُ حتى دخل المسلمون الإسكندرية «مدينة الله العظمى» حسبما كانت تسمَّى قديمًا، هو واحد وعشرون شهيدًا.. أي حمولة سيارة ميكروباص.

إذن، إن ما نعتقدُ أنه «تاريخ» فتح مصر، هو مجردُ حكاوي وحواديت (بالمعنى العامّي) لن يقبلها أيُّ عقل، ولن يقتنع بها إلا السفهاءُ والعوامُّ من الناس. والأخطرُ من ذلك، أن بعض معاصرينا من دعاة العودة إلى ما يسمونه «مجد مصر الفرعونية» ومن أصحاب الاتجاهات العجيبة الداعية إلى سخافة (مصر فرعونية لا عربية) ومن ذوي الأحلام الخزعبلية الرامية إلى إخلاء بلادنا من محتواها العربي (مع أنهم يدعون إلى ما يتوهَّمونه، ويكتبون عنه باللغة العربية) ومن أصحاب الزعم المعتاد بأنهم وحدهم أصحاب البلد (مع أن الدين لله والوطن لمن يحكمون).. هؤلاء جميعًا وأشباهُهم، يقيمون على حكاوي وحواديت «فتح مصر» اتجاهات إستراتيجية ومواقف تكتيكية، وهي في واقع الأمر اتجاهاتٌ ومواقفُ بائسةٌ، وغير مؤسَّسة على معرفةٍ حقيقية بالماضي والحاضر.. ولا المستقبل بالطبع.

وهؤلاء المتوهِّمون والموهومون، ومَنْ لَفَّ لَفَّهُم، لا ينتبهون إلى أن الوعي الزائف لن يُعطي إلا اتجاهات ومواقف زائفة، وأن ما يقوم على الأوهام سرعان ما سوف ينهار. فضلًا عن أن تلك التصورات الساذجة عن الماضي، سوف تقود إلى تصورات مستقبلية أكثر سذاجة.. ولذلك، فعندما أرسل إليَّ صديق (عزيز) رسالةً تقول إن واحدًا من جبابرة العباقرة المعاصرين، صرَّح بأن المسلمين في مصر ضيوف! رددت عليه برسالة تقول بالعامية: طيب، اشرب الشاي بسرعة لنغادر، فيا بخت من زار وخفِّف.

وفي روايتي (النبطي) عرضتُ بحسب ما سمح به السياقُ الروائيُّ، لطبيعة الحياة في مصر خلال العشرين عامًا التي سبقت مجيء عمرو بن العاص إليها بهذا الجيش الذي «كلُّه من عَكّ»[1] وكنتُ أنوي من بعدها تأليف كتابٍ بعنوان (المقوقس) أعرضُ فيه بشكل مباشر، غير روائي، لما يمكن أن يكون تطبيقًا للقاعدة التي ذكرها ابنُ خلدون حين قال في مقدمة (المقدمة) ما نصه: «ينبغي علينا إعمال العقل في الخبر».. لكنني سوف أبدأ بعد أيامٍ في كتابة روايتي القادمة (حاكم) التي تدور أحداثها في الزمن الفاطمي، وتعرض لأشياء أراها مهمة، تتعلق بهذا الرجل العجيب المسمَّى «الحاكم بأمر الله».. ومن هنا، فقد رأيتُ أن أوجز فيما يلي، ما كنت أنوي ذكره في كتاب (المقوقس) الذي لن يصدر لأنني سأصرفُ عنه النظر[2].

حكاياتُ حاطب

من أوائل الشخصيات التي ارتبطت أسماؤها بعملية (دخول) العرب المسلمين إلى مصر، قبل عمرو بن العاص بسنواتٍ طوال، شخصيةُ «حاطب بن أبي بلتعة» الذي سنروي فما يلي بعضًا من حكاياته، ونتأملها.. من أهم هذه الحكايات، وأشهرها، تلك الحكايةُ العجيبةُ التي تناقلتها كتبُ التاريخ القديمة والمعاصرة، من دون أن يتروَّى أحد من المؤرخين ويفكر فيها بشكل منطقي. فحسبما قالوا، فإن «حاطب» كان مبعوث النبي ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر سنة (ستٍّ) من الهجرة، وهي السنة الموافقة للعام ٦٢٧ الميلادي. وحسبما قالوا، فإن النبي ﷺ بعث معه برسالة إلى المقوقس، سوف نورد نصَّها لاحقًا، ونورد ما يقدح في صحتها وصحة بقية هذه الرسائل النبوية المزعومة. وحسبما قالوا، فإن «حاطب» قد تحادث مع المقوقس حديثًا طويلًا، ثم عاد من عنده بهديةٍ إلى النبي ﷺ عبارة عن جاريتين وبغلة. الجارية الأولى هي (مارية القبطية) التي تزوَّج بها النبيُّ وأنجبت له «إبراهيم» الذي مات بعدما بلغ من عمره

---

(١) العبارة من كتاب ابن عبد الحكم، وهو أقدم مصدر عربي عن فتح مصر.

(٢) وقد اضطرتني الحوادث الثورية، إلى تأجيل كتابة الرواية المشار إليها (حاكم) لأنها كانت تُفصح عن طبيعة الاستبداد السياسي، فإذا بالثورات العربية المتعاقبة تفضح ما كان مستترًا من هذا الأمر.

عامين، وبكاه النبي. والجارية الأخرى، هي أختها الصغرى (شيرين، سيرين) التي قيل إن النبي أهداها لواحدٍ من صحابته، من المرجَّح أنه الشاعر «حسَّان بن ثابت» وقيل إنها أنجبت منه. وحسبما قالوا، فإن لحاطب بن أبي بلتعة (حكايات) أخرى سوف نورد بعضها أولًا، ثم نتوقَّف من بعدها عند حكايته المرتبطة بمصر.

من حكايات حاطب التي رواها المؤرخون، أنه حين بدأ النبي ﷺ التجهيز العسكري لاقتحام مكة، وهو الأمر الذي سوف يُعرف لاحقًا بفتح مكة، أرسل «حاطب» إلى أهل مكة تحذيرًا مكتوبًا. بعث به مع امرأة خرجت سرًّا من المدينة (يثرب) إلى مكة، غير أن النبي أدرك الأمر وطلب من الإمام عليّ بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، والزبير بن العوام، أن يخرجوا إلى الصحراء بحثًا عن تلك (الإخبارية) المرسَلة سِرًّا، فخرجوا حتى أدركوا المرأة (الجاسوسة) بموضعٍ في الصحراء اسمه «روضة خاخ» وهدَّدوها حتى انتزعوا منها الرسالة التحذيرية، وعادوا بها إلى النبي فاستدعى (حاطب) وقام في حضور جمعٍ من الصحابة بمواجهته بالأمر، فلم ينكر حاطب فعلته. واعتذر عنها بأن له أقارب في مكة، فأراد أن يكسب مودة الناس هناك بتحذيرهم، خشيةً منه على أهله الذين يعيشون بينهم.

وبالطبع، ومثلما هو معتاد في مثل تلك الوقائع، فقد أراد «عمر بن الخطاب» أن يقتل حاطب بن أبي بلتعة، بعدما اعترف بفعلته الشنعاء. لكن النبي ﷺ منعه لأن «حاطب» شهد موقعة بدر، وأهل بدر لهم مكانة خاصة عبَّر عنها الحديث النبوي: «لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فإني غافر لكم».. (حديث صحيح، أورده البخاري ومسلم وغيرهما).. وهكذا، نجا «حاطب» من عقوبة الخيانة العظمى! ثم نزلت آية قرآنية بسبب هذه الواقعة، تشهد لحاطب بالإيمان، هي قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ...﴾.

وفي تلك الحكاية أمورٌ لافتة للنظر، وقد تقدح في صحتها، مع أن معظم المصادر التاريخية (التراثية) وكتب السيرة تذكرها. فمن ذلك، أن المسافة بين مكة والمدينة طويلة جدًّا، تعد بمئات الكيلومترات، فكيف لامرأةٍ أن تخرج منفردةً لتقطع وحدها

هذا الطريق الموحش، الذي لا يخلو من وحوش الليل وهجير النهار؟ ومن ذلك أن المسالك من المدينة إلى مكة متعدِّدة، وليس من المنطقي أن يخرج ثلاثة من الرجال، معًا، للبحث عن شيء في هذه الصحراوات الشاسعة، متعددة المسالك. ومن ذلك أن (حاطب) ليس قرشيًّا أصلًا، حتى يكون له بمكة أقارب أو أولاد، فهو في الأصل من أهل اليمن، وتحالف مع الزبير بن العوَّام (وقيل: بل كان عبدًا لرجلٍ من قريش، ثم نال حريته) وقد هاجر حاطب مع النبي إلى يثرب وهجر مكة، فكان من أوائل المهاجرين الذين رحلوا عنها، من قبل بدر. وما بين موقعة بدر وفتح مكة سنواتٌ طوال، فكيف بقي أقاربه هناك طيلة هذه السنوات، وهل كانوا كُفارًا مثل أهل مكة، ومن ثَمَّ فلا يوجد أي داعٍ للخوف عليهم من بطش قريش، لو استعصت مكة على الفتح؟ أم كانوا مسلمين، وبالتالي فقد سنحت الفرص مرارًا لخروجهم من مكة، من قبل (الفتح) بفترة طويلة؟

ومن حكايات «حاطب» ما يفيد أنه كان غليظ القلب وقاسيًا على عبيده، مع أنه كان في الأصل عبدًا أو مولى لبعض رجال قريش. وهناك واقعتان مشهورتان تتعلقان بقسوته على العبيد، الأولى أن واحدًا من عبيد حاطب، اشتكى للنبي ﷺ من القسوة التي يلقاها على يد سيده، وأنهى شكواه بأن قال «يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار» فردَّ عليه النبي: «كذبت، لا يدخل النار رجلٌ شَهِدَ بدرًا والحديبية».. والواقعة الأخرى جرت بعد وفاة النبي بسنوات، ففي خلافة عمر بن الخطاب سرق عبيدُ «حاطب» ناقةَ رجل من قبيلة مزينة، وذبحوها سرًّا من شدة جوعهم ليأكلوا، فانكشف الأمر فاستدعاه الخليفة وعاقبه لأنه يجوِّع عبيده، بأن ألزمه بدفع ضعف ثمن الناقة (ثمانمائة درهم) لصاحبها، وهو ثمنٌ مبالغٌ فيه بحسب المعمول في ذاك الزمان، أو هو بالأحرى: غرامة.. والمراد هنا، تبيان أن «حاطب» الذي صار فيما يبدو من الأغنياء (لأنه كان يتاجر في القمح) اشتهر بشدَّته على العبيد، وهو الأمر الذي دعا الدين الإسلامي إلى نقيضه.

ومن حكايات حاطب المرتبطة بمصر تحديدًا، حكايتان. الأولى مشهورةٌ وعندي عليها شكوك، والأخرى مهملةٌ مع أنني أراها مهمة. الحكايةُ الأولى ملخصها أن (حاطب) جاء للمقوقس برسالة من النبي (ﷺ) يدعوه فيها للإسلام، فأقام حاطب زمنًا بالإسكندرية حتى عرف أن المقوقس يجلس في شُرفةٍ مطلَّة على البحر، فركب

حاطب سفينةً واقترب بها من مجلس المقوقس، وراح يلوِّح له بالرسالة حتى انتبه له ودعاه إليه، فجاء إلى مجلس المقوقس وقد اجتمع حوله البطاركة (الآباء) وبعدما قرأ المقوقس الرسالة جرى الحوار التالي الذي ذكرته معظم المصادر التاريخية، أو بالأحرى تناقلته عن بعضها البعض:

المقوقس: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيًّا؟

حاطب: بلى، هو رسول الله.

المقوقس: فلماذا لم يدعُ على قومه ليهلكهم الله، لأنهم أخرجوه من بلدته إلى غيرها؟

حاطب: وعيسى ابن مريم، ألا تشهد أنت أنه رسول الله؟

المقوقس: بلى.

حاطب: فما باله حين أخذه قومه وأرادوا صلبه، لا يدعو عليهم بأن يهلكهم الله، حتى رفعه الله إليه؟

المقوقس: أحسنت، أنت حكيمٌ جاء من عند حكيم. هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، جاريتان وبغلة ليركبها.

وهكذا (حسبما قالوا) عاد حاطب إلى النبي من عند المقوقس، محملًا بالهدايا والعطايا. ولكننا إذا طبَّقنا القاعدة البديعة التي وضعها ابن خلدون حين قال «ينبغي علينا إعمال العقل في الخبر» ونظرنا برويةٍ في هذه الحكاية، فسوف تظهر لنا عدةُ أمورٍ. أولها: أن البعثات السياسية في ذاك الزمان، بل في كل الأزمنة، لم تكن تجري على هذا النحو المسرحي (الفكاهي) الذي يجعل المبعوث يلوِّح بالرسالة من مركبٍ يعوم في البحر، حتى يراه المقصود بالرسالة أو لا يراه. وثانيها: أن المقوقس كان «أرثوذكسي» المذهب، أي إنه كان يعتقد بأن المسيح «إله» وليس رسولًا من الله مثلما يعتقد المسلمون، ومن ثم فلا معنى للحُجَّة التي ساقها حاطب وأفحمت المقوقس. وثالثها: أن المقوقس ما كان ليوافق بهذه البساطة على كلام «حاطب» لأن هذا المقوقس لا يعرف (عيسى ابن مريم)

الذي أخبر به القرآن الكريم، وإنما المسيح بحسب معتقده الأرثوذكسي (الملكاني) هو الله، وأمه مريم هي «ثيوتوكوس» أي والدة الإله، وهو في عقيدة المقوقس لم يُرفع إلى السماء حسبما يعتقد المسلمون، وإنما تعذَّب وصُلِبَ ومات وعاد إلى الحياة ثم ذهب عند أبيه (الله) وهذا ما يعتقده المسيحيون الأرثوذكس. ورابعها: أن المقوقس كان أسقفًا، ولم يكن حوله (بطاركة) ولم يكن من تقاليد الحكام المسيحيين آنذاك إرسال هدايا من الجواري (الإماء) ولم تكن الإسكندرية موطنًا للبغال، حتى يهدي المقوقس للنبي بغلةً من هناك، تظل سائرة في الصحراء هذه المسافة الطويلة (جدًّا) وكان بالإمكان، إذا صَحَّ الخبر وصدقت هذه الحكاية، أن يهدي المقوقس شيئًا مما اشتهرت به الإسكندرية (مدينة الله العظمى) في ذاك الزمان. وخامسها: أن المقوقس لم يكن بالضرورة، متابعًا لما يجري في قلب الجزيرة العربية من اضطهاد أهل قريش للنبي، لأن أمورًا كبرى كانت تجري في العالم (المتقدم) آنذاك، وكانت أهم عنده بكثيرٍ مما يجري في قلب صحراء العرب، ولو كان المقوقس (افتراضًا) يعرف بما يجري هناك، وكان حسبما جاء في هذه الحكاية، قد اقتنع بأن نبي الإسلام (حكيم) ورسوله حاطب (حكيمٌ جاء من عند حكيم) لكان المقوقس كافرًا بالمسيحية، وهو الأسقف، لأن إنجيله يقول على لسان المسيح: سيأتي بعدي أنبياء كَذَبة.. والأهم مما سبق، كله، أن المقوقس لم يكن قد وصل أصلًا إلى مصر سنة «ستٍّ» من الهجرة، وإنما كان آنذاك لا يزال أسقفًا في بلدته القوقازية «فاسيس».. وهو ما سوف نتحدث عنه بعد قليل.

والحكاية الأخرى، المهملة مع أنها الأهم، تأتي موجزة في مصادرنا التاريخية القديمة، ونصُّها ما يلي: «في خلافة أبي بكر الصديق، بعد وفاة النبي، بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر، فمرَّ على ناحية الشرقية فهادنهم وأعطوه، فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص».

إذن، كانت هناك عهود سرية بين المسلمين والمقوقس في زمن خلافة أبي بكر وهو الأمر الذي يفسِّر قول المؤرِّخ المبكر ابن عبد الحكم، إن «عمرو بن العاص» ظل يُلِحُّ على الخليفة «عمر بن الخطاب» في دخول مصر: «فأذن له، فخرج إليها بثلاثة آلاف

وخمسمائة، كلهم من عَكّ، فنقض الصلح وفتحها».. وقوله في موضعٍ آخر إن الخليفة عمر بن الخطاب، حين أرسل له عمرو بن العاص بثلاثة آلاف أسير من مصر، ردَّهم الخليفة إلى بلادهم: «لعهدٍ كان قد سبق لهم».. فتأمل[1].

رسالةُ النبيّ

«وأما الأخبارُ التي بأيدينا الآن، فإنما نتَّبعُ فيها غالبَ الظنِّ، لا العلمَ المحقَّق».. كانت تلك هي عبارة العلامة ابن النفيس (رئيس أطباء مصر، علاء الدين بن أبي الحرم القَرَشي، المتوفى سنة ٦٨٧ هجرية) التي ابتدأتُ بها روايتي الجديدة «محال» صارفًا معناها إلى السطوة الوهمية للإعلام المعاصر. مع أن صاحبها كان يعبِّر فيها بوضوحٍ باهر، عن حقيقةٍ بسيطة «وخطيرة» تقول إن الأحاديث النبوية والأخبار الشريفة وروايات السيرة، ليست تامة اليقين مهما بلغ علوُّ إسنادها وانتقالها من هذا الراوي إلى ذاك، وهو ما يعرف باسم (العنعنة) حيث يروي الحديث والخبر فلان عن فلان عن فلان، سابقًا عن سابق. لكن العبارة تعني أيضًا معاني أخرى يحتملها ظاهرُ الكلمات، منها ما يتعلق بالسند التاريخي ومصداقية الوقائع المروية في كتب الإخباريين والمؤرخين. وقد أورد ابنُ النفيس، الذي كان من دون شكٍّ عبقريًّا، عبارته اللامعة هذه في واحدٍ من مؤلفاته البديعة التي قال عنها: «لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعدي عشرة آلاف سنة، ما وضعتُها».

وهذه العبارةُ تبدأ بها فقرةٌ مهمةٌ في كتابٍ للعلامة علاء الدين، عنوانه (المختصر في علم أصول الحديث) وهو الكتاب الذي نشرتُه مُحققًا قبل عشرين عامًا، وأعيدَ طبعُه مؤخرًا. والفقرة كاملةً تقول: «وأما الأخبارُ التي بأيدينا الآن، فإنما نتَّبع فيها غالب الظنِّ لا العلم المحقق، خلافًا لقوم». وقال قومٌ (من العلماء) إن جميع ما اتفق

---

(١) بخصوص «حاطب» وحكاياته، وبقية الحكايات التاريخية القديمة المتعلقة بفتح مصر، راجع: ابن عبد الحكم (فتوح مصر) ابن سعد (الطبقات) الذهبي (سير أعلام النبلاء) الذهبي (تاريخ الإسلام) ابن الأثير (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ابن حجر (الإصابة في تمييز الصحابة) المقريزي (المقفّى الكبير) ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب).

عليه مسلم والبخاري، فهو مقطوعٌ به (بصحته) لأن العلماء اتفقوا على صحة هذين الكتابين. والحق أنه ليس كذلك! إذ الاتفاق إنما وقع على جواز العمل بما فيهما، وذلك لا ينافي أن يكون مظنونًا بصحته، فإن الله تعالى لم يكلِّفنا الوقوف عند العلم، ولذلك يجب الحكمُ بموجب البيِّنة، وإن كانت قد أفادت الظن..

قد ينصدم البعضُ من هذه (الحقيقة) وقد يخفِّف من صدمتهم أن الرأي الذي يقرِّره ابن النفيس يطابق ما قرَّره غيرُ واحدٍ من علماء الحديث النبوي في تاريخ الإسلام، تعليقًا على ما أكَّده ابن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية) الذي يقرِّر بحزمٍ في كتابه «معرفة أنواع علم الحديث» الذي اشتهر عند الناس بعنوان (مقدمة ابن الصلاح) ما نصُّه: وإذا انتهى الأمرُ في معرفة الصحيح، إلى ما أخرجه الأئمة.. فهذا القسم (الذي اتفق عليه البخاري ومسلم) مقطوعٌ بصحته، والعلمُ اليقيني النظري واقع به، خلافًا لقول مَنْ نفى ذلك، محتجًّا بأنه لا يفيد إلا الظن.. وقد علَّق المحدِّث الشهير، الحافظ العراقي، على قول ابن الصلاح بما يلي: إن ما ادَّعاه ابنُ الصلاح من أن ما أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم) مقطوعٌ بصحته، قد سبقه إليه الحافظُ محمدُ بن طاهر المقدسي، وأبو نصر بن يوسف، فقالا إنه مقطوعٌ به. وقد عاب الشيخ عزُّ الدين بن عبد السلام، على ابن الصلاح، هذا.. وقال الشيخ محيي الدين النووي في كتابه (التقريب والتيسير): خالف ابنَ الصلاح المحققون والأكثرون، فقالوا: يفيد الظنَّ ما لم يتواتر.. وقد اشتدَّ إنكارُ ابن برهان الإمام، على من قال بما قاله الشيخُ (ابن الصلاح) وبالغ في تغليظه.

إشارة: أرجو من القارئ أن يصبر معي قليلًا. ولسوف يعرف بعد قليل، أهمية الوقوف عند تلك المسألة، وضرورة إيراد هذه التمهيدات السابقة.

إذن، هناك خلافٌ بين علماء الحديث النبوي في «يقينية» الأخبار والأحاديث الشريفة، مهما بلغت من صحة السند أو الرواية سابقًا عن سابق عن النبيِّ ﷺ. لأن العنصر البشري يتدخل في السند والعنعنة، وما دام الأمر كذلك فإن (غالب الظن) لا (اليقين المطلق) هو الأساس الذي يقوم عليه هذا الحديث النبوي أو ذاك، حتى إن كان الحديثُ أو الخبر النبوي قد ورد عند الإمامين البخاري ومسلم، وهو ما يسمَّى اصطلاحًا «الحديث المتفَّق عليه».

ولأن الذين كتبوا تاريخنا الإسلامي، كانوا في الأغلب من المحدِّثين (علماء الحديث) وكانوا في كثير من الأحيان يؤكِّدون الطريقة التي يروي بها أهلُ الحديث الأخبار والأقوال النبوية (السنن القولية، السنن الفعلية) فقد تبادر إلى الأذهان مع مرور القرون، ومع الميل الفطري إلى تبجيل السابقين؛ أن الروايات التاريخية والأخبار المروية لها المصداقية ذاتها التي تمتاز بها نصوصُ الأحاديث النبوية. وكان بعض مشايخنا المعاصرين، مثل أستاذنا الدكتور بشَّار عوَّاد معروف (المحقِّق الشهير في التاريخ وعلم الحديث النبوي) يقول بأنه يجب علينا تطبيق قواعد علم الحديث على علم التاريخ، بحيث نظفر بالصحيح من وقائع التاريخ، بعد تمحيص وضبط السند والرواية. بمعنى أن ننظر مثلًا في رواة هذا الخبر التاريخي، وفي اتصالهم الفعلي من عدمه، وفي صحة السند والمتن (الرواية والدراية) أو غير ذلك مما يفعله أهل الحديث، ثم نطبِّق ذلك على ما يرويه المؤرخون من وقائع وما يذكرونه من أحداث، فنعرف صحيحها من باطلها بمعرفة صدق الرواة وبطلانهم.. وهو النهج الذي اختاره أستاذنا الدكتور محمد سليم العوَّا، عندما تناول موضوع «فتح مصر» حسبما أشرنا سابقًا.

وقبل عامين، وبالتحديد في منتصف صيف العام ٢٠٠٨ استضفتُ د. بشَّار عوَّاد معروف، ليكون محاضرًا في مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية ضمن برنامج (الباحث المقيم) الذي نُحيي فيه تقاليد مكتبة الإسكندرية القديمة، حيث كان حكام مصر (البطالمة) يستقدمون كبار علماء زمانهم من أنحاء العالم، للإقامة في الإسكندرية للتدريس والتفاعل مع زملائهم وطلابهم من مختلف التخصصات. وخلال فترة إقامته البحثية، نوقشتْ في محاضرةٍ مفتوحةٍ فكرة تطبيق قواعد الحديث الشريف على التاريخ، فقال د. بشَّار عوَّاد معروف بالحرف الواحد: «كنا ندعو لذلك، ولكن ظهر لنا لاحقًا أنه خطأ، فالحديثُ الشريف يختلف عن التاريخ».

نعود من بعد هذا التطواف التمهيدي، إلى موضوعنا الأساسي، فنقول إن رسالة النبي إلى المقوقس، وبقية الرسائل النبوية التي وضعنا بآخر هذا الفصل صورةً طبق الأصل منها، هي وثائق تقع في المنطقة الوسطى بين الحديث الشريف والتاريخ.

ولسوف نناقش صحة نصِّها ومخطوطاتها بعد قليل، بعد تأكيد ما ذكرناه سابقًا من كلام ابن النفيس. أعني أن هذه الرسائل سواء كانت تاريخًا أو حديثًا شريفًا، فإنما نتَّبع فيها غالب الظن لا العلمَ المحقَّق، لا سيما أن نصَّها لم يرد أصلًا عند الإمامين البخاري ومسلم، ومن ثم فهي ليست مما يسمى اصطلاحًا «متفقٌ عليه».

ورد نص رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس عند عدة مؤرخين، منهم القزويني والمقريزي والسيوطي والبيهقي والقلقشندي (وغيرهم) وليس فيهم مؤرخٌ واحد، عاش في القرن الأول الهجري أو حتى الثاني. بل إن جميع من كتبوا تاريخ الإسلام، بعامة، لا يرجع واحد منهم إلى هذين القرنين. بعبارةٍ أخرى: بدأت كتابة «تاريخ الإسلام» في القرن الثالث الهجري، بعدما استقرت الأمور بأيدي الخلفاء العباسيين، ومن ثم فتاريخ الإسلام كتبه المتنصرون المستقرون. ومن عادة المتنصرين المستقرين، إقرار البدايات التي انطلقوا منها، وتهميش ما قبلها. ولذلك من العسير أن نجد في كتب التاريخ (الإسلامي) أخبارًا مؤكدة عن زمن «الجاهلية» بل إن هذه التسمية ذاتها (الجاهلية) تدل بشكل غير مباشر، على الإلغاء الذي جرى قديمًا لكل ما كان قبل زمن الإسلام.

وحسبما ذكر «محمد حميد الله» في كتابه المهم (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) فإن النسخة الأصلية من رسالة النبي إلى المقوقس، المنشورة صورتها بعد حين[1]، تم اكتشافها في كنيسةٍ قرب أخميم بصعيد مصر (محافظة سوهاج) وهي محفوظة اليوم في متحف توبقابي سراي، بإستانبول. أما الرسائل الثلاثة الأخرى فقد تمَّ اكتشافها وحفظها في أماكن أخرى، ولا يمكن الكلام على رسالة منها، من دون النظر إلى مجموع هذه الرسائل الأربعة.

والملاحظة الأولى التي تبدو لنا عند النظر في الرسائل الأربعة، هي أنها تبدو من حيث الشكل، مزوَّرة. صحيحٌ أن سمات الخط الذي كُتبت به هذه الرسائل، تعود إلى

(١) من لطائف السخائف، ما وقع عند نشر هذا الجزء بالجريدة في مقالةٍ تكررت فيها الإشارة إلى «صورة الرسائل المرفقة» لتكون معينًا للقارئ على متابعة النظر فيما نقول، غير أن المسئول عن تجهيز صفحة الجريدة حذف صور الرسائل، لضيق المساحة!

فترة مبكرة من تاريخ الإسلام، لكنه خطٌّ مختلف ما بين رسالة وأخرى. وقد يقول قائل: إن ذلك يرجع إلى اختلاف الكاتبين، لأن رسول الله لم يكتب الرسائل بيده، ولم يكن له كاتب واحد. فإذا قبلنا هذه الحجة، قامت بعدها شكوكٌ أخرى لا توجد حُججٌ لدفعها، منها أن (الختم النبوي) مختلف من رسالة إلى أخرى، والمفترض أن هذه الرسائل كُتبت جميعًا في وقت واحد، والمفترض أن (الأختام) نبويةً كانت أم غير نبوية، لا يجوز أن تكون أكثر من ختم وحيدٍ معروف، لخطورة وأهمية «الختم» في الزمن القديم، بل وفي كل زمان. وإلا، فهل يمكن أن نتخيل وجود أكثر من شكل، لما نسميه اليوم: ختم النسر؟ وهل يمكن قبول اختلافٍ في استدارة إطاره أو هيئة حروفه؟

ومن حيث النصوص الواردة في الرسائل الأربعة، فإن فيها رسالتين يُخاطب فيهما المرسل إليه (كسرى، النجاشي) بصفته، ورسالتين لشخص المرسل إليه (هرقل، المقوقس) باسمه، لا صفته. ولكن الرسائل الأربعة تصف المرسل إليهم بصفة «العظيم» أي الحاكم أو الملك أو الإمبراطور، فهرقل (عظيم الروم)، وكسرى (عظيم فارس)، والنجاشي (عظيم الحبشة)، والمقوقس (عظيم مصر)، مع أن المقوقس تابعٌ لهرقل ومصر تابعة لبيزنطة، وليس للمقوقس أن يقطع برأيٍ من دون الرجوع إلى هرقل، وليس يخفى على النبي محمد ﷺ مثل هذا الأمر. وقد عرفنا من سيرته، ومن القرآن الكريم، أنه كان يتابع ما يجري على الساحة الدولية في زمانه، وقد تعرضت سورة الروم[1] لهزيمة البيزنطيين على يد الفرس، وتنبأت بأن الروم (جيش هرقل) سوف يعيدون الكَرَّة، ويغلبون الفرس (جيش كسرى).. فكيف خوطب المقوقس باعتباره حاكمًا مستقلًا، وهو غير مستقل؟

ورعايا العظماء الأربعة، تصفهم الرسائل بأنهم على الترتيب: المجوس (الفرس)، القبط (المصريون)، الأَرَس (البيزنطيون، الروم) وهو أمرٌ غير دقيق تاريخيًّا، وهناك اختلاف حول دلالته. فالفرس لم يكونوا كلهم من المجوس، وكان حولهم مسيحيون كثيرون من كنيسةٍ عظيمة الاتساع في العراق، هي الكنيسة النسطورية التي كان بعض

(١) في فصيح اللغة العربية، وفي القرآن، هناك تفرقةٌ دقيقة بين الرومان والروم، فالرومان هم حكام «روما» عاصمة الدنيا في زمانها، أما الروم الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، فهم ورثة الحضارة الرومانية الذين نقلوا مقر حكمهم إلى بيزنطة (إستانبول الحالية).

أتباعها في العراق يُعرفون باسم «العباديين» وكان رئيسهم الديني يسمى (الجاثليق)، وهو ما يعادل في الكنائس الأخرى ما يُسمى (الأسقف العام أو البطرك أو البابا).

والرسالة إلى المقوقس تصف رعاياه بغير صفة الدين، فهم (القبط) أي المصريون، أيًا كانت ديانتهم. بينما تخص رسالة هرقل رعاياه باسم (الأرس) الذين يُرجَّح أنهم «أتباع آريوس» ومن ثَمَّ، فهم أتباع مذهب معين من مذاهب المسيحية. لكن هرقل لم يكن (عظيم) الآريوسيين، وإنما كان يمثل الدولة المسيحية الأرثوذكسية بحسب المذهب الخلقيدوني، أو مذهب (الملكانيين) الذين تسمَّوا بذلك نسبةً إلى (الملك) وهي نسبةٌ على غير قياس، وإلا كان اسمهم (الملكيين) وليس الملكانيين. ولكن جرى الاصطلاح على أن أتباع المذهب الأرثوذكسي الخلقيدوني (سوف نشرح معناه في الفصل القادم) الذي يدين به الإمبراطور البيزنطي، ولو شكليًّا، يُعرفون باسم «الملكانيين» تمييزًا لهم عن أتباع المذهب الأرثوذكسي الذي استمسك به الآباء المصريون. أما الآريوسية، فهي مذهبٌ قديمٌ ظهر في بداية القرن الرابع الميلادي، انطلاقًا من فكرة آريوس المستقاة من فكرة رجال الدين بالشام، المستقاة من التصوُّر (العربي) للمسيح على أنه رسول الله، وليس الإله! وأنه يوصف بابن الإله، نظرًا إلى صيغة أو مبدأ (التبني) الذي لا يجعل المسيح معادلًا لله تعالى.

إذن، صفة الحكام والمحكومين في هذه الرسائل الأربعة، مجتمعةً، غير دقيقة. وقد اجتهد بعض المؤرِّخين المتأخرين وبعض اللغويين العرب، في تأويل كلمة «الأرس» فقالوا إن المقصود بها (المزارعون) وهو تأويل يصعب قبوله، لأن الروم لم يكن العمل بالزراعة يميزهم عن الفرس وعن المصريين.

وقد تمادى بعض الرواة وقالوا إن المقوقس ردَّ على النبي محمد ﷺ برسالةٍ جاء نصُّها على زعمهم، كالتالي:

> «لمحمد بن عبد الله من المقوقس، سلام، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقى، وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسلك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوةٍ، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها».

وقد جاء نص (رد المقوقس) هذا، عند جماعة من المؤرخين منهم: القلقشندي والقزويني والزيلعي وابن الجوزي، وغيرهم.. بينما جاء نص رسالة النبي للمقوقس، عند الواقدي وابن حديدة (وغيرهما) على النحو التالي:

«من محمد رسول الله، إلى صاحب مصر والإسكندرية، أما بعد، فإن الله تعالى أرسلني رسولًا وأنزل عليَّ قرآنًا، وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني، ويدخل الناس في مِلَّتي، وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، فإن فعلتَ سعدتَ، وإن أبيتَ شقيت».

فكان رَدُّ المقوقس كما سبق، أو كان حسبما جاء في كتاب «فتوح مصر» للواقدي، وكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي؛ على النحو التالي:

«باسمك اللهم، من المقوقس إلى محمد. أما بعد، فقد بلغني كتابك، وقرأته وفهمتُ ما فيه، أنت تقول إن الله تعالى أرسلك رسولًا، وفضَّلك تفضيلًا، وأنزل عليك قُرآنًا مُبينًا. فكشفنا يا محمد في عِلْمنا عن خبرك، فوجدناك أقربَ داعٍ إلى الله، وأصدق مَنْ تكلَّم بالصدق، ولولا أني ملكتُ ملكًا عظيمًا، لكنتُ أول مَنْ سار إليك، لعلمي أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وإمام المتقين، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين».

وبعد.. فإن الرأي عندي، أن رسالة النبي محمد ﷺ إلى المقوقس التي هي إحدى الوثائق المهمة المتعلِّقة بالفتح العربي/ الإسلامي لمصر، إنما هي مثل بقية الرسائل الأربعة قد جاءت إلينا من باب الاختلاق (الفبركة) والروايات المتأخرة التي أعادت بناء الوقائع المبكرة في تاريخ الإسلام، بعدما صار المسلمون هم أصحاب الأمر والنهي. وسواءٌ كان الأمر يتعلَّق بالرسائل نفسها، أو بنصِّها المذكور بصيغ مختلفة في مصادرنا التاريخية، فإن القولَ فيها هو ما قاله العلامة ابن النفيس: «وأما الأخبار التي بأيدينا الآن، فإنما نتَّبع فيها غالب الظن، لا العلم المحقَّق».

بشاعةُ المقوقس

عرفت مصرُ خلال تاريخها الطويل، ما لا حصر له من أنواع الحكام الذين تعاقبوا على عرشها بالتراضي في مراتٍ قليلة، أو خلعَ بعضُهم بعضًا وانتزع العرش في

معظم المرات المريرة. وفي تطوافه ببلادنا، مَرَّ التاريخُ على كثيرين من حكام السوء، وعلى بعض الجيِّدين! فقد حَكَمَنا من قبلُ، الإماءُ من النساء (الجواري) مثل شجرة الدر، وحَكَمتنا الحرائرُ من الملكات البديعات من مثيلات كليوباترا وحتشبسوت وزنوبيا (ملكة تدمر العربية، التي امتد سلطانها شرقًا حتى شمل الإسكندرية ودلتا النيل). وعرفنا من الحكام الرجال عقلاءَ من أمثال المنصور قلاوون، ومهووسين من أمثال الظاهر بيبرس (وكلاهما لم يعرف الناسُ له أبًا)، وعرفنا مَنْ اشتهر عنهم الولع بالنساء كالملك فاروق، وعرفنا الممنوعين عن الزواج وعن المرأة عمومًا كالحاكم الشهير «كافور» الذي كان خَصِيًّا أو بتعبير عامي «مخصِيًّا». لكن (العرش) في بلادنا لم يشهد خلال تاريخه الطويل، فيما أعتقد، رجلًا أسوأ من «المقوقس» ولا أكثر منه بشاعةً ووضاعة. ودعونا أولًا نتعرف معنى كلمة (مقوقس) لنحسم بذلك خلافًا طالما اضطرب فيه المؤرِّخون، وظنَّ فيه الباحثون الظنون، لأن أحدًا منهم لم ينتبه إلى النقاط المهمة الآتي ذكرها:

هناك طرقٌ مختلفة للنسبة في مختلف اللغات، ففي اللغة العربية إذا أردنا أن ننسب شخصًا إلى بلدةٍ ما، أو إلى أيِّ شيءٍ آخر نريد أن ننسبه إليه، نأتي بالحرف المسمَّى (ياء النسبة) ونلحقه بآخر المنسوب إليه، فنقول مثلًا: فلان «القاهريّ» وفلان «السكندريّ أو الإسكندرانيّ» وفلان «الدمشقيّ» أو «الحلبيّ» أو مثل ذلك. وقد ننسب بهذه الياء إلى جماعة، فنقول: العباسيّ، القرشيّ، الأمويّ، العثمانيّ، أو مثل ذلك. وقد ننسب بها إلى مذهبٍ فقهيٍّ أو عقائديٍّ، فنقول: الحنبليّ، الشافعيّ، المالكيّ، الشيعيّ، السنيّ، الإباضيّ.. إلخ.

وفي اللغة التركية، تلحق بالمنسوب إليه لفظةُ (جي) فإذا أرادوا نسبة الرجل إلى عربة (الكارو) قالوا عربجي، وإذا كان مسئولًا عن قلعة فهو قلعجي، وإذا كان يعمل في بيتٍ للدعارة فهو كَرَخَانجي (قَرَا خان= المحل الأسود) وإذا كان هذا الشخص يقوم بالحملات الأَمْنية ويُلقي البلاء على البسطاء، فهو حَمْلجي (حملة جي) وإذا كان يصنع الحلوى فهو حلوجي.. وقد ينسبون بإلحاق اللام والياء بآخر الكلمة، فيقولون: شربتلي (صانع الشراب) قوَّتلي، غُندقلي.. إلخ.

أما في اللغة المصرية القديمة، التي تطورت كثيرًا حتى وصلت إلى المرحلة التاريخية التي سبقت، وتزامنت، مع (دخول) المسلمين إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص. وهي اللغة المسمَّاة اليوم بشكلٍ سبهلليٍّ غير دقيق: اللغة القبطية (بالمناسبة، سبهللة كلمةٌ عربيةٌ فصيحةٌ) فإن النسبة في هذه اللغة تأتي على نحوٍ خاص، هو إلحاق لفظة «امْ» بأول الكلمة المنسوب إليها. ومن هنا، صار اسم هذا الرجل الذي وفد إلى مصر من الجهة المسماة بالعربية «القوقاز» وهي الجهة التي يُنطق اسمها باليونانية واللاتينية «قَوْقس» صار اسمه في اللغة الدارجة بمصر آنذاك (امّقوْقس) ونطقه العرب (المقوقس) أي القوقازي. ومن لهجات العرب، خصوصًا أهل اليمن الذين فتحوا مصر مع عمرو بن العاص، التعريف بالألف والميم بدلًا من الألف واللام. وقد خاطب النبيُّ جماعةً من أهل حِمْيَر، وفدوا عليه وهم صائمون أثناء سفرهم قائلًا: ليس من امْبرِّ امْصيام في امْسفر (ليس من البر الصيام في السفر) وهو حديثٌ نبوي صحيحٌ.. ومن ذلك أيضًا، تسمية الحيِّ القاهري الشهير «إمبابة» وهي لهجة يمنية تُنطق بها كلمة «الباب» و «البوابة» لأن واحدة من بوابات القاهرة كانت بتلك المنطقة وعلى هذا النحو، توافقت لفظًا أداة التعريف (أل) في اللغتين اللتين كانتا سائدتين بمصر.

إذن، لفظ «المقوقس» هو النطق العربيُّ للكلمة المصرية القديمة، القبطية تجاوزًا، التي شاعت في زمن الدخول الإسلامي مصر كلقبٍ أو نسبة لهذا الأسقف/ الحاكم، لأنه في الأصل من بلدة «فاسيس» بالقوقاز. وأما اسمه الأصلي فهو «كيرس» أو «قيرُس» وقد ينطق أيضًا «سيروس» وهو اسم كان شائعًا في العالم المسيحي في ذاك الزمان.. فما الذي جاء بهذا الرجل ليحكم مصر؟ القصةُ طويلةٌ، ولسوف نوجزها فيما يلي بقدر المستطاع:

«ما كاد الحكم في مصر والشام يستقر بيد «هرقل» الذي انتزع عرش الروم سنة ٦١٠ ميلادية (١٣ قبل الهجرة) من الإمبراطور البيزنطي فوكاس، حتى اجتاح الفرسُ هذه النواحي وانتزعوها من قبضة «هرقل» وسلطانه سنة ٦١٦ ميلادية، الموافقة للسنة السابعة قبل الهجرة. وهو الحدث الجلل الذي أشارت إليه الآيات الأولى من سورة الروم في القرآن الكريم، حيث قالت: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾. وكان مما يؤلم

المسيحيين آنذاك، بالإضافة إلى وقوعهم تحت سلطان الفرس (عَبَدَة النار، أصحاب الأفيال، البابيلون) أن هؤلاء الغزاة بعدما استولوا على العاصمة الروحية للمسيحيين آنذاك، وهي مدينة إيلياء التي كانت تسمى قديمًا «أورشليم» وصارت تسمى لاحقًا، بالعربية «بيت المقدس» وهي ترجمة للكلمة العبرية بيت هميقداش. ولما استولى الفرس على المدينة، قاموا بانتزاع الخشبة المسماة في المصطلح المسيحي القديم صليب الصلبوت. وهي قطعةٌ من الخشب، استخرجتها في بداية القرن الرابع الميلادي من تحت التراب «هيلانة» أمُّ الإمبراطور قسطنطين، وهي امرأةٌ قيل إنها كانت في بداية أمرها تعمل ساقيةً في ماخورٍ من مواخير مدينة «الرُّها»[1] العراقية، وهناك أنجبت طفلاً غير شرعي لم يُعرف له أبٌ، غير أن هذا الطفل (قسطنطين) صار من بعد ذلك رجلًا عسكريًّا ماهرًا، استطاع أن يقضي على منافسيه من رفقاء السلاح، وأصبح إمبراطورًا فصارت أمُّه بعون الربِّ «قديسة» لأنها اكتشفت (الصليب) الذي صُلب عليه السيد المسيح في اعتقاد أهل الديانة، وأقامت فوقه قُبة كنيسة القيامة التي صارت قبلةً للحج المسيحي، خلال القرون التالية.

ولما انتزع الفرسُ صليبَ الصلبوت، انخلعتْ قلوبُ أهل الديانة على اختلاف مذاهبهم، وانفطرتْ حزنًا.. لكن الروم استطاعوا بقيادة قوَّاد هرقل، أن ينتصروا على الفرس بعد مرور ما يقرب من تسع سنوات على احتلالهم لمصر والشام، وهو الأمر الذي كانت سورة الروم قد تنبَّأتْ به، في قوله تعالى بعد الآيات السابق ذكرها: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾.

ولما انتصر الروم، استعادوا قطعة الخشب (التي اختفت ثانيةً بعد ذلك بقرون) وعادوا بها من عاصمة الفرس «المدائن» فدخل بها هرقل سنة ٦٢٨ ميلادية إلى إيلياء «القدس، أورشليم» في حفلٍ مهيبٍ، أسال دموع المؤمنين في أنحاء دولة الروم (المسيحية) على اختلاف مذاهبهم. واختلاف المذاهب كان آنذاك سببًا في اهتراء الدولة، فالمصريون

(١) اليوم، تقع هذه المدينة التي كانت قديمًا ضمن حدود «العراق» داخل حدود تركيا. وهي مدينة عريقة، في الجزيرة الفراتية، وكانت قديمًا مركزًا علميًّا للآداب السريانية واليونانية، ومدرسة شهيرة للطب. وفيها تمت الترجمات السريانية للتوراة، في نهاية القرن الثاني للميلاد.

المسيحيون قلوبهم شَتَّى. فيهم الأرثوذكس الروم (الملكانيون) والأرثوذكس السُّريان (الشوام) والأرثوذكس اليعاقبة (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الجامعة بين الله والمسيح). وأما سكانُ العراق المسيحيون وأغلبهم آنذاك من العرب، فكان معظمهم نساطرة يتبعون هذه الكنيسة الكبيرة (النسطورية، العبادية) التي امتدت آنذاك من أطراف الشام إلى قلب آسيا. وأما الشام المسيحي، فكانت مذاهبه العقائدية خليطًا من النسطورية والآريوسية والأرثوذكسية.. وقد كان لهذا التنازع المذهبي، كما سنذكر بعد قليل، أثرٌ هائل في الأحداث الكبرى آنذاك وفي السِّجال العسكري بين الفرس والروم.

ولما استقر صليب الصلبوت في مكانه السابق، اجتمع الأساقفةُ في المدينة المهد (أورشليم، إيليا، القدس) وتحلَّقوا حول هرقل الذي سألهم عن مخرجٍ عقائديٍّ يحلُّ الإشكال القائم بين الكنائس في مصر، حتى يضمن (مناخ الاستقرار) بالبلاد، فلا يتفرَّق الناسُ بسبب العقيدة ويلجأ المغلوبون منهم إلى أعداء الدولة، مثلما فعل اليهود. وبالمناسبة، فقد أعقبت هذه الزيارة التاريخية لهرقل، مذبحةٌ هائلةٌ لليهود في عدة أنحاء من العالم المسيحي، قُتل فيها عشرات الآلاف من «أبناء الرب» عقابًا لهم على مساعدتهم للفرس، وتنفيسًا لكراهية «أبناء يسوع» لهم. وبالمناسبة أيضًا، فإن رسالة النبي محمد ﷺ أو بعثته إلى هرقل كانت في تلك الأثناء، ولذلك انشغل هرقل عن الردِّ على الرسالة التي جاءته من قلب جزيرة العرب، وهو الموضع الذي لم يكن هرقل يهتم به (لكنه سوف يهتم به لاحقًا، وينهزم أمامه) وقد جرى هذا الاتصال الأول في السنة السابعة للهجرة أو بعدها بشهور، وهو ما يوافق سنة ٦٢٨ أو ٦٢٩ ميلادية.

ولما استقر الرأيُ في «إيليا» على ضرورة توحيد المذاهب المسيحية، حفاظًا على استقرار «الديانة» وتثبيت كرسي الحكم السياسي. اخترع الأساقفة لهرقل مذهبًا تلفيقيًّا أسموه (المونوثيلية) أو مذهب الإرادة الواحدة لله، واقترحوا عليه تعميم المذهب الجديد في مصر، لئلا يختلف أهل الديانة هناك فيما بينهم[١]. وكان هرقل بطبيعة الحال، يشجِّع اتفاق رعاياه على مذهبٍ واحدٍ، فلا تثور بينهم المشكلات وتُراق بسبب العقيدة

(١) راجع تفاصيل ذلك في كتابي: اللاهوت العربي.

ندماء، ولكي يضمن الولاء من الجميع، لا سيما أنه كان على المستوى الإنساني يريد أن يرتاح من حروبه الطويلة، ويسعد بزواجه من «مرتينا» ابنة أخته، باهرة الجمال.. وبعد شدٍّ وجذب، تزوَّجها.

ولما كان من المعروف عن المسيحيين المصريين (اليعاقبة، المونوفيست، الأقباط) عنادهم العقائدي، فقد كان من المهم أن يُعهد بتعميم المذهب الجديد إلى شخصٍ حازم وقويٍّ بإمكانه تحقيق هذا المطلب، وإلزام المصريين بمذهبٍ دينيٍّ واحد. فاقترح البعضُ على هرقل أن يأتي من بلاد القوقاز (قَوْقس) بأسقف بلدة «فاسيس» الواقعة حاليًا بجمهورية جورجيا، وهو رجلٌ معروف بقسوته ليكون لأول مرة في تاريخ مصر، ولآخر مرة، هو الحاكم الديني والدنيوي للبلاد، والجامع في قبضته بين مفاتيح الأرض والسماء.. وتمت صياغة المذهب (المونوثيلي) على عجل، وعلى عجلٍ استدعى هرقل الأسقف القوقازي «قيرس» فدرس هذا الرجلُ المذهبَ (المختَرَع) بسرعة، وذهب به إلى مصر ليخلف الأسقف جورجيوس بن مينا، الذي يسمِّيه العرب «جريج بن مينا» وليكون أيضًا قائدًا عامًّا للجيش، وملكًا أو أميرًا يحكم مصر لصالح هرقل. وكان وصول هذا الأسقف القوقازي (المقوقس) إلى الإسكندرية عاصمة مصر آنذاك، في خريف سنة ٦٣١ ميلادية. وهو الأمر الذي أكَّدته معظم المصادر التاريخية[1]. ولنلاحظ هنا، أن وفاة النبي محمد ﷺ كانت في ربيع سنة ٦٣٢ ميلادية، أي بعد عدة شهورٍ من وصول المقوقس إلى مصر، ومن ثم فلا صحة لما توهَّمه عديدٌ من القراء الذين ظنوا أن هناك خطأً في الأحداث التاريخية المذكورة عَرَضًا في روايتي «النبطي» فيما يتعلق بمجيء السيدة (مارية القبطية، أم المؤمنين).. فالخطأ التاريخي ليس في الرواية، وإنما في الأذهان.

وفي الوقت الذي جاء فيه المقوقس إلى مصر، كان للمسيحيين المصريين «الملكانيين» كبيرٌ منهم اسمه الأنبا صفرونيوس، وللمسيحيين المصريين «اليعاقبة» كبيرٌ اسمه الأنبا بنيامين. وفور وصوله، عرض الأسقف الجديد قيرس (كيروس، سيروس)

(١) يمكن مراجعة تفاصيل هذه النقطة المهمة، في كتاب «ألفريد بتلر» عن فتح مصر.

الذي أسماه المصريون «المَقَوْقس» المذهب المونوثيلي الجديد على الملكانيين، فارتمى صفرونيوس تحت أقدامه، ونزفت عيناه دمًا (بحسب تعبير ساويرس بن المقفع) وصرخ متألمًا، راجيًا من الأسقف المقوقس أن يصرف النظر عن نيَّته إلزامَ الجميع بالمذهب الجديد. فأهانه المقوقس، لكنه لم يستطع أن يبالغ في إيذائه لأن الملكانيين كانوا آنذاك هم «أصحاب البلد» وكان بأيديهم المال والاقتصاد والتبعية المباشرة لكنيسة العاصمة الإمبراطورية «بيزنطة». أما الكبيرُ الآخر، الأنبا بنيامين، فإنه لم يذهب إلى المقوقس ليفاوضه أو يرجوه، أو يتحدَّاه ساعيًا للشهادة، وإنما هرب من الإسكندرية بعدما أوصى أتباعه أن يصمدوا هم في وجه الحاكم الرهيب ومذهبه الغريب، مهما أدى ذلك بهم إلى الموت (الشهادة) فداءً للعقيدة الوحيدة الصحيحة.

وقد قبض المقوقس على (مينا) ذلك المسكين الذي هو الأخ الأصغر للأنبا بنيامين، أملًا في أن يعود أخوه الأنبا الهارب (بنيامين) فيلزمه المقوقسُ بالمذهب الجديد المخترَع. لكن الأنبا (الأب) بنيامين لم يرجع إلى الإسكندرية، واختفى عن الأنظار في صحراء هبيب (وادي النطرون) ثم في الصعيد، فاكتوى أخوه (مينا) بنار المقوقس وأتباعه الذين تفننوا في تعذيبه بدنيًّا، ثم علَّقه المقوقس من ذراعيه وأوقد حوله نارًا حامية أذابت شحم جسمه، ثم أخذه إلى مركب وعلَّق بقدميه أثقالًا، وعرض عليه أن يقبل المذهب الجديد أو يُلقى به في البحر. وفضَّل «مينا» الموت فأغرقوه في البحر، فصار شهيد المذهب اليعقوبي، بينما آثر بنيامين البقاء هاربًا مختفيًا. وظل كذلك طيلة الثلاث عشرة سنة التالية، حتى جاءه من قلب الصحراء الفاتحُ البديع «عمرو بن العاص» فأعاده إلى الإسكندرية بعدما أعطاه «الأمان» الشهير وأوكل إليه رعاية أهل مِلَّته، حسبما سيأتي في الفصل الخامس من كتابنا هذا، عند الكلام عن التاريخ المطوي في «البرديات».

لم يهدأ المقوقس بعد مقتل «مينا» وإنما قام وفقًا لما ذكرته المصادرُ المسيحية، بتهديد الناس وسرقة الكنائس اليعقوبية وإحراقها. وجمع من هؤلاء الناس «اليعاقبة» عشرين ألف شخص في ميدان بوكاليا بالإسكندرية، وهو المسمى اليوم: محطة الرمل، وعرض عليهم المذهب الجديد فرفضوا قبوله لأن الأب بنيامين أوصاهم قبل هروبه بالثبات على العقيدة القويمة، حتى لو دفعوا حياتهم ثمنًا لها، وقد دفعوا

بفعل حياتهم ثمنًا لها. فقد قتلهم المقوقس جميعًا، وجرت دماؤهم في شوارع الإسكندرية كالأنهار[1].

وتفنَّن المقوقس في إيذاء الناس بمصر حتى يقبلوا مذهبه، وقام بفظائع يطول ذكرها، حتى إن القَسَّ البريطاني والباحث المتميز «ألفريد بتلر» جعل في كتابه عن «فتح مصر» فصلًا بعنوان: الاضطهاد الأعظم للمصريين على يد قيرس (المقوقس) فمن أراد معرفة تفاصيل ذلك أو الاطلاع على المزيد من شناعة المقوقس وبشاعته، فليرجع إلى ذلك الفصل الدامي. وليرجع أيضًا مَنْ أراد ذلك، إلى ما كتبه ساويرس بن المقفع عن الأهوال التي فعلها المقوقس، في كتابه الذي اشتهر بعنوان (تاريخ الآباء البطاركة) وإلى ما كتبه حنا النقيوسي الذي كان معاصرًا لهذه الفترة، في كتابه الذي فُقد أصله المكتوب باللغة المصرية واكتُشف حديثًا نصُّه المترجم إلى اللغة الحبشية، ونُشرت مؤخرًا ترجمته العربية تحت عنوان: تاريخ مصر.

ولم يفلح المقوقس (قيرس) في تعميم المذهب، واكتسب عداوة المصريين وكراهيتهم جميعًا، ملكانيين ويَعَاقبة. وكان هرقل قد انشغل عنه وعن أمور مصر، بما كان غارقًا فيه من اهتراءٍ سلطويٍّ وتفسُّخٍ أُسَرِيّ وصراعٍ بين الزوجات والأبناء والقُوَّاد. حتى إن هرقل فكَّر في الهروب من العاصمة، وجهَّز سفينة لتبحر به إلى ساحل إفريقية (تونس) ليقضي هناك بقية عمره الذي كان قد آل إلى خطِّ الزوال، بعيدًا عن صراعات العرش.

وفي ذاك الوقت المدلهمِّ، بدأ دينُ الإسلام ينتشر بقوة ويملأ جزيرة العرب، ويهدِّد سلطان الروم والفرس في حوافِّ الشام والعراق. ومعروفٌ أن للمسلمين آنذاك طريقتهم الخاصة في تسيير الأمور، وفي صدق النية، وفي الصبر على الحرب، وفي الحيلة. وكان المسلمون في زمن الخليفة أبي بكر الصديق، قد عاهدوا حاكم اليمن الذي كان تابعًا لدولة الفرس، على أن يكون تابعًا للمسلمين فلا يضطروا لقتاله، في مقابل أن يتركه المسلمون يحكم البلاد حتى وفاته.

(١) راجع تفاصيل هذه المذبحة في كتاب «تاريخ البطاركة» لساويرس بن المقفع.

وكان أبو بكر الصديق أثناء خلافته، بعد وفاة النبي ﷺ قد أرسل الصحابي «حاطب بن أبي بلتعة» إلى المقوقس، فأبرم سرًّا عهدًا مثل ذلك الذي أُبرم مع حاكم اليمن. ولم يُعلن المقوقس هذا العهد، ولم تُشِر إليه المصادر الإسلامية بشكل واضح؛ لكنني أدركته من العبارات التي أشرتُ إليها سابقًا، أعني تلك التي أوردها «ابن عبد الحكم» حين ذكر أن عمرو بن العاص ألَحَّ على الخليفة عمر بن الخطاب حتى سمح له بالخروج إلى مصر غازيًا «فنقض الصلح وفتحها» وقال ابنُ عبد الحكم في موضعٍ آخر، إن الخليفة عمر (الفاروق) رَدَّ الأسرى المصريين الذين أرسلهم إليه عمرو بن العاص مقيدين بالسلاسل (عددهم ثلاثة آلاف) بعد أول صدامٍ عسكري وقع بيد المسلمين والروم في الفرما (بيلوز، البرمون) فلم يقبل عمر بن الخطاب بهم كأسرى، فأطلقهم وردَّهم إلى مصر «لعهدٍ كان قد سبق لهم».

وهناك الكثير من تلك العبارات الدالة و«الإشارات» المهمة التي ذكرتها المصادر التاريخية المبكرة، لكن المؤرِّخين لم يتوقفوا أمامها بما يليق بأهميتها، فظلت عالقةً في فضاء الأوهام والخرافات المتعلقة بالدخول العربي/ الإسلامي لمصر، سواء أسميناه فتحًا أو غزوًا. غير أن إعادة تركيب الصورة في أذهاننا على ضوء ما نطرحه من تصورات، من شأنه تبديد ما في أذهاننا من توهُّمات، ومن شأنه تحديد صورة الماضي (والحاضر) على نحوٍ أكثر منطقيةً وعقلانية.

ولم تتوقف بشاعة المقوقس على الفِعال والفظاعات الدموية التي اقترفها في حق البسطاء من الناس وفي حق الآباء الكبار، ولا على الوضاعة التي تصرَّف بها حين خرَّب الكنائس وسلب الأواني المقدسة. ولم تقتصر بشاعته على مخالفته أوامر سيِّده المسيح وتعاليمه، ليرضي سيده هرقل. فقد زاد على ذلك كله خيانته لسيده هرقل باتفاقه مع العرب المسلمين سرًّا، وهو الأمر الذي تجلَّى بوضوحٍ في الدور الهزلي الذي لعبه المقوقس عند حصار حصن بابليون[1]. حتى إنه طلب من المسلمين مفاوضًا آخر غير

(١) هو الحصن الموجود اليوم بالمنطقة المسماة «مصر القديمة» بجوار المتحف القبطي. وكان في وقت مجيء المسلمين لمصر، معروف عند عوام المصريين باسم «القصر» أو قصر البابليون.. والكلمة الأخيرة تشير إلى الفرس (أهل بابل) الذين قاموا ببنائه وتحصَّنوا فيه أيام احتلالهم لمصر، قبيل مجيء المسلمين.

عُبادة بن الصامت، لأنه وجد هذا الصحابي الجليل غير مناسب للتفاوض معه لأنه كان «طويلًا وأسود» فطلب مفاوضًا أفضل منظرًا، وهو الطلب الذي رفضه عمرو بن العاص.

وبعد تسليم حصن بابليون للمسلمين، قام جند المقوقس (جيش الروم) بتقطيع أيادي عدة آلافٍ من الرجال المصريين، كانوا يعتقلونهم في هذا الحصن/ المدينة، كيلا يساعدوا المسلمين في بناء الجسور لاستكمال الفتح. ولا أظن أن المقوقس هو الذي أمر بذلك، فقد كان آنذاك أضعف من أن يفعل، لكنه وافق على الأمر وأسرع بالهروب من مصر إلى بيزنطة كي يقنع هرقل بتسليم البلاد إلى المسلمين.. ورفض هرقل العرض، وأهان المقوقس، فظل مهانًا إلى أن مات هرقل، فاستطاع المقوقس أن يقنع خلفاءه بالتسليم وعاد بسرعة إلى مصر ليزفَّ لعمرو بن العاص خبر تسليم مصر، ويطلب منه في المقابل أن يُبقيه في الإسكندرية آمنًا حتى وفاته.. وقد وافق عمرو بن العاص على ذلك الطلب، فقضى المقوقس بقية أيامه بالمدينة حتى مات بها، ودُفن، ولم يُعرف له من بعد ذلك قبرٌ ولا قَدْر».

صراعُ الكنائس المصرية

لا يمكن فهم الواقعة الكبرى المسمّاة فتح مصر أو غزو مصر، وآثارها الممتدة حتى يومنا هذا، من دون الوقوف عند الجوانب المختلفة والعوامل المتفاعلة التي أنتجت هذا «النبأ العظيم» بأبعاده التاريخية والمعاصرة. وقد أشرنا فيما سبق إلى تلك الجوانب والعوامل المتساندة فيما بينها، مع أنها تبدو للوهلة الأولى متباعدة، ومن بينها حالةُ الصراع الكنسي الذي كان دائرًا في مصر أثناء قدوم الفاتح عمرو بن العاص بجيشه سنة ٢٠ هجرية الموافقة سنة ٦٣٩ ميلادية، بل كان دائرًا من قبل ذلك بعشرات السنين. وهو صراعٌ طويلٌ مرير يطول شرح تفاصيله، ولذلك سوف أكتفي فيما يلي بتقديم ملخَّص بيانه، وعلى القرَّاء تأمُّله وتبيانه:

في القرنين الأول والثاني الميلاديين، ظهرت المسيحيةُ في أنحاء العالم القديم (الهلال الخصيب وحوض البحر المتوسط) كَلَهَبٍ سماويٍّ انتشر في هشيم المهمَّشين

من الناس، لأنه يزفُّ إليهم بشرى «الخلاص» الذي كان حُلمًا يهوديًّا قديمًا ظل يراود أجيالًا من اليهود العبرانيين الذين طالما انتظروا «الماشيح» الذي سيحقِّق وعدَ (عهد) الربِّ لإبراهيم، ويصير ملكًا لليهود في الأرض الممتدة من النهر إلى النهر، أو من النيل إلى الفرات، وهما الخطان الأزرقان المرسومان اليوم في العَلَم الأبيض لدولة إسرائيل، وبينهما نجمة «داود» السُّداسية الشهيرة، التي يقولون إنها كانت شعار (داود) الذي هو عند اليهود ملكٌ عظيم، وعند المسلمين نبيٌّ كريم.. وما لبث حلم «الخلاص» أن صار أملًا عامًّا عند عوام الناس، سواء كانوا يهودًا أو غير يهود، لأن الاضطراب العام والتعسف السلطوي البيزنطي صار قاسيًا على شعوب العالم القديم، فباتوا يحلمون بخلاصٍ يأتيهم من السماء.

وكان للمسيحية عند ابتداء انتشارها أشكالٌ كثيرة، ترسم للسيد المسيح صورًا متعددة تتفاوت فيما بينها. فهو عند أولئك فيلسوفٌ غنوصيٌّ يصل بالتطهُّر إلى الحقائق السماوية، وعند هؤلاء رسولٌ من عند الله، وعند آخرين «ابن الله» الذي جاء ليفتدي البشر ويخلِّصهم من خطيئة أبيهم آدم الذي عصى الربَّ وأكل من شجرة (المعرفة) المحرَّمة على الإنسان، وكاد يأكل من شجرة الخلود فيصير كالآلهة. وهو ما أشير إليه في الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين، حيث قال «سِفر التكوين» ما نصُّه: «وقال الربُّ الإله، ها هو الإنسان قد صار كواحدٍ منا عارفًا الخير والشرَّ، والآن لعله يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحيوة أيضًا (شجرة الخلود) ويأكل فيحيا إلى الأبد، فأخرجه الربُّ الإله من جنة عدن، ليعمل في الأرض التي أخذ منها. فطرد (الله) الإنسان وأقام شرقيَّ جنة عدن، الكروبيم (الملائكة الحرَّاس) ولهيبَ سيفٍ متقلبٍ، لحراسة طريق شجرة الحيوة[1]».

ورأى المسيحيون، وهم أولئك الذين آمنوا بالدين الجديد على اختلاف صوره المبكرة، أن «يسوع» هو المسيح المخلِّص من الخطيئة الأولى. فآمنوا به وتناقلوا الأناجيل الكثيرة[2]، وراحوا بكل حماس يدعون الناس للإيمان به، وهو ما يُعرف

(١) الكتاب المقدس، سِفر التكوين، الإصحاح الثالث، الآيات ٢٢ وما بعدها.

(٢) إنجيل كلمة يونانية الأصل، تعني: البشارة.

في المصطلح الكنسي بالكرازة[1]، لكن اليهود لم يقتنعوا بأنه «الماشيح» فحاكموه وسلَّموه إلى الرومان ليقتلوه. فصلبوه حسبما يعتقد المسيحيون، أو شُبِّه لهم حسبما يعتقد المسلمون.

وفي القرن الثالث الميلادي، انتشرت بأيدى الناس نسخٌ كثيرة من الأناجيل، منها الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم «متى، مرقس، لوقا، يوحنا» وأناجيل أخرى مثل إنجيل (يهوذا) وإنجيل (المصريين) وإنجيل (الطفولة) وغيرها. وقد أدى اختلاف هذه النصوص، إلى فهمٍ مختلفٍ ومتباينٍ للديانة التي صار مجموع المؤمنين بها في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي، قُرابة عشرة بالمائة من مجموع سكان الإمبراطورية الرومانية الواسعة.

وفي الربع الأول من القرن الرابع الميلادي، انتشرت آراء المفكر الكنسي الشهير «آريوس» الذي وفد إلى الإسكندرية من ليبيا (المدن الخمس الغربية) ثم أذاع أفكاره في الشام، فآمن بها كثيرون.. وتتلخص أفكاره في أن المسيح ليس إلهًا، وليس ابنًا لله بالمعنى الحقيقي، وإنما بشكل مجازي في إطار نظرية (التبنِّي) التي تطورت بعد ذلك، ولاقت قبولًا عند كثيرين.

وزمجرت كنيسةُ الإسكندرية التي كانت آنذاك يونانية اللغة والطابع، ودعا أسقفها «إسكندر» إلى اجتماع دولي لرؤساء الكنائس الكبرى في العالم، فانعقد المجمع برعاية الإمبراطور قسطنطين ورئاسته سنة ٣٢٥ ميلادية ببلدة نيقية الواقعة حاليًا بتركيا، وهي التي تسمى اليوم «أزنيق». وتم في هذا الاجتماع الكنسي الذي ترأسه الإمبراطور (غير المؤمن بالمسيحية ولا بالكنيسة) طَرْدُ آريوس من حظيرة الإيمان، كما تم إقرار الأناجيل الأربعة وتأكيد أن المسيح يعادل الله وروح القدس، ومن ثم سطعت عقيدة التثليث أو الثالوث المسيحي التي صيغت في عبارة: الآب والابن وروح القدس إلهٌ واحدٌ، آمين (وليس آمون).

---

(١) كلمة «كرازة» تعني الدعوة إلى الدين الجديد، وهو ما يسمى اليوم: التبشير.

وصارت المسيحية من بعد ذلك «المجمع» فريقين: هراطقةً (كُفّارًا) من أتباع الآريوسية والمانوية والديصانية، ومؤمنين يسمُّون أنفسهم أتباع الكنيسة الكاثوليكية الأُرثوذكسية[1]. لكن الفريق الأخير انقسم على ذاته في مرحلة تالية، عندما رفض نسطور (أسقف العاصمة الإمبراطورية بيزنطة) اعتبار القديسة مريم العذراء «أم الإله» أو بحسب اللفظ اليوناني: ثيوتوكوس. وبالمناسبة، فإن كل هذه الاعتقادات والاختلافات العقائدية، كانت آنذاك تُصاغ باللغة اليونانية وكانت كنيسة الإسكندرية أيضًا، لا تزال يونانية اللغة والتفكير.

ثم انشقت الكنيسة «الكاثوليكية الأرثوذكسية» على نفسها بسبب انتشار أفكار نسطور في منطقة الشام والعراق، مع أنه طُرد من حظيرة الإيمان في مجمع إفسوس سنة ٤٣١ ميلادية، فصارت الكنائس موصوفة كالتالي: هراطقة، نساطرة، أرثوذكس (كاثوليك).. وبعد الانشطار الذي تم في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح، وهل هو (من) طبيعة إلهية، أم (عن) طبيعة إلهية؟ وهو الخلاف الذي أدى في المجمع المذكور إلى ثورة رؤساء الكنائس على رئيس كنيسة الإسكندرية «الأسقف ديسقوروس» وإهانته بشكلٍ لا يجوز أن أذكره هنا بالتفصيل، احترامًا لذكرى هذا الرجل، صارت الكنيسة الأُرثوذكسية (الكاثوليكية) قسمين متنازعين: أتباع خلقيدونية أو كنيسة اليونان وبيزنطة وروما، وهم المعرفون اليوم باسم: الروم الأرثوذكس. وأتباع ديسقوروس أو كنيسة اليعاقبة نسبةً إلى يعقوب (البرادعي) أو كنيسة الطبيعة الواحدة المسماة «المونوفستية» وهي التي يُشار إليها اليوم مجازًا، بالكنيسة القبطية. وصارت هناك، أيضًا، كنيسة أرثوذكسية في الشام هي المسماة اليوم «كنيسة الأرثوذكس السريان».

وبعد الانشطار الأعظم الذي حدث في حدود سنة ١٠٥٤ ميلادية اختصَّ أتباع كنيسة روما باسم (الكاثوليك) وهم الذين انشطر منهم في القرن السادس عشر الميلادي كنيسة (البروتستانت)، بينما اختصَّ أهل الكنائس المصرية واليونانية والشامية باسم (الأرثوذكس)

---

(١) المجمع كلمة «كاثوليكية» تعني الجامعة أو العالمية، وتعني «الأرثوذكسية» الإيمان القويم.

وتوزَّعوا على ثلاث كنائس: الأرثوذكس السريان، الأرثوذكس الخلقيدونيين (الروم) الأرثوذكس اليعاقبة (المونوفستيين).. وبالمناسبة، فإن في بلادنا اليوم من هذه الكنائس ثلاثًا، أكبرها تلك التي يرأسها البابا المتنيح «شنودة الثالث»[1] بطريرك الكرازة المرقسية. يليها من حيث عدد الأتباع كنيسةُ «الإنجيليين» وهم من البروتستانت الذين وصل عددهم بمصر إلى قرابة المليون شخص، ويقال إنهم يتزايدون رويدًا بسبب انتقال أتباع الكنيسة الأولى، إلى مذهبهم الخالي من تعقيدات الكهنوت وصعوبات الطلاق. ولذلك تقيم الكنيسة القبطية دوريًا، ما يُسَمَّى «مؤتمرات تثبيت العقيدة» للحدِّ من انتقال أتباع هذه الكنيسة إلى تلك.

أما الكنيسة المصرية الثالثة، فهي المسمَّاة كنيسة الروم الأرثوذكس (الخلقيدونيين) وكان السريان والعرب يسمونها كنيسة الملكانية. ولهم اليوم رئيس روحي يعيش في الإسكندرية، هو البابا «ثيوذوروس الثالث» بطريرك الإسكندرية وسائر إفريقيا، وقد التقيتُ به مرارًا فوجدته أنموذجًا لما يجب أن يكون عليه رجال الدين من سماحةٍ وبساطةٍ وتسامحٍ مسيحيٍّ، وإنسانيٍّ. وبالمناسبة، فهذه الكنيسة التي يرأسها اليوم هذا الرجل المبارك، هي الكنيسة المصرية الأكثر عراقةً وامتدادًا في تاريخنا المصري، وهي التي بيدها اليوم أهمُّ وأقدم دير في مصر (دير سانت كاترين) الذي تحتفظ مكتبته بأقدم نسخةٍ كاملة من الأناجيل الأربعة، باللغة العربية، مؤرَّخة بسنة ٢٨٤ هجرية.

..نعود إلى زمن الفتح (الغزو، الدخول) العربي الإسلامي لمصر، فنرى أن الخريطة الروحية للبلاد، كانت تجمع آنذاك بين ثلاث كنائس كبرى (الملكانية، اليعقوبية، السريان) وكانت السلطة الدينية والمدنية بيدِ قيرس (المقوقس) الذي كان يبطش بالمخالفين لمذهبه الساذج «المونوثيلية» سواء كانوا من الملكانيين أو اليعاقبة، لكن بطشه باليعاقبة «الأقباط» كان أنكى وأشنع لأنهم فقراء مساكين، وليس لهم مَنْ يقوم بحمايتهم. ولا نستطيع هنا بل لا يستطيع أحدٌ، تحديد النسبة العددية لأتباع هذه

(١) المتنيح في المصطلح المسيحي المصري، تعني المتوفى. ولم يكن البابا شنودة قد توفي (تنيَّح) عند نشر المقالة الأصل، ولذلك قمتُ بتعديل النص عند إعداد هذا الكتاب للنشر.

الكنيسة أو تلك، في زمن مجيء عمرو بن العاص فاتحًا (غازيًا) لمصر. ولكن يمكن القول إجمالًا، إنه في زمن الفتح كانت الكنيسة الملكانية (الروم الأرثوذكس) هي الأقوى والأغنى، بينما كانت كنيسة اليعاقبة (الأقباط الأُرثوذكس) هي الأكثر عددًا من حيث الأتباع.

وبعد الفتح واستقرار الحكم الإسلامي لمصر، تكاثر أتباع الكنيسة الأرثوذكسية اليعقوبية (الأقباط المرقسيون) بسبب الاستقرار الذي أتاحه الحكم الإسلامي للبلاد، بينما تناقص عدد الأرثوذكس الروم بسبب رحيل بعضهم عن الديار إلى اليونان والأناضول، حيث المقر الرئيس لمذهبهم العقائدي، لكن الملكانيين لم يختفوا من مصر بل كان لهم في القرون الإسلامية الأولى بمصر، حضورٌ متميزٌ يتمثل في وقائع كثيرة دالة على أهميتهم في تاريخنا. فمن ذلك نبوغ رجال منهم، من أمثال «سعيد بن البطريق» المؤرِّخ المتوفى سنة ٩٣٩ ميلادية، الذي كان رئيس كنيستهم في زمانه. وكان من أهل كنيستهم أيضًا شخصيات أخرى معروفة مثل زوجة العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي، وهي أمُّ «ست الملك» أخت «الحاكم بأمر الله» ويقال إنها كانت أمَّ «الحاكم» أيضًا.

.. نعود ثانيةً إلى زمن الفتح الإسلامي بمصر، فنشير إلى أن العرب الذين كانوا قد استقروا بمصر من قبل الفتح بقرون، كان منهم يهودٌ مسيحيون. وهؤلاء المسيحيون كان منهم ملكانيون من أمثال الأسقف يوحنا بن رؤبة (حاكم أيلة الذي صالح النبي وفتح أمام المسلمين بوابة سيناء الجنوبية) وكان منهم نساطرة، وهم أتباع المذهب المسيحي الأوسع انتشارًا آنذاك في العراق وأطراف الشام. ومنهم أتباع كنائس أخرى، اضمحلَّت مع الوقت وطواها الزمان.

ولا يجب هنا أن يفوتنا المعنى العميق لعبارة الخليفة عُمر بن الخطاب، التي أمر فيها عمرو بن العاص عند خروجه بالجيش العربي الإسلامي لاستلام الحكم في مصر، أعني العبارة التي أمره فيها بأن يستنفر معه القبائل العربية بمصر، كي تؤازره وتشترك معه في فتح البلاد. وهو الأمر الذي سنعرض له بشيءٍ من التفصيل فيما يأتي.

أرطيون العرب

لا يمكن الكلام عن فتح مصر، من دون الوقوف طويلًا أمام شخصية عمرو بن العاص الذي تحيَّر في وصفه القدماء والمحدثون، وأورد عنه المؤرِّخون ما لا حصر له من أخبار، ثم أفرد له المؤلفون عددًا من الكتب التي لم تستطع فيما أرى، أن تحيط بشخصيته الفريدة المحيِّرة. ولعل العبارة التي قالها ابنُ العاص في مرض موته، تُلقي بعضًا من الضوء على تناقضات (الحيوات) التي عاشها هذا الفاتح البديع، فقد أشار بعبارته إلى أنه مرَّ بمرحلة كان يكره فيها الإسلام ويحقد على النبيِّ حتى يتمنى قتله لو يستطيع إلى ذلك سبيلًا، وفي مرحلةٍ تالية أسلم فصار في قلبه حبٌّ عظيم للدين والنبيّ، لا يعدله حبٌّ مماثل. وفي مرحلةٍ ثالثة دخل في أمورٍ مدخولة الحق والباطل (حرب عليٍّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان) فلم يعد يعرف خيرها من شرِّها، لكنه في المجمل نادمٌ عليها.

لكن هناك مرحلة في حياة عمرو بن العاص، أسبق من (الحيوات) الثلاث المذكورة، أعني مرحلة الطفولة والشباب المبكر. وهي الفترة التي تشكَّلت فيها الملامحُ لشخصية عمرو بن العاص، الذي وصفه معاصروه واللاحقون به بأنه: داهية قريش، أمير الحرب، رجل العالم، أرطيون العرب.. وسوف نتوقف بعد قليل، عند هذا الوصف الأخير.

بدأت حياة «عمرو» في مكة، حيث كانت أمه تعيش في كَنَف أهل مكة «قريش» بين الفقراء، كامرأةٍ من السبايا أو من المعدمين. وكانت تفتح بابها فيغشاها الرجالُ، ولما ولدته نسبته إلى «العاص بن وائل السهمي» فنشأ في حضنه وتزوَّج فور بلوغه بابنة عمه «رائطة بنت الحجَّاج بن منبه السهمية» فقضت معه حياتها كلها، وأنجبت له ولده الذي أسماه «عمرو» باسم أبيه «العاص» غير أن النبيَّ غيَّره لاحقًا، وأعطاه الاسم الذي اشتُهر به، وهو «عبد الله بن عمرو بن العاص» وكان الفارق في السن بين «عمرو» وابنه «عبد الله» في حدود الاثنتي عشرة سنة فقط، مما يعني أن (عمرو بن العاص) تزوَّج ابنة عمه (رائطة) في سن مبكرة من عمريهما، بحسب عادة أهل زمانهما.

وكان نبوغ «عمرو» في مكة، مبكرًا، فقد روت المصادر أنه كان صبيًا يافعًا حين واجه بكلماته البليغة، رجالَ قريش الذين انتقدوا أباه «العاص بن وائل» لاعتدائه على الحقوق المالية لواحدٍ من تجار اليمن، وهي الواقعة التي انتهت بتأسيس (حزب الفضول) الذي كان يقوم من قبل الإسلام، بنُصرة المظلومين.. والغمَّازون اللمَّازون الكارهون لعمرو بن العاص، يشيرون كثيرًا إلى أمه، ظنًّا منهم أن ذلك يحطُّ من شأنه. لكنه في واقع الأمر كان قد تجاوز هذه المسألة، منذ بدايات حياته، بل كان لا يجد غضاضةً في الإشارة إليها. وهو ما يدل على ثقته الوفيرة بذاته، فعندما مات أخوه «هشام» بكاه بحرقة، وهو آنذاك أميرٌ على جيش المسلمين، فلامه على ذلك كبار قُوَّاده، فقال لهم ما معناه: كيف لا أبكي عليه، وقد كان أفضل مني، وأمه أفضل من أمي.. وفي واقعةٍ تالية أيامَ كان أميرًا لمصر، تراهن بعض الخبثاء مع رجلٍ على مبلغٍ من المال، إذا استطاع أن يسأل «عمرو» يوم الجمعة أثناء خطبته على المنبر، عن أمِّه فسأله الرجل قائلًا: مَنْ أمُّ الأمير؟ فقال له عمرو بن العاص ببساطةٍ وثقة ما فحواه: كانت امرأةً من فقراء قريش، اسمها ليلى، فاذهبْ وخُذْ من أصحابك المال الذي جعلوه لك.

ويتصل بما سبق، روايات أخرى لا تتعلق بقدرة «عمرو بن العاص» على تجاوز الوقائع القديمة التي لم يكن له يدٌ فيها، فحسب، وإنما تدل أيضًا على قدرته الفائقة على ضبط النفس والثقة المفرطة بذاته. فقد كان أمير الجيش يوم نَهَر بعض جنوده ليقوموا إلى أعمالهم ويتركوا الطعام، فردَّ عليه أحدهم بقوله: مهلًا فإنما نحن لحم وعظم. فقال له عمرو بن العاص «بل أنت كلب» فقال الجندي: فأنت أمير الكلاب! فضحك ومضى عنهم. وكان قد انفعل يومًا حين سبَّه المغيرةُ بن شعبة، فشتم قبيلته قائلًا: «يا آل هصيص، أَيَسُبُّني ابن شعبة» فقال له ابنه عبد الله معترضًا: إنا لله، دعوتَ بدعوى القبائل، وقد نهى النبيُّ عن ذلك.. فاعتذر عمرو، وكفَّر عن ذنبه بأن أعتق ثلاثين عبدًا.

ومعروفٌ عن عمرو بن العاص، أنه ساعد معاوية بن أبي سفيان في نزاعه مع الإمام عليّ بن أبي طالب، وحارب في صفِّه وجعل له الأمر بالخدعة الشهيرة (التحكيم) لكنه حين دخل على «معاوية» المجلس، فوجده يحكي من الوقائع ما يرفع به من شأنه ويحطُّ

من شأن الإمام عليٍّ، صاح فيه عمرو بن العاص: «يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك، أترانا خالفنا عليًّا لفضلٍ منَّا عليه، لا والله، إنما هي الدنيا نتكالب عليها، فإما أن تقطع لي من دنياك، أو أُنابذنَّك».. فأعطاه مصر.

ومع أن «عمرو» هو القائل حين انتقدوه، لأنه يركب بغلةً كبيرة السن وبائسة، وهو الأمير: «لا أملُّ دابتي ما حملتني، ولا أملُّ زوجتي ما أحسنتْ عشرتي، ولا أملُّ ثوبي ما وسعني، فإن الملل من سيئ الأخلاق».. فإن «عمرو» ذاته، هو القائل حين اجتمعت بنو أمية عند كبيرهم «معاوية» ليعاتبوه على تفضيل عمرو بن العاص عليهم، وهم أقرباؤه، فلما أكثروا من هذا الكلام وعمرو بن العاص حاضر، صاح فيهم: «أما والله، ما أنا بالواني ولا الفاني، وإنما أنا الحية الصماء التي لا يسلم سليمُها ولا ينام كليمُها، وأنا الذي إذا همزتُ كسرتُ، وإذا كويتُ أنضجتُ، فمن شاء فليشاورْ ومَنْ شاء فليؤامرْ، وقد علمتم أنني أحسن بلاءً وأعظم غناءً».

إذن، نحن بإزاء شخصية متعدِّدة الأنحاء، ومحيِّرة، لكن فضلها ثابتٌ بوقائع التاريخ وبصحيح الشهادات النبوية في حق عمرو بن العاص. فمن الوقائع الثابتة أنه قاد جيش المسلمين في حياة النبي، عقب إسلامه وكان تحت إمرته كبار الصحابة والشيخان أبو بكر وعمر. وقاد الجيوش التي فتحت بلاد الشام وشمال الجزيرة وفلسطين، فأظهر من الشجاعة والحكمة والمهارة ما يثير الإعجاب. وحين صال القائد العسكري البيزنطي (الرومي) المسمَّى أرطيون (تكتبه بعض المصادر العربية: أرطبون) وأعجز جيش المسلمين، شكا الناسُ أمرَه إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فقال: نضرب أرطيون الروم بأرطيون العرب.. واستدعى له «عمرو بن العاص» وأرسله إليه على رأس جيش، فحاربه «عمرو» حتى أعياه، وهزمه، فاضطر أرطيون إلى الفرار بحفنة من جنوده إلى مصر.

ومن الشهادات النبوية في حق عمرو بن العاص، الحديث الشريف: ابنا العاص مؤمنان، عمرو وهشام (رواه الإمام أحمد والحاكم وابن سعد وابن عساكر) والحديث: أبو عبد الله عمرو بن العاص من صالحي قريش، نِعْمَ أهل البيت أبو عبد الله وأم عبد الله

وعبد الله (أخرجه أحمد والترمذي) والحديث: أسلم الناسُ وآمن عمرو بن العاص (قال الذهبي: حديثٌ حَسَنُ الإسناد).

وفيما يتعلق بفتح مصر، هناك حكاية ذات طابع (مسرحي) ترويها المصادر التاريخية الإسلامية، مفادها أن «عمرو بن العاص» ألح على الخليفة «عمر بن الخطاب» في فتح مصر، فوافقه الخليفة متردِّدًا ثم قال له إنه سيرسل له برسالة يحسم فيها أمر الموافقة، فإن وصلته قبل دخول مصر فليرجع عنها، وإن وصلته بعد دخوله فلا يرجع. فلما جاء المرسل بالرسالة من الخليفة، تأخر «عمرو» عن مقابلته ومعرفة ما بعث به عُمر بن الخطاب حتى وصل إلى العريش. فلما وجد الرسالة تقول له لا تدخلْ مصر، إنْ لم تكن قد دخلتها فعلًا. سأل «عمرو» الذين حوله: هل نحن الآن في مصر؟ فقالوا نعم، فقال: إذن نمضي على بركة الله..

وبطبيعة الحال، ما كانت الأمور تسير على هذا النحو المسرحي. وما كان للخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص في الخروج بالجيش في الليلة ذاتها، على أساس (سنكون على اتصال) مثلما يفعل معاصرونا اليوم. وما كان المسلمون بغافلين عن خطورة فتح الشام والعراق، مع بقاء مصر بيدِ هرقل. وما كان من الممكن للمسلمين التغافل عن لجوء «أرطيون» وفلول جيشه إلى مصر، واستعدادهم للكرِّ ثانيةً إذا سنحت لهم الفرصة لجمع الشتات والاستعانة بعشرات الآلاف من المقاتلين البيزنطيين (الروم) الذين كانوا يتحصَّنون بمصر. وما كان لقواد المسلمين أن يتجاهلوا الوضع المزري لهرقل وجيوشه، واضطراب الأحوال في مصر بسبب صراع الكنائس هناك، والقوة العربية الهائلة الساكنة في مصر.. ولذلك كله، كان خروج عمرو بن العاص بالجيش إلى مصر ضرورةً حتمية، تعلو عنْ تلك الحكايات ذات الطابع المسرحيِّ (الهزليّ) التي يرويها بعض المؤرخين.

وهناك روايةٌ شهيرةٌ أكثر من السابقة مسرحيةً، وهزليةً، تقول إن عمرو بن العاص في شبابه، كان قد أنقذ بفلسطين راهبًا سكندريًّا كاد يهلك جوعًا، فأعطاه عمرو طعامًا وشرابًا، ثم كاد الراهبُ يهلك من لدغة ثعبان، فقتله عمرو بن العاص بسهم. فأخذه

الراهب إلى الإسكندرية ليعطيه جائزة مالية مكافأةً على إنقاذ حياته، مرتين، وفي الإسكندرية حضر «عمرو» احتفالًا في الملعب (الاستاد) يرمون فيه كرةً على الناس، فمن وقعت في حجره يكون بعد حينٍ ملكًا لمصر! فوقعت الكرةُ في حِجر «عمرو بن العاص» فاستهان الناس بالأمر، لكنهم بعد سنوات وجدوا النبوءة قد تحقَّقت وصار الرجل العربي المجهول بالنسبة إليهم حاكمًا لهم ولمصر.

وبالطبع، فهذه الرواية الهزلية تصل من السذاجة إلى الحدِّ الذي لا يجوز معه مناقشتها. خصوصًا أنه لم يكن من المعروف أن مثل هذه (اللعبة) موجودة آنذاك، وليس معروفًا عن الرهبان ارتياد الملاعب، ولم يكن للعرب من أمثال «عمرو» هذه السطحية التي تدعوه للسفر شهورًا، وترك تجارته، كي يأخذ جائزةً مالية من راهب. ومتى كان الرهبان يملكون أموالًا أصلًا؟.. فلنترك مثل هذه القصص البلهاء جانبًا، وننظر بشيء من الجدية إلى دخول عمرو بن العاص إلى مصر، على رأس جيشٍ خرج من الشام عدَّته ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، وقيل بل أربعة آلاف، كلُّهم من قبيلة «عك» اليمنية. ولنجعل الأمر، حسبما أراه، ملخَّصًا في النقاط التالية:

أولًا: كان المسلمون قد عقدوا اتفاقًا قبل سنوات مع المقوقس، أبرمه «حاطب بن أبي بلتعة» في خلافة أبي بكر الصديق، فلما لجأ «أرطيون» إلى مصر وفيها من جند الروم عشرات الآلاف، صار (العهد) السابق قد انتُقض من جهة المقوقس باستقباله أرطيون، أو بعدم قدرته على طرده من البلاد. فلما صار الأمر كذلك، كان لا بد للعرب المسلمين من تعقُّب أرطيون، خشية أن يرتدَّ عليهم وقد ازداد قوةً. لا سيما أن الأسطول البيزنطي كان يرابض بشواطئ الإسكندرية، وكان من الوارد أن يعود فيضرب سواحل الشام التي لم تكن آنذاك، قد استقرت تمامًا بأيدي المسلمين.

ثانيًا: نقل لنا المقريزي، وهو من المؤرِّخين الكبار المتأخرين (تُوفي سنة ٨٤٥ هجرية) أن الخليفة عمر بن الخطاب، كتب إلى «عمرو» رسالةً بعد فتح الشام، يقول له فيها: «اندبْ الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خفَّ معك، فِسرْ به»، وبعث الخليفة بالرسالة مع (شريك بن عبدة) فندبهم عمرو، فأسرعوا إلى الخروج معه.

إذن كان العربُ الساكنون قبل عقودٍ بمصر ينضمون لجيش «عمرو» تباعًا، خاصةً قبائل لخم وراشدة والأنباط وسكان سيناء من البدو، فيتزايد عددُ العرب مع سير الجيش. وهو ما يفسر كيف انتصر العرب المسلمون على الروم في أول موقعة عسكرية (الفرما، بيلوز، البرمون) بل يأسرون منهم ثلاثة آلاف جندي، يرسلهم عمرو بن العاص كأَسْرَى «مقيَّدين بالسلاسل» إلى المدينة المنوَّرة (يثرب) فيردُّهم الخليفة «لعهدٍ كان قد سبق لهم» هو العهد المبرم بين حاطب بن أبي بلتعة والمقوقس. لأنه لم يكن لجند الروم المتحصِّنين في الفرما، وهي بلدة قريبة من بورسعيد الحالية، ذنبٌ في انتقاض العهد. ومن جهةٍ أخرى، يمكن أن نفهم في ضوء ما سبق، قول المؤرخ المبكر «ابن عبد الحكم» أن عمرو بن العاص خرج بالجيش إلى مصر: «فنقض الصلح وفتحها».

ثالثًا: لا يجب أن يغيب عن أذهاننا، خيانة المقوقس لهرقل بعد (العهد) الذي أبرمه سرًّا مع المسلمين، ولم تُشِرْ إليه الوثائق أو المدوَّنات التاريخية البيزنطية، وهو ما يفسِّر أشياء كثيرة جرت في ابتداء الأمر.. منها أن جيش «عمرو» وجد حدود مصر (العريش) خاليةً من جند الروم. وهو ما لا يتفق مع حالة الاستنفار العسكري، المفترضة في بلدٍ يخضع للإمبراطورية البيزنطية التي تحارب المسلمين في الشام.. ومنها المفاوضات الهزلية التي قام بها المقوقس مع المسلمين أثناء حصار القصر (حصن بابليون) الذي يسمِّيه بعض مؤرِّخينا القدامى «باب إليون» ثم المفاوضات التالية التي قام بها المقوقس مع عمرو، أيام فتح الإسكندرية، بعد وفاة هرقل حسيرًا آسفًا على تداعِي أركان إمبراطوريته. فكان من مطالب المقوقس التي وافق عليها (عمرو) أن يبقى المقوقس في الإسكندرية، وأن يُدفن بعد وفاته في كنيسة يوحنا، التي تسمِّيها المصادر العربية المبكرة «كنيسة أبي يُحنَّس».. فقد كان المقوقس قبل سنوات يسعى إلى امتلاك الحكم الدنيوي، فصار بعد حينٍ يفكر في ختام حياته وفي القبر الذي يستر جسده ومخازيه.

رابعًا: كان عمرو بن العاص يسير بجيشه في حواف الدلتا، وفي الجانب الشرقي من مصر، على هدى الأدلاء من العرب العارفين بتلك النواحي. فلما عبر النيل في موسم

التحاريق» حيث ينكشف قاع النهر في الشتاء بسبب انحسار الفيضان، سار عمرو بجيشه على غير هدى، عبر إلى الضفة الغربية من النيل حتى وصل الفيوم في رحلةٍ ليس تحتها طائل، فوجد هناك قتالًا يدور بين الروم أنفسهم[1]، فعاد بعد حين وحاصر حصن بابليون أو القصر. فلما اجتمع مع عمرو أثناء الحصار أفرادٌ وأشتاتُ العرب (المصريون) وجاءه من الخليفة «عُمر» مددٌ قوامه أربعة آلاف جندي مسلم من خيرة المقاتلين، فيهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد. استطاع عمرو الاستيلاء على الحصن، واتجه إلى الإسكندرية عاصمة البلاد التي لا يستقيم (الفتح) إلا بدخولها، فوقف عند أسوارها الشرقية حتى تداعى قلب المدينة واضطربت أحوال الناس فيها، فدخلها، ثم ثارت الإسكندريةُ على المسلمين بعد حين. حين أتاها المددُ من بيزنطة، فعاد إليها «عمرو بن العاص» بتكليف من الخليفة عثمان بن عفَّان (بعد وفاة عمر بن الخطاب) وفتحها ثانيةً، وهرب الرومُ من أمامه بسفنهم.

خامسًا: كان مجيء «عمرو» بن العاص بجيشه إلى مصر، إنما هو في واقع الأمر لاستلام حكم البلاد، وليس للفتح أو الغزو أو الحرب التي من غير المعقول أن ينهزم فيها عشرات الآلاف من جند الروم المتحصِّنين في القلاع (عددهم ما بين أربعين ألفًا ومائة ألف) أمام جيش المسلمين الذي كانت خسائره جميعها، حسبما أشار المؤرِّخون المبكرون «اثنين وعشرين رجلًا» ليس فيهم واحدٌ من مشاهير المسلمين، أو قادة جيشهم.

ما بعد عمرو: ابنُ أبي سَرْح

يعرف معظم الناس أن أبا سفيان بن حرب بن أمية، أجاب يومَ فتح مكة عن سؤال النبي للمشركين: ماذا تظنون أني فاعلٌ بكم؟ بقوله: أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم. فتسامح النبيُّ مع مُشركي قريش يومَها، وقال: مَنْ دخل البيت (الكعبة) فهو آمن، ومَنْ دخل بيته

(١) كان القتال هناك يدور بين حزب الخضر وحزب الزرق، وهما حزبان في الأصل من مشجعي الألعاب الرياضية (الألتراس) ثم صار لهما حضور سياسي كبير، ومعارك فيما بينهما.

(أي التزم بحظر التجوُّل) فهو آمن، ومَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وقد لا ينتبه كثيرٌ من الناس إلى أن أبا سفيان آنذاك كان لا يزال مشركًا، ولا تزال زوجته هي السيدة «هند بنت عُتبة» التي فتكت بالحمزة (عمِّ النبي) وأكلت من كبده ثأرًا وانتقامًا. ولكنَّ أبا سفيان أيضًا، هو حمو النبي (أبو زوجته) وهو أبو «معاوية» الذي يُقال إنه كتب في طفولته شيئًا من الوحي القرآني، وسوف يصير بعد حينٍ أول ملوك الإسلام (السلاطين، الخلفاء) ومؤسس الدولة الأموية التي حكمت العالم الإسلامي الممتد قرابة قرنٍ من الزمان، حتى أزاحها عن الحكم العباسيون.

ويعرف قليلٌ من الناس أن النبي، على الرغم من تسامحه مع أهل قريش وغفرانه لهم يومَ فتح مكة، دعا في ذلك اليوم إلى قتل أربعة رجالٍ وامرأتين، حتى لو تعلَّق أحدهم بأستار الكعبة[1]. فكانت إحدى المرأتين هي «أمُّ سارة» التي تجسَّست على المسلمين قبيل الفتح، وكادت تنقل إلى أهل مكة تحذير «حاطب بن أبي بلتعة» للمشركين بأن النبيَّ قادمٌ إليهم على رأس جيش. وكان أحد الرجال الأربعة المطلوب قتلهم، لأسباب مختلفة، هو الرجل الذي سيرتبط اسمه بعد حينٍ بفتح مصر «عبد الله بن أبي سَرْح».. فلماذا توعَّده النبيُّ ودعا إلى قتله يوم الفتح، وما الذي جرى معه من بعد الوعيد؟

كان «عبد الله» هذا من فقراء قريش، وقد أسلم في وقتٍ مبكر (ولا نعلم ماذا كان اسمه قبل الإسلام) وهاجر مع النبي من مكة إلى المدينة. ولأنه كان يجيد الكتابة والقراءة، فقد اختاره النبيُّ ضمن الذين كانوا يكتبون عنه الوحيَ القرآني. وظل الرجل على تلك الحال زمنًا، حتى فوجئ الجميع يومًا بهروبه من يثرب (المدينة المنورة) إلى مكة (أمِّ القرى) وهناك قال للمشركين إنه كان يكتب «غير» ما يمليه عليه النبيّ، فإذا أملى عليه مثلًا «سميعٌ عليم» كتبها «عليمٌ حكيم» ثم يعرض المكتوب على النبيِّ فيُقرُّه، فافتتن الرجل وقال: «ما يدري محمدٌ ما يقول، وإني لأكتبُ له ما شئت، والذي كتبته يُوحى إليَّ مثلما يُوحى إلى محمد».. وهكذا ارتدَّ «عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح» عن الإسلام، وهرب من المدينة إلى مكة. وقد روت المصادر التاريخية الإسلامية، المبكرة

(١) وقد تعلَّق واحدٌ منهم، فعلًا، بأستار الكعبة آملًا في النجاة من الموت.. فقتله المسلمون.

والمتأخرة، الواقعةَ السابقة مسبوقةً بالرواة الثقات الذين تناقلوها، وزادت بعضُ هذه المصادر أن النبيَّ كان يُملي على «ابن أبي سَرْح» قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ... ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ فقال وقد بهرته الآيات ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فقال له النبي ﷺ: أُكتبْها فإنها نزلت هكذا. لكن بعض المصادر الأخرى ألحقت هذه الحكاية بواحدٍ من كَتَبَة الوحي، غير عبد الله بن أبي سرح.

وبحسب الثابت من أقوال المؤرِّخين، فإن «ابن أبي سرح» كاد بما فعله أن يُحدث فتنةً عظيمةً بين الناس، مما دعا النبيَّ إلى إهدار دمه يوم فتح مكة، عقابًا له على ما اقترفه في حقِّ الإسلام والمسلمين. لكنه لم يُقتل، لأنه اختبأ في بيت الصحابي الجليل (والخليفة من بعدُ) عثمان بن عفان، الذي كان أخاه في الرضاعة. وتوسَّط عثمان (ذو النورين) وأخذ «المرتدَّ» إلى مجلس النبي، وألحَّ عليه في قبول توبة عبد الله بن أبي سَرْح، حتى وافق النبيُّ على مَضَضٍ، ثم قال بعدما بايعه: أما كان لهذا الكلب مَنْ يقتله؟ فقال رجلٌ من الأنصار ما معناه: يا رسول الله كنتُ أنظر إليك وعثمان يحاورك، عساك تومئ (تغمز) لي فأقوم وأقتله.. فقال النبي: ما كان لنبيٍّ أن يومئ، وليس في الإسلام إيماءٌ ولا فتك.

وقد تناقل المؤرِّخون أن «ابن أبي سَرْح» كان يفرُّ من النبي كلما رآه، حتى توسَّط عثمانُ ثانيةً وتحدَّث إلى النبي قائلًا: يا رسول الله بأبي أنت وأمِّي، هذا ابن أمِّ عبد الله يفرُّ منك كلَّما رآك. فتبسَّم رسول الله وقال: أولم أُبايعْه وأُؤمنه؟ فقال عثمان: بلى، ولكنه يتذكر عظيم جُرْمه. فقال النبي: الإسلام يجُبُّ ما كان قبله.. (وهي العبارة التي كان النبي قد قالها من قبل لعمرو بن العاص، يوم جاء ليعلن إسلامه ويبايع النبي، مشترطًا أن يُغفر له ما تقدم من ذنبه).

وبعد وساطة «عثمان» الثانية، صار عبد الله بن أبي سَرْح، يجالس النبيَّ ويسلِّم عليه مع بقية المسلمين، وبعد وفاة النبي اشترك الرجل في الفتوحات وأبلى بلاءً حسنًا، وكان في صُحبة عمرو بن العاص حين دخل مصر بجيشه غازيًا، بل كان قائد الميمنة (الجناح الأيمن من الجيش) حتى إذا تمَّ الفتحُ واستقر الأمرُ بيدِ المسلمين، جعله الخليفة عمر بن الخطاب أميرًا على الصعيد، وترك لابن العاص إمارة بقية البلاد.

وسار ابن أبي سرح في زمن ولايته على مصر، على غير ما كان عمرو بن العاص يسير عليه. فقد كان عمرو يترفّق بالمصريين في جمع الجزية (ضريبة الدفاع عن البلاد) ولم يفرض على الناس قدرًا معلومًا من المال، وإنما أجاب ذلك القسَّ الذي سأله عن مقدار المال الواجب سداده سنويًا للمسلمين، بقوله: لو جئتَ لي بملء هذه الكنيسة ذهبًا ما أخذتُه منك، فإنما أنتم خزانة لنا، إن وسَّع اللهُ علينا وسَّعنا عليكم وإن ضيَّق ضيَّقنا (بعبارة معاصرة: نحن في خندق واحد!).. وكان الخليفة عمر بن الخطاب، يشتد في الخطاب مع عمرو بن العاص ليحصِّل من جزية مصر ما كان يحصِّله الروم. وقد كتب إليه ذات مرة رسالة فيها: «من عمر بن الخطاب إلى العاص بن العاص، أراك تحصِّل من مصر أقلَّ مما كان يحصِّله الروم، ومن قبلهم الفراعين على كفرهم وعُتوِّهم.. إلخ» فردَّ عليه برسالةٍ جاء فيها: «من عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، لولا مكانتك في المسلمين لرددت عليك بما يناسب كلامك، وهؤلاء الفراعين كانوا على كُفرهم وعتوِّهم يُصلحون الأرض ويعتنون بالبلاد، فيكثر خراجها.. إلخ». وكان عمرو يريد أن يسكن مدينة الإسكندرية لكن الخليفة عمر رفض ذلك، ورفض أن يقتسم الفاتحون بلاد مصر ويجعلوها غنيمةً لهم، لأن لأهلها عهدًا وذمة من قبل الفتح. ومعروف أن الخليفة «عُمر بن الخطاب» هو الذي عنَّف «عمرو بن العاص» حين اشتكى منه واحدٌ من المصريين، وانتهره قائلًا: متى استعبدتم الناس وقد خلقتهم أمهاتهم أحرارًا.

وتوفي الخليفة «عمر» بعدما اغتاله أحدُ المجوس (اسمه أبو لؤلؤة) فتولَّى من بعده عثمان بن عفان، وعزل عمرو بن العاص عن إمارة مصر وجعل مكانه أخاه في الرضاعة «عبد الله بن أبي سَرْح» فانصاع عمرو بن العاص ونفَّذ أوامر الخليفة بالعزل، من دون أن يفكر في الثورة عليه أو الاستقلال بحكم البلاد، مثلما كانت عادة قوَّاد الروم (البيزنطيين) لمئات السنين. وعاد عمرو إلى المدينة، وظل هناك ساكنًا خاملَ الذِّكْر إلى حين.

ومع أن الخليفة عثمان كان قد أوصى «ابن أبي سَرْح» بالترفُّق في جباية الضرائب من مصر، إلا أن الوالي الجديد أراد أن يثبت أنه أفضل من سابقه «عمرو» في حكم البلاد فأرهق الناس بضرائب كثيرة، فثارت الإسكندريةُ على الحكم الإسلامي. خصوصًا

بعدما جاءها القائد البيزنطي منويل «إيمانويل» بأسطول كبير، فانتزع عاصمة البلاد من يد المسلمين، ونهب القرى المصرية.. ومن هنا احتاج الخليفة «عثمان» إلى عمرو بن العاص، فأرسله إلى مصر على رأس جيشٍ استطاع أن يطرد عنها الروم، ويعيد البلاد لحكمها الإسلامي.

وبينما كان «عمرو» يحتفل بانتصاره وينتظر المكافأة، جاء إليه أهل القرى المصرية المنهوبة على يد البيزنطيين، واشتكوا ما حلَّ بهم عندما عجز المسلمون عن الدفاع عن البلاد والوقوف أمام حملة الروم الأخيرة، فتفهَّم عمرو بن العاص شكواهم وعوَّضهم عن خسائرهم. يقول القسُّ الإنجليزي د. ألفريد بتلر في كتابه عن فتح مصر، ما ترجمته: قالوا لعمرو بن العاص إنهم كانوا موالين للعرب، وكان لا بُدَّ من حمايتهم وقد أصابهم ما أصابهم حين قصَّر المسلمون في صَدِّ الروم. وكانوا على حقٍّ في شكواهم هذه، ولكن قلَّما ترى بين القوَّاد المظفَّرين مَنْ يعبأ بمثل تلك الشكوى، لكنَّ عمرًا أمر بتعويض القبط لما فقدوه، فكان هذا إقرارًا صريحًا من عمرو بما عليه من فرضٍ واجب، فألزم نفسه في صراحةٍ بأن يعوِّضهم عما لحق بهم. وهو الأمر الذي يدل على ما كان عليه عمرو من حُسن الرأي في الحكم، وما كان متصفًا به من نبيل الصفات[1].

ويبدو أن طريقة عمرو بن العاص في حكم البلاد، لم تعجب الخليفة عثمان بن عفان. ولهذا السبب، أو لأسبابٍ أخرى غير معلنة، وصل إلى مصر قرار الخليفة عثمان بأن يتولَّى «ابن أبي سَرْح» إمارة الخراج وجباية الأموال، ويتولَّى «ابن العاص» إمارة الحرب والقتال. وهو الأمر الذي رفضه عمرو بن العاص، وقال: «إذن، فأنا كماسك قرنيْ البقرة، وآخرُ يحلبها» فعزله الخليفة مرةً ثانية، واستدعاه إلى المدينة (يثرب) فظل هناك لعدة سنوات: ساكنًا، خاملًا، مكتئبًا.

وعاد «ابن أبي سَرْح» إلى الاشتداد في جمع الضرائب، وأرسل إلى المدينة مالًا أكثر بكثير مما كان يرسله عمرو بن العاص، فلما وصل المال إلى الخليفة «عثمان» استدعى عمرو بن العاص وقال له أمام الحاضرين، ليغيظه: «لقد درَّت اللقاح (أي زاد الحليب)

---

(١) ألفريد بتلر: فتح العرب لمصر.

من بعدك يا عمرو».. فردَّ عليه عمرو من فوره: لأنكم أعجفتم أولادها، فهزلت (أي سلبتم منها لبن الرضاعة).

والمؤرِّخون مختلفون في شخصية عبد الله بن أبي سَرْح، فبعضهم يصفه بأنه «من أعقل القرشيين وأشرفهم» وبعضهم الآخر، كالطبري، يقول: «لم يكن في وكلاء عثمان، أسوأ من عبد الله بن أبي سَرْح والي مصر».. ومعروف تاريخيًّا، أن هذا «السوء» المشار إليه، كان هو السبب المباشر لمقتل عثمان بن عفان، على أيدي المصريين (أي العرب المسلمين الذين كانوا يعيشون بمصر).

وقد ظلَّ عبد الله بن أبي سَرْح حاكمًا لمصر، حتى قُتل الخليفة عثمان سنة ٣٥ هجرية، وكانت ولايته على البلاد قد ابتدأت سنة ٢٧ هجرية، فكانت هذه السنوات حافلة بالوقائع الدالة على صعوبة رسم صورة محدَّدة لابن أبي سَرْح. فهو من جهة، الفاتح الذي أدخل الإسلام إلى إفريقية (تونس) وهزم أسقفها العسكري «جورجيوس» ويقال بل قتله، وغَنِم من هناك غنائم كثيرة. وهو الذي هادن أهل النوبة وصالحهم على العهد الذي سُمِّي لاحقًا: اتفاقية البقط[1]. وهو الذي هزم في موقعة «ذات الصواري» سنة ٣٤ هجرية الأسطولَ البيزنطي الذي كان قد ظل لمئات السنين مسيطرًا على مياه البحر المتوسط، ويقال إن تعداده في الموقعة بلغ ألف سفينة حربية بينما كان العرب المسلمون قبل هذه الموقعة البحرية بسنوات قليلة، يخشون ركوب البحر.. ومع أن «معاوية» أعان الجيش المصري بسفنٍ أرسلها من الشام فكان لها دورٌ كبيرٌ في المعركة، إلا أن هذا الإنجاز يظل مرتبطًا بعبد الله بن أبي سرح.

ولكن من الجهة المقابلة، هناك مثالب كثيرة لحقت بسيرة الرجل أثناء ولايته على مصر. فالمعروف أن «ابن أبي سَرْح» كان يجهد البلاد في جمع الضرائب، ويغدق على نفسه، حتى أنه بنى دارًا فخمة في «الفسطاط» فقال له المقداد بن الأسود: إن كانت هذه الدار من مالك فقد أسرفتَ، والله لا يحب المسرفين، وإن كانت من مال الله

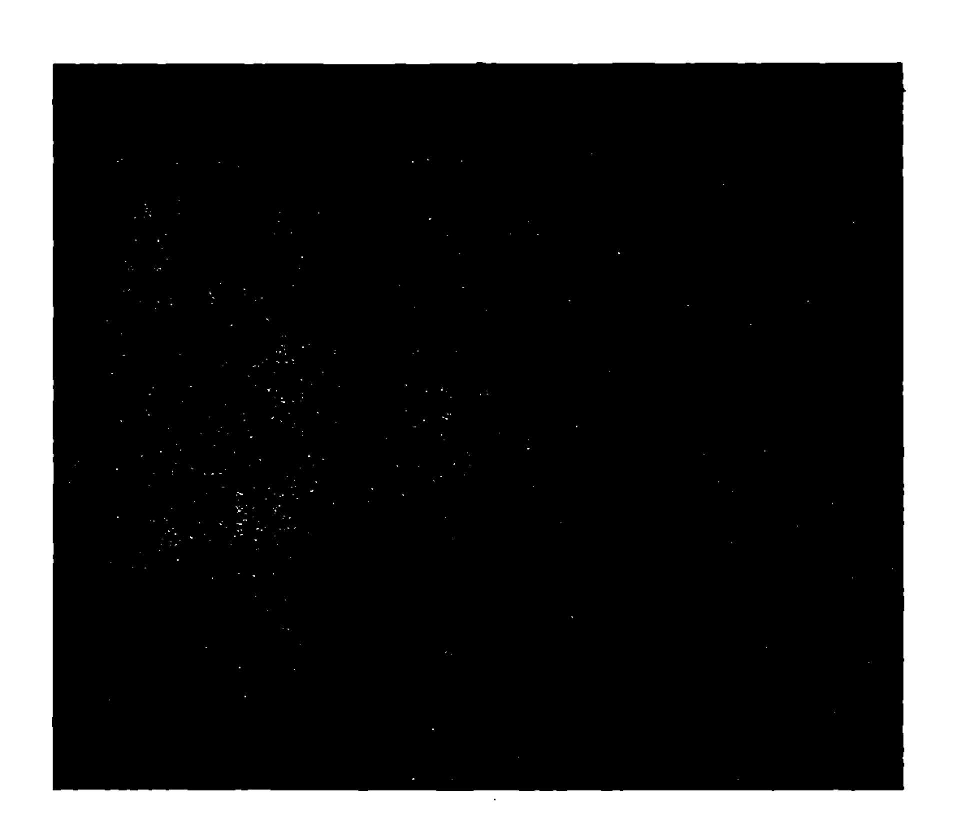
---

(١) هو عهد صلح تم إبرامه سنة ٣١ هجرية، بين عبد الله بن أبي سرح بصفته واليًا لمصر وممثلًا للخليفة عثمان، وملك النوبة المسمى في المصادر العربية «قيلدروث».. وهو صلحٌ بمنزلة هدنة أمان أو اتفاقية عدم اعتداء، وسوف نعود للكلام عنه في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(الخراج) فقد خُنتَ، والله لا يحب الخائنين.. وكانت بمصر فتاة جميلة اسمها «بُسيسة بنت حمزة بن ليشرح» وكانت مخطوبة لشاب من المسلمين، وبين المخطوبَيْن حبٌّ عميق، فلما رأى «ابن أبي سَرْح» الفتاة أعجبته وطلب من خطيبها أن يتركها له (مع أن الحديث الشريف يقول للمسلمين: لا يخطبنَّ أحدُكم على خِطبة أخيه) فتركها حبيبُها مضطرًّا، وتزوَّجها ابنُ أبي سرح. فلما كان قتال المسلمين والروم في «ذات الصواري» وحمى وطيسُ المعركة البحرية بعد التحام السفن، وقع الأمير عبد الله بن أبي سَرْح بين سفينتين، والتفَّت حوله الحبال والسلاسل فكاد يهلك. لولا أن الفتى المحروم من حبيبته «بُسيسة» اقتحم الموضع الذي عَلِق فيه ابن أبي سَرْح، وراح بسيفه يذود عنه ويقطع الحبال والسلاسل، حتى أنقذه من الموت.. وبقيت «بُسيسة» في بيت الأمير حتى عُزل، واعتزل بأرض فلسطين.. ومات هناك، فعادت إلى خاطبها الأول. وتزوَّج الحبيبان، بعدما ضيَّع الزمانُ من عمرهما سنوات الشباب.

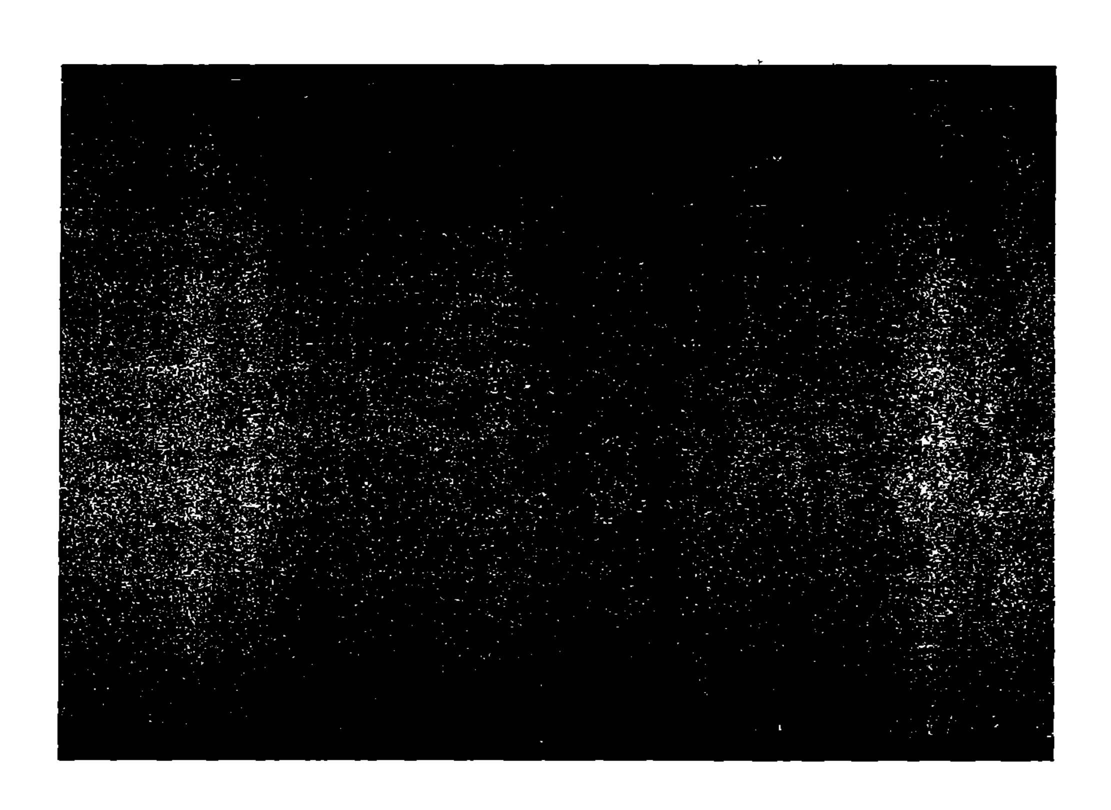
وحسبما ذكرنا سابقًا، فقد انحاز عمرو بن العاص إلى «معاوية بن أبي سفيان» وساعده في صراعه على الخلافة مع الإمام «عليّ بن أبي طالب» حتى استقام الأمر لمعاوية واستقر على العرش، وصار مشغولًا بمسألة (التوريث) وأَخْذِ البيعة لابنه الفاجر، الشاعر «يزيد» وهو الأمر الذي لم يعترض عليه عمرو بن العاص، فكانت مكافأته أنه عاد ليحكم مصر، ويظل أميرًا لها حتى وفاته ودَفْنه بجبل المقطم.

أما أهل مصر، فقد صاروا مع مرور الأيام يدخلون في الإسلام رويدًا، مثلما دخلوا في المسيحية من قبلُ رويدًا. ومثلما تخلَّى المصريون (على اختلاف طوائفهم) عن الديانات القديمة التي اعتنقوها قرونًا من الزمان، لصالح الديانة المسيحية التي وفدت إليهم من شمال الجزيرة العربية (فلسطين) وهو الأمر الذي استغرق ما يقرب من ثلاثمائة عام؛ تخلَّى معظم المصريين عن المسيحية لصالح الديانة الإسلامية التي وفدت إليهم من قلب الجزيرة (مكة) وهو الأمر الذي استغرق أيضًا قرابة الثلاثمائة عام.. فمع القرن الرابع الميلادي كان معظم أهل مصر مسيحيين وكانت اليونانية هي لغة الديانة، ومع القرن الرابع الهجري صار معظم أهل مصر مسلمين وصارت العربية هي لغة الدين والدنيا بالبلاد.



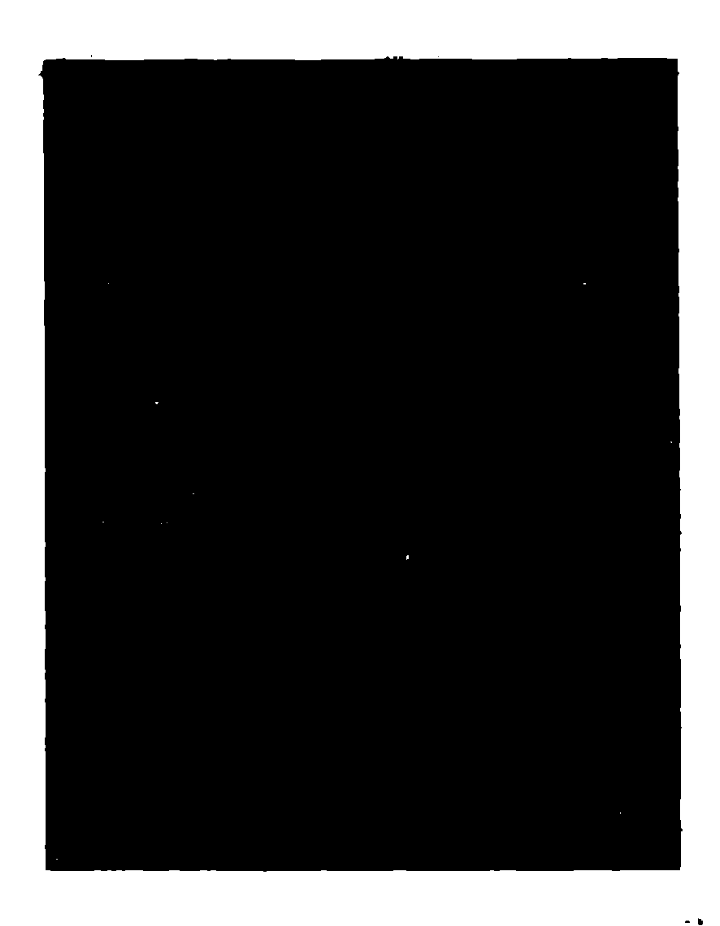
بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوكم بدعاية الإسلام أسلمْ تَسلمْ يؤتك الله أجرَك مرتين، فإن تولّيت فعليك إثم القبط، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).



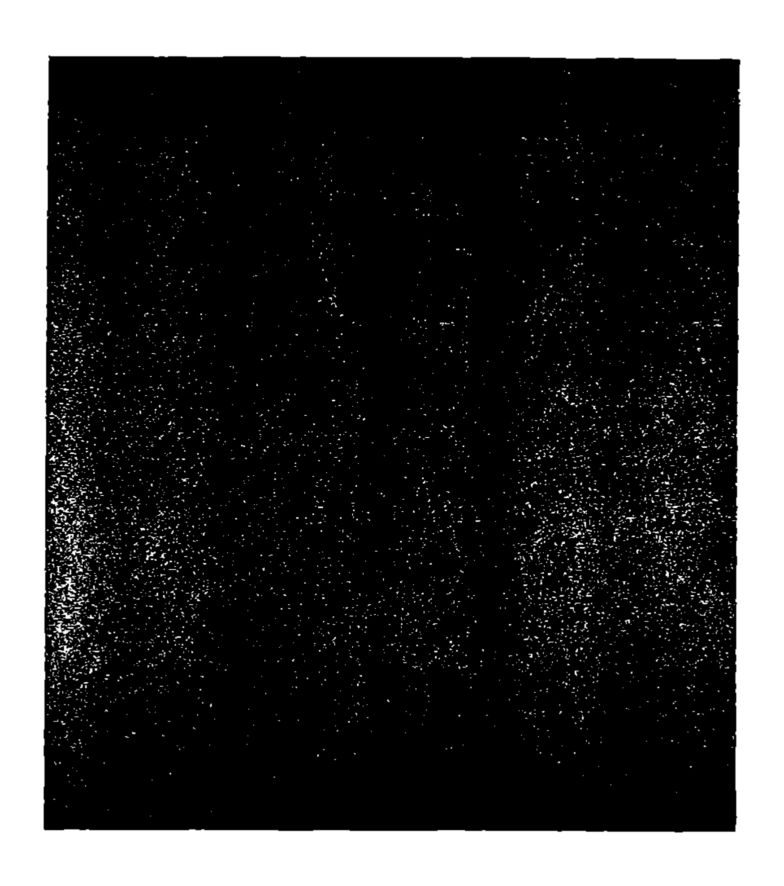
بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلِمْ تَسلَمْ يؤتِك الله أجرَك مرتين، فإن تولَّيت فعليك إثم الأرس (الأريسيِّين) و(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون).



بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى كِسرى عظيم فارس: سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، أسلِمْ تسلمْ، فإن أبيتَ فإنما عليك إثم المجوس.



بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة: سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزَّ وجلَّ، وقد بلَّغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى.



الفصل الثالث

بُهتانُ البُهتان فيما توهَّمه المطرانُ

عن أزمة رواية «عزازيل»



زمن المحبة

لم أكن أتوقع من صديقي الأمبا بيشوي (مطران دمياط وكفر الشيخ وبراري بلقاس، رئيس دير الست دميانة للراهبات القبطيات، سكرتير المجمع المقدس لكنيسة الأقباط الأرثوذكس، مسئول المحاكمات الكنسية) أن يبالغ في ثورته، وحملته الشعواء ضد روايتي «عزازيل» التي بلغ غضبه منها مداه، فوصفها بأنها «أبشع كتاب عرفته المسيحية». ومع أن «المطران» عبَّر عن رأيه السلبي في الرواية بين المحيطين به، ثم أصدر ما يُسَمَّى: البيان الرسمي الصادر عن الموقع الرسمي للأنبا بيشوي (تنبيه، الأنبا كتابةٌ خاطئة للكلمة والصواب: الأمبا) ثم وزَّع بيانه الرسمي هذا، الحافل بالتوهمات، على جميع الجرائد والمجلات ونشرته. ثم توعَّد بإصدار كتاب ضد الرواية، وأصدره، ثم تفرغ للإدلاء بالأحاديث الصحفية ليهاجم الرواية بكل ما فيه من قوة. ثم راح مؤخرًا، يكتب المقالات الصحفية اللاهبة ضدي، بل بلغ به الأمرُ أن صار يُطلق النداءات لعلماء المسلمين، ولأهل القبلة التي ينكرها حتمًا، كي يتنبهوا للمؤامرة (الجهنمية) التي يتوهَّمها بسبب قراءته الخاطئة لروايتي.

ولعامٍ كامل تحاشيتُ الاشتباك مع المطران، ظنًّا مني أنه بعد حينٍ سيهدأ ويهدئ من ثورته غير المفهومة، فيوقف هذه الحملة الشعواء الشنعاء. لكنني رأيت الأيام تزيد من غضبه اشتعالًا وتأجُّجًا، والتزامي بعدم الرد عليه (توقيرًا له) يزيده حنقًا. فوجدت من الواجب أن أناقشه بهدوء في هذه المقالات[1]، ملقيًا الضوء على بدء الحكاية،

(١) نُشرت الساعية في منتصف العام ٢٠٠٩.

لأن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات ولأننا لن ننتهي إلى رؤية واضحة، ما لم ننظر في الكيفية التي ابتدأت بها الأمور؛ وهو ما يعيدني إلى زمنٍ جمعتني فيه المحبة مع نيافة المطران الأمبا (هذه الكلمة قبطيةُ الأصل تحرفت فصارت الأنبا، ومعناها الأب أو المعلم).

في صيف العام ٢٠٠٧ كنتُ كعادتي منهمكا في شئونٍ خاصة وأخرى عامة، أتشاغل بها عن الوقوع في دوامات البكاء على الأطلال، ونعي الواقع المعاصر، آملًا في تحقيق أمر نافع يبقى من بعدنا للأجيال القادمة. وكان من شئوني الخاصة الشاغلة آنذاك، الانتهاء من مراجعة البروفات الأخيرة لرواية عزازيل، التي سعيت من خلالها إلى إحياء لونٍ مطمور من الأدب العربي القديم، رأيت آثاره وشواهده في قصص «حيّ بن يقظان» و«سلامان وأبسال» و«رسالة العشق» لابن سينا، ورسالة «الغربة الغربية» للسهروردي، و«طواسين» الحلاج و«منطق الطير» لفريد الدين العطار.. ومن الناحية العامة، كانت تشغلني شئون وأعمال مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، وهي شئون وأعمال يعرف كُلُّ مَنْ يعرفني، أنها غامرةٌ هادرةٌ لا يتوقف شغلها الشاغل طيلة النهار.

وفي يوم من تلك الأيام المزدحمة، أخبروني أن نيافة الأمبا بيشوي يزور متحف المخطوطات، ويطلب مقابلتي على غير موعد. ومع أنني لم أكن آنذاك أعرفه شخصيًا، لكنني توقيرًا لرتبة المطرانية، أزحتُ شواغلي كلها جانبًا، واستقبلته بمكتبي وامتدَّ بنا اللقاء ثلاث ساعات، ممتعة. وقد دخل المطران مكتبي يحوطه فريقٌ من صحافيي الجريدة التي يُصدرها (نداء الوطن) وعلى رأسهم رئيس تحريرها، فالتقط الصحافيون المصاحبون ما لا حصر له من صورٍ لنا، ثم جلس المطران وهو يقول إنه يعرف أنني مشغولٌ بالتراث المسيحي، قلت له إن ما يشغلني الآن هو نسطور ومشكلته اللاهوتية. ومن هنا انهمكنا في نقاشٍ ممتع استمر لساعتين، عرف المطران خلاله وجهة نظري في نسطور والنسطورية، وعرفتُ منه ما كنتُ أعرفه من موقف (الأقباط) التقليدي، من تلك المشكلات التاريخية التي وقعتْ قبل ألف وخمسمائة عام، وأدَّت إلى حربٍ شعواء بين الكنائس المختلفة، فصارت كل كنيسة منها تتهم الأخريات بالكفر

والهرطقة والضلال المبين. وفي ذاك اللقاء أخبرت المطران بأنني أحرص على إشراك آباء الكنائس المشتغلين بالعلم والمعرفة، في المؤتمرات الدولية التي نعقدها بالمكتبة كل عام لبحث قضايا التراث والمخطوطات، ودعوته للمؤتمر فأعرب عن موافقته المبدئية على المشاركة، وافترقنا بعد اللقاء الأول، وقد ربطت بيننا المحبة برباط وثيق، أو هكذا ظننتُ.

بعد أسابيع من التواصل تلفونيًّا، دعاني المطران إلى إلقاء محاضرة على الراهبات في دير الست دميانة ببراري بلقاس، فاندهشتُ! لم أكن أتصور أن أمرًا مثل ذلك ممكن الحدوث، اتصلت ببعض أصدقائي من آباء الرهبان القاطنين بالأديرة، فقالوا إنهم لم يسمعوا بمثل ذلك من قبل: شخصٌ مسلمٌ يعطي للراهبات محاضرة، هذا عجيب، لكنه يعكس تقديرًا كبيرًا لك. هكذا قالوا، فوافقتُ واخترتُ من الموضوعات ما رأيتُ أنه الأنسب للراهبات، وهو «التصوف الإسلامي» على اعتبار أنني أبحث دومًا عن نقاط الالتقاء والتقارب بين الجماعات، انتصارًا للإنسانية التي تجمعنا. ومعروف أن التصوف كاتجاهٍ روحي في الإسلام، يقترب من الرهبنة التي تُعد أكثر الاتجاهات روحانية في الديانة المسيحية. وقد قصدت في المحاضرة، الإشارة بوضوح إلى توقير صوفية المسلمين للرهبنة والدَّيرية، سواءً في عبارات الصوفية الأوائل، أو أشعار أبي الحسن الشُّشْتري، أو كلام محيي الدين بن عربي عن الأولياء الذين يستقون من المشرب العيسوي.

كان اللقاءُ (والمحاضرة واليوم كلُّه) بديعًا، وقد قدَّمني المطران للراهبات في ابتداء المحاضرة بشكل جميل، ووصفني لهم بأنني «معجزة ربانية» لأنه على حدِّ قوله «لم يقابل من قبل شخصًا مثلي، له هذه القدرة على استدعاء النصوص الكاملة من التراث الإسلامي والمسيحي» وقال كلامًا كثيرًا طيبًا غير ذلك. وفي ذاك اليوم المفعم بالمحبة، طلب مني المطران فحص المخطوطات المحفوظة بالدَّير، ففحصتها وصحَّحت لهم كثيرًا من المعلومات (المتوهَّمة) بشأنها. وقد أرسل لي المطران بعد ذلك ألبوم الصور التي تم التقاطها لنا، مُوقَّعةً منه، ونَشَرَ هو بعضها في عديد من الصحف.

ثم مرت الأيام متسارعة الخطى، حتى جاء وقت انعقاد المؤتمر (مايو ٢٠٠٨) فحضر المطران وشارك بكلمةٍ في اليوم الأخير منه. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن هذا المؤتمر السنوي يشارك فيه كبار الباحثين في العالم، ونخبة ممتازة من الشخصيات الدينية المسيحية من كافة الكنائس: الأرثوذكس السريان (كنيسة أنطاكية)، الأقباط الأرثوذكس (الكنيسة المرقسية) الروم الأرثوذكس، الإنجيليون المصريون (البروتستانت) الكاثوليك. وكان كلام صديقي المطران في المؤتمر غامضًا بعض الشيء، فأردتُ أن أفسح له المجال لمزيدٍ من الإيضاح كي يستفيد الحاضرون من كلامه، فناقشتُه في بعض النقاط وتركتُ له المجال للإفصاح فقال في ردوده كلامًا غريبًا، منه قوله إن الأقباط هم (الموحِّدون) وإن نسطور وأتباع الكنيسة النسطورية مشركون بالله! وقد صخبت بعض الصحف عليه في حينها، فتولّى الرد عليها وصحَّح للناس ما سمعوه منه. وهذه كلها من الأمور التي تنشأ مع الحوار الحقيقي بين أصحاب الرؤى المختلفة، سعيًا للتفاهم والتعايش بين البشر على اختلاف الدين والمذاهب والمعتقدات.

وامتدت جسورُ الحوار مع صديقي المطران، مثلما كانت وما تزال ممتدةً حتى الآن مع غيره من المطارنة والأساقفة والكهنة والرهبان، سواء من الكنيسة المرقسية التي ينتمي إليها أو من الكنائس الأخرى المخالفة لها والمختلفة معها، مثلما تمتد جسور الحوار بيني وبين الإسلاميين التقليديين وغير التقليديين، ومع اليساريين والعلمانيين، ومع العلماء والمتعلمين والجهال والمتعالمين. لأنني أؤمن بأنه ليس من حق أحدٍ مصادرة فكر الآخرين، وليس من الصواب أن يعتقد شخصٌ أن الجميع مخطئون، وهو وحده على صواب.

ومع أنه لم يحدث قَطُّ، أن كتبتُ في حياتي مقالةً عن شخص من المعاصرين (بل ولا صفحةً واحدة) مع أن مجموع صفحاتي المنشورة كتبًا ودراسات ومقالات، يزيد مجموعها على خمسة وعشرين ألف صفحة. إلا أنني كتبتُ هذه المقالة الوحيدة من نوعها، التي نُشرت بجريدة الوفد ضمن سلسلة «كلمات» وكان نشرها يوم الثلاثاء ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٧ بعنوان (بيشوي) ولسوف أُورد فيما يلي نصها، على النحو المنشور به في حينه، من دون أي تعديل. ليرى القارئ عمق تلك المحبة التي جمعت

بيني وبين المطران، الذي سأرد لاحقًا على ردوده، وأصحِّح له ما يعتقده من توهُّمات..
وهذا نصُّ المقالة:

بيشوي

هذه الكلمة غير عربية، وإنما (قبطية) الأصل أي مصرية، إذ إن (مصر) كانت تُعرف قديمًا باسم جبت (قبط) وهو الاسم الذي اشتُقت منه أسماؤها الغربية التي أشهرها (إجبت Egypt) الإنجليزية، ويقترب منها اسمها في سائر اللغات الأوروبية.. وفي اللغة القبطية أو المصرية القديمة، تعني كلمة بيشوي (العالي، السامي) وهي في الأصل صفة أو لقب، ما لبث أن اختاره كثيرٌ من الرهبان المصريين (الأقباط) اسمًا كنسيًّا لهم، بحسب ما جرت عليه تقاليد الرهبنة، من تغيير اسم الشخص عند انتظامه في سِلك الرهبنة والديرية. وأشهر من يحمل هذا الاسم الكنسي اليوم، هو الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ، رئيس دير القديسة دميانة للراهبات، ووكيل المجمع المقدس للكنيسة المصرية (المرقسية) المعروفة بكنيسة الأقباط. وهذا الأسبوع يحتفلون بمرور خمسٍ وثلاثين سنةٍ على (رسامة) الأنبا بيشوي، أي اختياره أسقفًا، وهي رتبة كنسية عالية توافق اسمه، اختير لها لما عُرف عنه من سيرة قويمة منذ كان راهبًا في دير السريان بمنطقة وادي النطرون. ولأنني أقضي هذا الأسبوع في مدينة فرايبورج الألمانية، للمشاركة في المؤتمر الدولي الكبير للاستشراق، حيث أُلقي بحثي أمام (ألف) متخصِّص في الدراسات الاستشراقية، فقد حالَ ذلك دون مشاركتي بالاحتفال المقام في ذكرى رسامة الأسقف بيشوي، الذي تجمعني به محبةٌ عميقة وتقديرٌ كبير.

سمعتُ بالأنبا بيشوي من قبل أن ألتقي به بسنوات، وكانت صورته عندي مستقاة مما يُقال عنه من أنه أحد أبرز رجال الكنيسة المصرية المعاصرين، وأكثرهم تُقىً وتمسكًا بالتقاليد الموروثة لكنيسة الإسكندرية، الكنيسة المصرية، الكنيسة المرقسية (كلها تسميات لمسمًّى واحد) وهي تقاليد تم إرساؤها منذ القرن الثاني الميلادي، عبر جهود هائلة وتضحيات لا محدودة من آباء الكنيسة المبكرين الذين ارتقوا إلى مرتبة القدِّيسين والشهداء، منذ زمن الاضطهاد الروماني للمسيحية. ومعروفٌ عن كبار رجال الكنيسة

القبطية المعاصرين، أنهم لا يحبون (مراجعة) التاريخ الكَنَسِي أو الاقتراب من وقائعه القديمة. وقد تأكد ذلك عندي، في أول لقاء جمعني مع قداسة الأنبا بيشوي، حيث انهمكنا ثلاثَ ساعاتٍ كاملة، في مناقشة الخلاف القديم بين الكنيسة المرقسية التي ينتمي إليها ويُعد أحد أقطابها الكبار، والكنيسة الآشورية (الكلدانية) التي تسير على خطى نسطور أسقف القسطنطينية المعزول عن رتبته سنة ٤٣١ ميلادية، بعد خلافه اللاهوتي مع أسقف الإسكندرية آنذاك: كيرلُّس، عمود الدين.

غير أنني كنت أُلقي محاضرة للراهبات في دير القديسة دميانة منذ قرابة شهرين، تلبيةً لدعوة الأنبا بيشوي وبحضوره، فتطرق الكلامُ بنا إلى (العنف) المرتبط بتاريخ الديانات، مع أن المحاضرة كان موضوعها: الرهبنة والتصوف! فذكرت في أثناء كلامي للراهبات (الأخوات، الأمهات) أن العنف لا يرتبط بجوهر الديانة، بقدر ما يرتبط بالظروف التاريخية لأهلها وبالتوجيه المغرض للنصوص الدينية، وإلا فإن المسيحية (ديانة المحبة) عرفت وقائع مريعة، منها ما فعله الإسكندرانيون سنة ٣٦١ ميلادية من قتل أسقف المدينة المفروض عليهم من روما (جورجيوس الكبادوكي) وتمزيقه في الشارع إلى قطع من اللحم والعظم.. وارتجفت بواطن الراهبات، وعلَّق الأسقف الجليل (الأنبا بيشوي) على ذلك بقوله: «إن كان ذلك قد حدث، فهو خطأ!» وكانت تلك بالنسبة لي، هي المرة الأولى التي أجد عند أسقف مرموق، القدرة على النظر إلى تاريخ كنيسته باعتباره تاريخًا إنسانيًّا يحتمل الصواب والخطأ، وليس تاريخًا مقدسًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولولا الروح اليسوعي (العيسوي) المرفرف في قلب الأنبا بيشوي، ما كان بإمكانه أن يعيد النظر في واقعة مثل تلك، ويرى أنها «إن حدثت فهي خطأ» من دون الدفاع التلقائي والردود الجاهزة والتأويلات المفرطة التي تقوم عند الكثيرين منا، ومنهم، على قاعدة: ليس في الإمكان أبدع مما كان.. فتأمَّل.

البيانُ من دون تبيان

بدأت الهجمةُ المريعةُ التي شنَّها مطران دمياط «الأمبا بيشوي» على رواية عزازيل وصاحبها، بعد إصدار الرواية بشهور، وصدور الطبعة الثانية منها بعد أسابيع من ظهور

طبعتها الأولى. وقد مرت هجمة المطران بمنحنيات كثيرة في الأشهر الأولى التي ظل خلالها (يجرِّب) عددًا من الاتهامات وكثيرًا من حيثيات الإدانة، سعيًا للنيل من مؤلف الرواية وأملًا في بلوغ مُناه الذي ما أظنه سيناله أبدًا، لا في هذه الحياة ولا في الآخرة (إثبات أن «عزازيل» هي أبشع كتاب عرفته المسيحية) لأن الرواية ببساطة شديدة، ليس فيها أصلًا ما يتوهمه المطران من عداءٍ للمسيحية.

وقد بدأت الحملةُ الشعواءُ ببيانٍ رسمي، نشره الموقع الرسمي للمطران على شبكة الإنترنت، تحت عنوان (بيان حول رواية عزازيل للدكتور يوسف زيدان) وبالطبع فوجئ مؤلف الرواية بالبيان، لأنه كان يظن أن رابطًا من المحبة والصداقة يجمعه مع المطران. ثم فوجئ بأن المطران يرسل له البيان، على الفاكس. ثم فوجئ في اليوم التالي بأن البيان، الذي جاء كما سنرى من غير تبيان، منشور فيما لا حصر له من جرائد ومواقع إلكترونية.. غير أن تلك المفاجآت لم تروِّع مؤلف الرواية، لأنه عرف منذ اللحظة الأولى أن سهم المطران طاش، وأنه لن يبلغ يومًا مرماه ولن يصل إلى مبتغاه، بل رأى أن (عنوان) البيان ذاته، خانه التوفيق ودقة التعبير؛ لأنه بحسب ما يقول المطران: حول رواية عزازيل! هو إذن ليس (عن) الرواية، وليس (في) الرواية، وليس (بصدد) الرواية أو بشأنها. وإنما هو بيان (حولها) أي إنه في حقيقة الأمر، يدور ويلف (حول) الرواية ولا يقترب منها. فلا حول ولا قوة إلا بالله!

يبدأ البيان بقول المطران: «لم نكن نتوقع من صديقنا سابقًا، الدكتور يوسف زيدان رئيس قسم المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، أن يهاجم القديس كيرلُّس».. هذا كلامه، وهو دالٌّ بوضوح على أننا لم نعد أصدقاء، وهو ما نبَّهني بطريقة غير مباشرة إلى حقيقة أننا لم نكن يومًا أصدقاء، حسبما ظننتُ سابقًا.

والبيانُ يتكلم فيه المطران بصيغة الجمع، مستعملًا تعبيراتٍ من مثل «لم نكن نتوقع.. صديقنا سابقًا.. وسوف نرد.. إلخ» فهل تراه يقصد أن يتكلَّم عن مفردٍ بصيغة الجمع، لتعظيم نفسه؟ لا أظن، فقد دعاه السيد المسيح إلى التواضع مثلما يدعونا الإسلام إلى التواضع أيضًا. أو لعله يشير بذلك إلى أن مؤلف الرواية سوف يقف في

(المعركة القادمة) وحده، بينما المطران يستند إلى مؤسسة كامنة يتحدث باسمها، وبذلك يقع الرعب في قلب مؤلف الرواية.. لكن المطران لا يدرك أن المؤلِّف يستند إلى خلفيةٍ صوفيةٍ تجعله لا يفزع من تلك التهاويل، ولا يرتجف مع رجفة المرجفين؛ لأن أهل الأرض جميعًا لو اجتمعوا فلن يؤذوه بشيء، ولن ينفعوه بشيء، إلا بما كتبه الله عليه.

والمطرانُ يلمِّح في بيانه إلى وظيفة المؤلِّف في مكتبة الإسكندرية، مستعديًا عليه، ظنًّا من المطران بأنه سوف ينال من المؤلف من هذا الطريق. وهو ما يظهر جليًّا بعد سطور قليلة من بيانه الذي جاء خاليًا من التبيان، ثم يتجلَّى ثانيةً، في كثير من «حواراته» الصحفية المنشورة (حول) عزازيل، حيث يتأكَّد نزوع المطران إلى تهييج مكتبة الإسكندرية على مؤلِّف عزازيل، ومن بعد ذلك يستعدي الحكومة المصرية ملوحًا إليها بخطر عظيم، هو أن رواية عزازيل سوف تُحدث فتنة بين المسلمين والمسيحيين! ولو على المدى البعيد! بحسب كلامه. ثم يستعدي لجنة التحكيم في جائزة البوكر، ويدعوها لمراعاة شعور الأقباط! كي يضمن عدم حصول الرواية على هذه الجائزة.. ثم نراه يستعدي النقاد والكتاب، مثلما فعل الشهر الماضي مع الأستاذ بهاء جاهين الذي كتب مقالة بديعة عن الرواية في الأهرام، فأرسل له المطران ردًّا فيه تهويل وتخويف وإفزاع، فتراجع بهاء جاهين عن مقاله واعتذر عنه! مؤثرًا السلامة ومؤكِّدًا أنه «لم يقصد».. ثم يستعدي المطران في (حواراته) علماء الإسلام ويهيِّجهم ضد مؤلِّف الرواية، لأنها حسبما يزعم المطران تريد أن تهدم كل الأديان! وكأنه حريص على الديانة الإسلامية.. وأخيرًا، يستعدي المطران دار النشر (الشروق) التي أصدرت الرواية! ففي حواره المنشور في جريدة المصري اليوم (١٨/ ٧/ ٢٠٠٩) يرد على السؤال: هل حزنتم لحصول الدكتور زيدان على جائزة البوكر العربية عن الرواية ذاتها؟ بقوله: «بالتأكيد، ولكننا حزنًا أكثر على مَنْ رشَّحه لهذه الجائزة، لأنهم أثبتوا عدم غيرتهم على الكنيسة المصرية الوطنية».. قاصدًا بذلك الإشارة إلى أن جائزة البوكر (الجائزة العالمية للرواية العربية) لا يتقدم إليها المؤلِّفون، وإنما تقوم دور النشر بترشيح الأعمال التي تراها تستحق الجائزة.

لكن محاولات المطران هذه كلها لم تفلح، ولم يجد معينًا له في الحرب الوهمية التي يتخيل أنه بطلها، وذلك لأن مكتبة الإسكندرية منارة لكل الاتجاهات الفكرية ولن تقمع أحد مؤسسيها لإرضاء المطران، والحكومة المصرية تُدرك أن الفتن الطائفية لا تأتي من الروايات وإنما من ظالمي القلوب ومظلمي العقول، فضلًا عن أن (عزازيل) أضافت للرصيد الأدبي لهذا البلد جائزةً دوليةً جديدة، في زمن يقول فيه كثيرون إن مكانة مصر الثقافية تتراجع. ولجنة تحكيم البوكر لم يكن يشغلها إلا المستوى الأدبي للأعمال المرشَّحة، ومن ثم لم تلتفت إلى كلام المطران ومنحت الجائزة لعزازيل بإجماع لجنة التحكيم. والنقاد والكتاب لم يلتفتوا إلى ما فعله المطران مع بهاء جاهين، وما زالت أقلامهم تفيض بالكتابات النقدية عن الرواية حتى بلغ مجموع ما كُتب عن (عزازيل) حتى الآن، قرابة ألفي صفحة[1]. والعلماء المسلمون يعرفون أن المطران ليس غيورًا على الإسلام، بل هو لا يعترف به أصلًا، ولذلك لم يصدقوا تنبيهاته إلى «خطر» الرواية على الإسلام وعلى كل الديانات. والناشر لن ترعبه تخويفات المطران لأن الرواية ليس فيها ما يعادي المسيحية في واقع الأمر، بينما حققت في مدة صدورها القصيرة نسبيًّا، أعلى توزيع في تاريخ الأدب العربي، فصدر منها في أربعة عشر شهرًا أربع عشرة طبعة (الطبعة لا تقل عن خمسة آلاف نسخة) وتم تحميل ما يقرب من مائة ألف نسخة إلكترونية منها عبر الإنترنت، فضلًا عن إضافة (عزازيل) لرصيد الناشر جائزةً دولية هي البوكر العربية[2].

وعلى هذا النحو، خاب مسعى المطران في إيجاد شريك له في الحرب الوهمية التي يشنُّها ضد الرواية، ولم يستطع تكوين «فريق الأعداء» الذي كان يحلم بأنهم سوف يحقِّقون له مراده، نيابةً عنه. وعلى كل حال، فإنني أميل لمسامحة المطران وأرجو أن يأتي يوم، يسامح فيه المطران نفسه على المضيِّ قُدُمًا في هذا الطريق الذي لا أرضاه

(١) بالإضافة إلى ذلك، صدرت سبعة كتب ورقية وإلكترونية، عن رواية عزازيل (معها أو ضدها).

(٢) بلغت طبعات «عزازيل» قرابة الثلاثين، مع عشرين طبعة مزوَّرة، وأكثر من مليون عملية تحميل من مواقع الإنترنت.. هذا في اللغة العربية وحدها، وهناك ترجمات لها في أكثر من سبع عشرة لغة (منها الترجمة الإيطالية التي صدرت منها عدة طبعات في عام واحد).

له، نظرًا لمكانته الروحية المتميزة التي كانت تقتضي أن ينأى بنفسه عن سلوك مثل تلك الطرق غير الخليقة بأمثاله.

ثم يقول بيان المطران، إن المؤلف: «يهاجم القديس كيرلُّس عمود الدين، بطريرك الإسكندرية الرابع والعشرين، بمثل هذا العنف، في روايته العجيبة عزازيل، التي حاول أن يأخذ فيها منحى دان براون في روايته شفرة دافنشي».. هذا كلامه، وهو دال على أنه يربط بين روايتين لا أظن أنه قرأهما قطُّ، أو هو على الأقل لم يقرأهما قراءة صحيحة. صحيح أن الروايتين تمسّان التاريخ المسيحي، وتتماسان معه، لكن رواية دان براون في النهاية عملٌ بوليسيٌّ مشوقٌ، وعزازيل عمل فلسفي مُشقٍ! الأولى مغامرات والأخرى قلقٌ وحيرة، الأولى فيلمٌ سينمائيٌّ ينتهي بفوز البطل بالبطلة، والأخرى حنينٌ وجوديٌّ للحقيقة للإنسانية ضد العنف المتوسّل بسلطة الدين. شفرة دافنشي تنطلق من فكرة لم تثبت تاريخيًّا عن زواج عيسى عليه السلام بمريم المجدلية وإنجابه ذرية منها، بينما عزازيل تستند إلى وقائع تاريخية فعلية وحقائق لا يمكن إنكارها، وليس فيها خطأ تاريخي.

ثم يقول المطران في بيانه: «وسوف نردُّ بمشيئة الربِّ على كل ما نوى به د.يوسف زيدان تدمير العقيدة المسيحية الأصيلة».. وهذا بالطبع من عجيب الكلام. فمن أين أتى المطران بأن أحدًا يريد تدمير العقيدة المسيحية الأصيلة؟ فضلًا عن عدم توفيقه في صياغة العبارة (ما نوى به تدمير!) ومن أين أتى المطران بأن رواية ما، من شأنها تدمير عقيدة ؟ وما الذي يقصده المطران بالعقيدة المسيحية الأصيلة؟ هل هي عقيدة أهل خلقيدونية وكنيسة الروم الأرثوذكس، أم عقيدة اليعاقبة الذين ينتمي المطران إليهم، أم عقيدة النساطرة الذين قدموا خلال قرون طوال خدمات جليلة للإنسانية بسبب اشتغالهم بالعلوم وترجمتهم للنصوص العلمية من اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية في الزمن العباسي المبكر.. أم تراه يقصد عقيدة الفاتيكان وهؤلاء الكاثوليك الذين يرى المطران أنهم كفار؟ أم يقصد عقيدة الإنجيليين الذين قال المطران عنهم إن عليهم هجر كنيستهم والمعمودية من جديد في كنيسته هو، وإلا صاروا جميعا «أولاد زنا» لأن زواجهم الحالي غير شرعي من وجهة النظر المسيحية. وهكذا صار

ما يقرب من سبعمائة ألف مسيحي مصري، عند المطران، أولاد حرام.. حرام عليك يا نيافة المطران! وإذا كانت هذه هي نظرتك لزواج مسيحيين مثلك هم أخوةٌ لك في الدين، لأنهم اختلفوا معك في العقيدة؛ فكيف ترى قياسًا على ذلك، زواج المسلمين المختلفين معك في الدين والعقيدة معًا؟

لماذا ربط المطران بين عزازيل وشفرة دافنشي؟ لأنه سبق له أن كتب كتابًا بالإنجليزية للردِّ على دان براون، وينوي أن يردّ بكتابٍ آخر على رواية عزازيل.. إذن، هو متخصِّصٌ في الردِّ على الروايات التي تشتهر! ومع ذلك، فإنه لم يدرس النقد الأدبي ولا يقرأ أيَّ رواية بشكلٍ كامل، كما سوف يصرِّح بنفسه، مبرِّرًا ذلك بأن هناك عشرات الصفحات لا يستطيع أن يقرأها، لأنها تشتمل على مشاهد عشق لا يقدر على قراءتها، ولا يجوز له ذلك. ولكنه من ناحية أخرى، يرى من الواجب عليه أن يرد على الروايات التي تروج، بكتبٍ ليس فيها صفحة «نقد» واحدة مستغلًا جهل الكثيرين بالفارق بين النقد والنقض.

ثم يقول المطران في بيانه الرسمي، ما نصُّه: «ونتعجب من تدخُّله (يقصد مؤلف رواية عزازيل) السافر، بهذه الصورة، في أمور داخلية تخص العقيدة المسيحية.. إلخ»، فكيف يظن المطران أن ما عرضت له الرواية، هو شأنٌ داخلي؟ هل تاريخ مصر في القرن الخامس الميلادي شأنٌ داخلي؟ وهل مقتل هيباتيا التي أظلم من بعدها تاريخ العلم الإنساني لخمسة قرون كاملة، شأنٌ داخلي؟ وهل صراع الكنائس الذي زلزل العالم وأشقى الناس في أنحاء الأرض، وأدى إلى مقتل عشرين ألف قبطي في ميدان محطة الرمل بالإسكندرية (بوكاليا) على يد الحاكم المسيحي المسمَّى المقوقس، هو شأنٌ داخلي؟ وهل البحث عن الحقيقة شأن داخلي؟ وهل الشأنُ الداخلي، عمومًا، هو حقًّا شأنٌ داخلي؟

ثم يقع البيانُ الرسمي للمطران في خطأ فادح حين يظن أن الرواية، حسبما يقول: «تتخذ من أحد المخطوطات السريانية سندًا.. ولدينا من المخطوطات أيضًا ما يُسقط الدعاوى الواردة في هذه الرواية» هذا كلامه الأعجب. ولو كان قد ترفَّق أو سأل أو استفسر أو استشار، لعرف أنه لا توجد مخطوطات كي يرد عليها بمخطوطات.

ثم يزيد البيان من طين الخطأ بلةً، حين يقول ما نصه: «من المعروف أن هيبا أسقف الرها في المشرق الأنطاكي، لم يكن راهبًا من صعيد مصر كما تصوِّره الرواية».. هذا كلامه الدال على أنه لم يقرأ الرواية أصلًا، وإلا لعرف أن البطل اختار لنفسه اسم «هيبا» في لحظة درامية، لأنه النصف الأول من شهيدة العلم والمعرفة «هيباتيا» ولا توجد أي صلة بينه وبين أسقف الرها الذي عاش بعد أحداث الرواية بنصف قرن، واسمه: إيباس، هيباس، إيبا (والبعض يكتبه هيبا) ولا توجد أي علاقة يا نيافة المطران، بينه وبين بطل الرواية، فلا تتسرَّع بالحكم فتقع في الخطأ وتتوهَّم أن هناك أخطاء، وتتوهم أنك سوف «تُسقط الدعاوى الواردة في رواية عزازيل» لأن الرواية لا يوجد فيها أي دعاوى.

وينتهي البيان بقول المطران: «ولدينا ما يثبت براءة البابا كيرلُّس أيضًا في مسألة الفيلسوفة الوثنية هيباتيا. وإن غدًا لناظره قريب».. هذا كلامه المتوعِّدُ الناريُّ الذي مضت الشهور طوالًا ولم يقدم المطران شيئًا، حتى في كتابه الذي أصدره بعد طول تبشيرٍ به، ولسوف نرى فيما يأتي أن الكتاب المزعوم في حقيقة أمره، ليس كتابه! لكن الأعجب، هو صيغة التهديد هذه التي استعملها بقوله (وإن غدًا لناظره قريب) فهل صار المطران يستعمل القاموس العربي الإسلامي، أم أنه لا يعرف أصلًا أن هذه العبارة من التعبيرات التي استعملها العرب قبل الإسلام وبعده، فصارت واحدةً من التعبيرات الشهيرة عند المسلمين.. لا بأس.. سوف نتقبل كل ذلك من المطران بنفسٍ سمحةٍ راضية، تغفر له كل ما يقصده وما لا يقصده من أخطاء وتوهمات، ولننظر فيما يلي، في فحوى ذلك الكتاب الطريف ومضمونه، الذي نشره المطران مع مطلع العام ٢٠١٠ تحت عنوان: عزازيل، الرد على البهتان في رواية يوسف زيدان.

بؤسُ العنوان

متعجِّلًا، نشر الأمبا بيشوي بيانه المسمَّى «الرسمي» ضد رواية عزازيل، فجاء بيانُه الذي صدر من دون تبيانٍ حافلًا بالتوهُّمات وسوء الفهم، ومليئًا بالأخطاء. ولو كان المطران قد اكتفى بذلك، لصار أمره أهون وأسهل عند استدراك الخطأ وتصحيح الشَّطَط، بيدَ أنه بعدها راح يتوعَّدني ويكرِّر وعيده في الصحف المصرية والعربية،

منذرًا بأنه بصدد تأليف كتاب للردِّ على عزازيل ومؤلفها، لأن عزازيل حسبما أكَّد المطرانُ مرارًا، هي «أبشع كتاب عرفته المسيحية» ومؤلِّفها حسبما يتوهَّم ويُوهم الناس «ينشر الأضاليل ليس عن جهل ولكن عن معرفة، وذلك لتشبثه بالرغبة في الطعن في العقيدة المسيحية».. هذا كلامه الذي يجب أن نصحِّحه له، قبل مناقشة كتابه الذي صدر بعد قرابة عشرة شهور من التهديد الدائم والوعيد المستمر، وهو الكتاب الذي تجلَّى بؤسُه مع عنوانه.

وبدايةً، ولتصحيح أوهام المطران عن الرواية نسأله: كيف تكون عزازيل هي الكتاب الأبشع في تاريخ المسيحية.. كيف يا نيافة الأمبا؟ ألا تعرف أن تاريخ المسيحية حافلٌ بما لا حصر له من كتبٍ ضخمة ومؤلَّفاتٍ كبار، كانت تهاجم هذه الديانة منذ ابتدأ ظهورها، خصوصًا في زمنها الأول الذي لم تكن قد اتخذت فيه شكلها الحالي. وهي كتبٌ مشهورةٌ يمكن لأي شخص معرفة قائمتها الطويلة بسؤال أحد المتخصصين، أو حتى بالبحث في شبكة الإنترنت، وعلى هذه الكتب ردودٌ كثيرةٌ كتبها الآباءُ الأوائلُ للكنيسة، والآباءُ المتأخرون أيضًا. ولذلك، كثيرًا ما نجد في التراث المسيحي واعترافات الآباء (أي كتب العقيدة) مؤلَّفات عنوانها: الرد على الوثنيين.. الردّ على الهراطقة.. الردّ على الفلاسفة.. إلخ.

وقد اندهش دارسو التراث المسيحي من قول المطران إن عزازيل هي الأبشع، لأنهم يعرفون تاريخ الجدل الكنسي ومتأكدون من امتلائه بنصوص الهجوم على الديانة، وذلك لأنهم يدرسون فيعلمون. ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. ومن هنا، لا أرى من الجائز عقلًا أن نتوقف طويلًا عند هذا الوصف المجاني «الأبشع» للرواية، أملًا في أن يبادر أحد المقربين من المطران، ممن درسوا تاريخ المسيحية، فيصوِّب له معلوماته ويُخرجه من توهُّماته.

وأما ما يتوهمه المطران من عدائي للمسيحية، فسوف أورد له فيما يلي بعضًا من الوقائع التي لا سبيل أمامه لإنكارها، وهي تدلُّ بوضوح على أنني بعيدٌ تمامًا عن تلك الدواهي التي يتوهَّمها المطرانُ ويكررها كل يوم في الصحف. علمًا بأنني لم أكن أُحب أن أذكر ذلك، لولا حرصي على تصحيح أوهام المطران المؤرِّقة له. وفي ذلك أقولُ:

حين هجَمَتْ الفتن الطائفية على المجتمع المصري وهدَّدت وحدته، كنت واحدًا من المجموعة الصغيرة التي شكَّلت (اللجنة المصرية للوحدة الوطنية) وهي اللجنة التي تكوَّنت في بداية التسعينيات في الإسكندرية، كجهةٍ غير حكومية تسعى لإرساء سبل التعايش بين المسلمين والمسيحيين. وكان معي آنذاك مجموعة مختارة من مثقفي الإسكندرية، منهم: محمد رفيق خليل، أبو العز الحريري، كميل صديق، هشام صادق، أسامة أنور عكاشة، وليم فلتاؤس.. وغيرهم، وكانت بعضُ اجتماعات هذه اللجنة (الوطنية) تتم في منزلي، وكانت نفقات أنشطتها تغطى من تبرعات أعضائها. وقد كان لهذه اللجنة دور ملموس في طرد شبح الفتنة عبر فعالياتٍ كثيرةٍ على أرض الواقع، لم نكن نعلن عنها في «وسائل الإعلام» إيمانًا منا بأننا نقوم بواجبنا تجاه هذا البلد، ولا يجوز لنا أن نطنطن بما نفعل. وقد قلَّدتْ القاهرةُ الإسكندرية، وتكوَّنت بعد قرابة عامين (لجنة وحدة وطنية) بالقاهرة، للأهداف ذاتها التي كانت لجنة الإسكندرية ترنو إليها. وظلت اللجنتان تعملان معًا لعدة سنوات، حتى هدأ الحال نسبيًّا[1].

والمطرانُ يعرف «جيدًا» أنني منذ عدة سنوات، أحرص على حفظ التراث المسيحي المخطوط، وأجتهد في الحصول على نسخٍ مصوَّرة من مخطوطاته، وأزوِّد به مكتبة الإسكندرية التي اجتمعت فيها اليوم أكبر مجموعة من المخطوطات المسيحية المصوَّرة، لتكون في خدمة الباحثين. وهذا جهدٌ، جهيد. والمطرانُ يعرف «جيدًا» أنني فتَّشتُ طويلًا عن أقدم إنجيل عربي، حتى اكتشفته. وقد وجدته منسيًّا في دير سانت كاترين (وهو بالمناسبة، دير غير قبطي) فنشرته إلكترونيًّا ليتاح للناس، بسعر التكلفة الزهيد، وقد أصدرته ضمن مجموعة نادرة من المخطوطات المسيحية العربية، عن مكتبة الإسكندرية. وفي المكتبة استضفتُ البابا شنودة مرتين، مثلما استضفت غيره من رموز الكنائس الأخرى. والمطران يعرف «جيدًا» أنني شاركت البابا شنودة في ندوةٍ حاشدة تحدثتُ فيها يومها عن «الإسهام المسيحي في التراث العربي» وتحدث

---

(١) لم نكن آنذاك قد أدركنا الحقيقة المفجعة التي أعلنتُها لاحقًا، مرارًا، بعبارة موجزة: الفتنة الطائفية صناعة حكومية.

البابا عن «تاريخ الكنيسة القبطية في مصر» وكان عدد الحاضرين للندوة يقترب من ألفيْ شخص.. فكيف يستقيم ذلك مع عدائي المتوهَّم للمسيحية؟

والمطرانُ يعرف «جيدًّا» أن عددًا من المسيحيين، أقباطًا وغير أقباط، يعملون تحت إدارتي منذ سنين طوال، ولم يحدث يومًا أنهم شعروا بأنني أفرِّق بين مسلم ومسيحي. بل الأكثر من ذلك، أنني حرصتُ على إلحاق عدد منهم بالكلية الإكليريكية، ليدرسوا التراث المسيحي دراسةً نظامية، وطلبتُ من المطران أيامها أن يُساعد في إلحاقهم بهذه الكلية، ففعل.. والمطرانُ يعرف «جيدًا» أنني لأعوامٍ طوالٍ تربطني أواصرُ المحبة مع الآباء القاطنين في الأديرة، ولا تزال هناك صداقاتٌ عميقةٌ تجمعني بهم. وقد قدَّمت لهم كثيرًا من الخدمات والاستشارات المجانية، من أجل الحفاظ على التراث المخطوط المحفوظ في تلك الأديرة.

والمطران يعرف «جيدًّا» أنني سعيتُ طويلًا وبذلتُ جهدي لإنقاذ المخطوطات المسيحية المحفوظة بالمتحف القبطي بالقاهرة، التابع لهيئة الآثار، واجتهدتُ للقيام بعملية ترميمٍ كاملٍ لها في مكتبة الإسكندرية، دون أي تكلفة مالية على المتحف. مع أن الترميم باهظُ التكلفة، حسبما يعلم المطران أو لا يعلم، وقد وافق «زاهي حواس» رئيسُ الهيئة على ذلك، وهناك مكاتباتٌ رسميةٌ في هذا الصدد. ثم اجتهدتُ حتى دبَّرتُ الميزانية اللازمة لإتمام هذه الخطوة، دون أن أكلِّف المتحف القبطي أو مكتبة الإسكندرية أي متطلبات مالية. لكن المطران يعلم كيف قامت العراقيل المصطنعة، لتحول دون إتمام هذه الخطوة، ويعلم كثيرون من المتصلين بالأمر أنني صبرتُ طويلًا على سخافات القائمين على هذه المخطوطات بالمتحف القبطي، حتى يئستُ من إصلاح الحال بعد طول محاولة. وها هي المخطوطات المسماة (القبطية) تأكلها العتة والأَرَضة، وتعصف بها ظروف الحفظ السيئة، حتى اليوم، وكان الواجب على المطران أن يعاونني لإتمام هذه الخطوة النافعة للمخطوطات القبطية والمسيحية (المصرية) المحفوظة حاليًا بشكل رديء في المتحف القبطي، لا سيما أنه واحدٌ من أعضاء مجلس إدارته. بدلًا من ذلك الضجيج والصخب الذي لا داعي له، ونَشْر التوهُّمات على الناس

من دون ضابط، اعتقادًا من المطران بأنه في «مواجهة تاريخية» مع رواية عزازيل، وهي الرواية التي اعترف في كتابه بأنه لم يقرأها كاملة!..ويا ليتك أيها المطران المبجَّل، استطعت مواجهة الرواية، بل بالعكس من ذلك، أراك قد أسهمت في رواجها وانتشارها ثم أظهرت بكتابك الذي أصدرته أنك أبعد ما يكون عن التصدِّي (الوهمي) للرواية.. ولماذا تقول للناس علانيةً، وبثقةٍ كاملة، إنني أكره المسيحية وأسعى لتدميرها ولديَّ أغراض ضدها؟ أم تراك تفرح بصورك التي صارت كل يوم تنشر في الصحف المصرية، وكأنك صرت فجأة نجمًا وشهابًا لامعًا، لأنك (المتصدِّي) لعزازيل.. يا نيافة المطران، لا بد أن تعي أن هؤلاء الذين يفسحون لك المساحات في الصحف، من خلف ستار، هم أدباءٌ غاظهم نجاح الرواية فاستخدموك لمهاجمتها، ليبقوا هم في الظل والأمان وتبلِّغهم أنت مرادهم. وعلى كل حالٍ، فإنني تقديرًا لك، لن أنشغل هنا بالرد على كلامك (الصحفي) وسوف أقوم فيما يلي بتصحيح أوهامك وتصويب أخطائك، في كتابك العجيب. وأبدأ ذلك بالكلام عن صفحة الغلاف، فقط، ثم أناقشك بهدوء في محتويات الكتاب، لاحقًا.

من المضحكات المبكيات أن الكتاب الذي (يردُّ) به الأمبا بيشوي، هو ثالث كتاب (قبطي) يصدر للردِّ على عزازيل[1]. كان أول هذه الكتب، روايةً بائسة كتبها مخبولٌ يسمى نفسه باسم مستعار هو «الأب يوتا» ويسمِّي روايته بعنوان أكثر بؤسًا من صاحبها، هو «تيس عزازيل في مكة» وقد أراد، وهو المسكين، أن يهدم الدين الإسلامي كله، بهذه الرواية الهزلية التي لا يمكن أن توصف إلا بالعَبَط، وقد رفضها الأقباط من قبل أن يتقزَّز منها المسلمون. ثم جاء الكتاب الثاني للقمص عبد المسيح بسيط، بعنوان «عزازيل هل هي جهل بالتاريخ أم تزوير للتاريخ» ثم عدَّل القُمُّص العنوان، بأن حذف منه (هل هي) ولما قرأتُ هذا الكتاب، وجدته نصًّا كوميديًّا لا يستوجب إلا الضحك، وقد رد عليه بعض الأقباط قبل أن يهمله الجميع، ويصير نسيًا منسيًّا بعد ثلاثة أشهر من صدوره، كأنه لم يصدر أصلًا.

---

(١) صدرت بعد ذلك كتب (قبطية) أخرى للرد على رواية عزازيل، منها كتابٌ كوميدي طريف بعنوان: شفرة زيدان.. وكتابٌ آخر للدكتور نبيل لوقا بباوي، سعى لإنصاف الرواية والرد على مهاجميها.

ومن بعد هذين الكتابين أتانا كتابُ المطران بيشوي يختال ضاحكًا، فوجدتُ فيه العجب العجاب ابتداءً من صفحة الغلاف التي تقلِّد غلاف الرواية التي يردُّ عليها، بوضع مخطوطةٍ في المكان ذاته، الذي فيه على غلاف الرواية مخطوطة! ولكننا سنعرف بعد قليل، أن البون شاسع بين المخطوطتين. ولكن أولًا، دعونا ننظر في العنوان البائس الذي اختاره الأمبا، وهو «عزازيل، الرد على البهتان في رواية يوسف زيدان» وكأن المطران يسعى لاقتحام اللغة التراثية التي أنتمي إليها، ردًّا على ما يعتقده من أنني اقتحمت العالم اللاهوتي الذي ينتمي إليه. وهذا وَهْمٌ مركَّب قاد المطران إلى استخدام هذا العنوان المسجوع، الركيك، الذي لم يتنبه فيه إلى أن (البهتان) لا يصحُّ الرد عليه، وكان الأصوب إذا أراد هذا المعنى، أن يقول في عنوانه تعبيرًا من مثل: «كشف البهتان.. إظهار البهتان.. بيان البهتان.. إلخ» لأن الردَّ على البهتان بهتانٌ (أي كذب كبير) وكان يجب على المطران أن يستعمل عنوان الرواية، في صلب عنوان كتابه الذي يرد عليها، فيقول مثلًا: «بيان البهتان في رواية عزازيل ليوسف زيدان.. هتك أسرار البهتان، المتوارية في عزازيل يوسف زيدان.. فضح خفايا البهتان، المخبوءة في عزازيل زيدان». تلك هي اللغة التي أردت يا نيافة الأمبا استعمالها، وسعيت إلى استخدام سجعها من دون أن تعرف أسرارها وقواعدها ودلالات ألفاظها. ولكن ما علينا من ذلك كله فما مرادي هنا في نهاية الأمر، إلا لفت الأنظار إلى سعي المحتار في ليل الأسرار.

والأطرفُ مما سبق، أن المطران يضع اسمه على غلاف الكتاب بجوار العنوان غير الموفَّق، كالتالي «لنيافة الحبر الجليل الأنبا بيشوي» وهي المرة الأولى في تاريخ الكتابة العربية، التي يمدح فيها المؤلف نفسه على غِلاف كتابه. ولو تابعه في ذلك أيُّ كاتب آخر أو أديب، لجاءت أغلفة الكتب والروايات وهي تسبق اسم مؤلفها بصفات مثل: للمبدع العبقري.. للفيلسوف الألمعي.. للكاتب الأروع.. للمفكر الأفظع.. وهكذا! لكننا سوف نرى بعد قليل، أن هذا الكتاب ليس من مؤلفات (نيافة الحبر الجليل الأنبا بيشوي) إنما هو من تأليف مجموعة من الشباب المبتدئين الذين يختلف أسلوبهم في الكتاب، ما بين فصل وآخر.

وعلى غلاف رواية (عزازيل) في طبعاتها الثلاث عشرة[1]، صورةُ برديةٍ أصلها محفوظ اليوم بمتحف فيينا الذي يحتوي على أكبر عدد من البرديات المصرية في العالم (يضم أكثر من خمسين ألف بردية) وقد اخترتها لأنها تصور البطرك القبطي ثيؤفيلوس، وهو يدعو سنة ٣٩١ ميلادية، لهدم السيرابيون «معقل الأدب والفن والعلوم في الإسكندرية القديمة» على رءوس الشعراء والأدباء والفلاسفة، الذين كانوا يعتصمون فيه ليمنعوه من هدمه. وقد انهدم السرابيون على رءوس المعتصمين فيه، في واحدة من أفظع الحوادث في تاريخ الإنسانية، وأفجعها لأهل الزمان القديم ولكل الأزمنة التالية. وبدلًا من أن يفكر المطران في الاعتذار عن هذا الإجرام (الكنسي) في حق الإنسانية جمعاء، نجده في الكتاب المنسوب إليه يرد على هذه «البردية» التي تَوهَّم أنها مجرد مخطوطة، بأن يضع مكانها مخطوطة أخرى هي في واقع الأمر «رَقّ» مكتوب فيه أسماء الأساقفة الذين حضروا الاجتماع الكنسي المسكوني (العالمي) في بلدة نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية. ما الصلة بين هذه وتلك؟ أم أن المطران يظن أن كلها مخطوطات، وكل المخطوطات مثل كل المخطوطات، وكل شيء مثل كل شيء.. فسبحان الله الذي مجده في السماء، وعلى الأرض السلام، وللناس المسرة.

قلقُ المقدمات

بمقدماتٍ كثيرةٍ تعكس بقوةٍ قلقَه مما هو مقبلٌ عليه، بدأ الأمبا المطران كتابه الذي يزعم على صفحة غلافه أنه «بحث وثائقي تاريخي وعقائدي للردِّ على رواية عزازيل» ففي بدء الكتاب تتتالى ثلاثُ صور، ثم تتوالى من بعدها ثلاث مقدمات: تصدير، مقدمة، تمهيد. وكلها ممهورة بتوقيع المطران، بخط يده، كأن ذلك إثباتٌ قويٌّ ودليلٌ دامغ على أنه صاحب الكتاب (الرد) وعلى ظهر الغلاف، كتب المطران وظائفه الكنسية الكثيرة في أربعة أسطر.

---

(١) كان ذلك يوم نُشرت المقالة، وعند مراجعة هذا الكتاب للطبع، كانت طبعات الرواية قد توالت حتى بلغت قَدْرًا لم تصل إليه أي رواية أخرى في تاريخ الأدب العربي.

وقد ظننتُ أن المطران ابتدأ بدايةً مباركة، مُوفَّقة، حين وضع صورة المسيح في أول صفحة، وكتب تحتها ما نصه «السيد المسيح كلمة الله» وهي عبارة طيبة اعتبرتها بدايةً موفقة، لأنها تشير إلى اتفاق المسلمين والمسيحيين معًا، على أن المسيح هو روح من الله وكلمة منه تعالى. ولبيان أهمية هذا (الاتفاق) الذي عبَّرت عنه أولى عبارات الكتاب (الرد) لا بد من الرجوع قليلًا بالزمن إلى الوراء:

كانت الفلسفة اليونانية القديمة، بمثابة ثورة (العقل) ضد الخرافة، ومحاولة دءوب لمواجهة الأساطير التي شاعت عند اليونان، وذاعت بينهم بفضل أشعار هوميروس الملحمية الشهيرة، وهي الأشعار المتفرقة التي جُمعت في الإسكندرية القديمة، بفضل جهود أمناء المكتبة القديمة «زينودوتس، أريستوفانيس البيزنطي، أريستارخوس» الذين جمعوا هذه الأشعار معًا تحت العنوانين الشهيرين: الإلياذة، الأوديسَّة.

وقد أراد الفلاسفة في معرض انتصارهم للعقل الإنساني، أن يقدِّموا تفسيرات عقلية لأصل الوجود وتعليلات منطقية لطبيعة العلاقة بين الله والعالم، وبالطبع فالمقام يضيق هنا عن استعراض الآراء والنظريات الفلسفية التي قَدَّمها حكماءُ اليونان الكبار، ابتداءً من «طاليس» الذي قرَّر أن الماء هو أصل العالم، إلى «أرسطو» الذي قرَّر أن الوجود ينجذب إلى الإله بنوعٍ من العشق بينما الإله الذي أسماه (المحرِّك الأول) هو كيانٌ علويٌّ ساكنٌ يحرِّك الموجودات كلها من حوله، لكنه في الوقت ذاته «عاطل» لا يتحرك. كما يضيق المقام هنا، عن عرض المفاهيم والمصطلحات الفلسفية الكثيرة التي صاغها فلاسفة اليونان، ومن بينها مفهومان شهيران هما «النوس واللوجوس» باعتبارهما من المبادئ التي تفسِّر الوجود. والمفهوم الأول (النوس) هو الذي يقال له في اللغة العربية: العقل، والمفهوم الآخر (اللوجوس) يعبر عنه في العربية بكلمة: الكلمة.

وقد ذهب عديدٌ من الفلاسفة القدامى إلى القول بأن العقل (النوس) والكلمة (اللوجوس) هما المفتاحان الأصليان لوجود الكائنات كلها، والقاعدة التي يمكن من خلالها تفسير نشأة الكون كله، وارتباطه بالإله الأعلى الذي هو «الرياضي الأعظم» عند أفلاطون، و «المحرِّك الأول» عند أرسطو.. وفي العصر اليوناني المتأخر (الهيللينستي)

تم إهمال مفهوم النوس أو العقل، بسبب طغيان النـزعات الروحية والاتجاهات الهرمسية، وهي اتجاهات غنوصية (عرفانية) يُنسب أصلها إلى الحكيم هرمس، وهو شخصية خيالية تقابل عند المصريين القدماء «أخنوخ» وعند المسلمين النبي إدريس. ومن هنا قلَّت العنايةُ بالمنطق في الإسكندرية القديمة وأُهمل مفهوم النوس، بسبب الانتشار الواسع للاتجاهات الغنوصية الهرمسية والنـزعات الصوفية الروحية، التي تسعى للوصول للحقائق العلوية عن طريق التجرُّد من المتطلبات الحسية بقدر الطاقة.. أما مفهوم اللوجوس (الكلمة) فقد تطور على يد فلاسفة الإسكندرية في الزمن الهيللينستي، وصار مرادفًا لأصل الكون وابتداء الوجود.

وفي أول آيات «سفر التكوين» الذي هو أول أسفار التوراة (أول نصوص العهد القديم) يقول مؤلِّف التوراة أو مؤلِّفوها الذين كتبوها قبل الميلاد بخمسمائة عام، ما نصه «في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة (خاوية) وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة» وفي مبتدأ إنجيل «يوحنا» الذي هو أحد الأناجيل الأربعة المعتمدة، تقول الآية الأولى «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله»، وقد عَدَّ عديدٌ من آباء الكنائس المختلفة، المتخالفة فيما بينها، أن بداية إنجيل يوحنا ليست من عمل يوحنا، وإنما هي من إملاء الروح القدس. وهو الأمر الذي يؤكِّده بوضوح العلاَّمةُ مَتَّى المسكين في شرحه الضخم لإنجيل يوحنا (في مجلَّدين) وهو الشرح الذي يؤكِّد أيضًا، ما يعتقده المسيحيون من أن يسوع «عيسى» هو كلمة الله.. ومن ناحية أخرى، وبعد عدة قرون، وصف القرآن الكريم المسيح بأنه (كلمة من الله) وورد ذلك مرتين في سورة آل عمران.

إذن، هناك اتفاق (عام) على اقتران المسيح بالكلمة، ولذلك رأيتُ أن الأمبا المطران، كان موفقًا في أولى العبارات التي وردت بأول الكتاب المنسوب إليه، لأنه بقصدٍ أو من غير قصد أشار إلى «الاتفاق» قبل الانهماك في الجدل وخوض غمار الاختلاف. ومع ذلك، فإن الصورة ذاتها التي جاءت فوق العبارة (الموفَّقة) جَانَبَها التوفيق، فقد جاء نيافة الأمبا بصورةٍ للمسيح مرسومةٍ منذ عامين (محفوظة في دير القديس دميانوس) تخالف

ما عرفناه من سيرة المسيح وأخباره، وتصوّره على هيئة أباطرة بيزنطة. مع أن المسيح أكد بوضوحٍ على معنى «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله» كما أكد بقوله «مملكتي ليست من هذا العالم» حقيقة أن المؤمنين يطلبون ملكوت السماء لا الأرض. وقد عاش المسيح حياته بحسب الروايات المشهورة، خاويَ اليد من حطام الدنيا، وضاربًا أروع الأمثلة في الزهد والتقشف. ومع ذلك فهو في الصورة ذو ملامحَ أوروبيةٍ صريحةٍ، وليست يهودية مثلما يجب أن يكون. ويرتدي ثلاثة أثواب فخمة مؤطّرة بالقَصَب وخيوط الذهب، مع أن يسوع معروفٌ عنه هجرانه لزخرف الدنيا الفانية. وألوان الأثواب الثلاثة في هذه الصورة (المفبركة) هي الأُرجوان والذهب والأحمر الملكي، وهي ألوان الزخرف الدنيوي الذي دعا السيد المسيح للابتعاد عنه! وفي اليد اليسري للشخص المصوَّر على أنه المسيح، إنجيلٌ، وفي يده اليمنى عصا ذات رأس أفعواني، وعلى رأسه تاجٌ من طابقين مملوءين بالجواهر. فهل هذا هو المسيح الذي حكت سيرته الأناجيل، أم هو الصورة المضادة تمامًا لما كان المسيح يدعو إليه؟

وفي الكتاب المنسوب للمطران نرى على الصفحة التالية مباشرةً لصورة المسيح، صورةً للبابا «شنودة» الموصوف تحت الصورة بالبابا المعظَّم، وعلى الصفحة الثالثة صورة الأمبا بيشوي وهو يضحك. ولا يجوز لنا هنا أن نسأل عن سر ابتداء الكتاب بهذه الصور، فقد تكون للتبرُّك وهذا حقٌّ للمتبرِّكين، وقد تكون لإخافة المخالفين وهذا حقٌّ للمخوِّفين.. ما علينا الآن من تلك التصاوير، ولندخل إلى الكلام المذكور بالكتاب:

في أول الكتاب فقرةٌ من رسائل الأسقف كيرلُس عمود الدين، وهي فقرةٌ مُرعبةٌ عنيفةٌ مخيفةٌ، منها قوله: «الله يزعزع بشدة قوة أعدائه ويلاشيها(!) ويبطل خططهم.. من جهة انتقاد عديمي التقوى، ومن جهة شتيمتهم وكراهيتهم السابقة.. لأنهم قد دعوا ربنا ببعلزبول (سيد الزبالة، الشيطان) فليس جديدًا (يقصد: غريبًا عليهم) إن دعوني هكذا، وإن كانوا قد اضطهدوه هو (يقصد: الله) فكيف لا يضطهدونني أيضًا».

وهكذا يبدأ الكتاب المنسوب للأمبا، بإشارة خفية إلى المماثلة بين الماضي والحاضر، على اعتبارٍ توهُّميٍّ لافتٍ مفاده أن نيافته يمثل كيرلس عمود الدين (المتوفى

سنة ٤٤٤ ميلادية) ومؤلف عزازيل يماثل الأسقف نسطور (المتوفى سنة ٤٣١ ميلادية) الذي كان الأسقف كيرلس «عمود الدين» يعاديه. وقد أكد الأمبا المطران دلالة هذه الإشارة بقوله عقب الاقتباس: «لم أجد أعذب من كلمات القديس كيرلس الكبير هذه، لكي أستهلَّ بها كتابي هذا.. لأنه عاش أحداثًا مماثلة لما يجري في زماننا هذا من الافتراء عليه».

والغريب أن المطران الأمبا يؤكِّد أن الكتاب كتابه، لكننا سنرى بعد حين أنه مجموعةُ تهاويل واجتهادات مشوَّشة لمجموعة شباب يعملون تحت إدارة المطران ولا يعرفون كثيرًا عما يكتبون. المهم، أن المطران الأمبا بعد (التصدير) الذي كتبه في صفحةٍ واحدةٍ فقط، ووقَّع عليه بيده، يكتب (مقدمة) في صفحةٍ واحدةٍ أيضًا، جعلها البُنط الكبير المستخدم في الكتابة صفحتين، فنراه يشير فيها إلى أنه كان ضيفًا ببرنامج تلفزيوني! فيقول ما نصه: «قمتُ بالرد على دان براون في برنامج البيت بيتك، مع المذيع الصديق العزيز تامر بسيوني في التلفزيون المصري، وقدَّمنا في تلك الحلقة التلفزيونية الوثائق التي تدحض ادعاءات دان براون في روايته شفرة دافنشي». وطبعًا حدث ذلك منذ سنوات، وفي غياب دان براون الذي لا أظنه عرف شيئًا عن هذا البرنامج التلفزيوني، ولا سمع يومًا اسم المطران.

ويعد هذا المفتتح (التلفزيوني) يقول نيافة الأمبا المطران ما نصه: «وها نحن اليوم نواجه الحجة بالحجة في الردِّ على الأهداف الهدَّامة في رواية الدكتور يوسف زيدان.. ولن يجديه نفعًا الاحتجاج المستمر بأن هذا نوع من الأدب الروائي.. إلخ». إذن، الأمبا يرى أن في رواية عزازيل «أهدافًا هدَّامة» وكأنه يدعو الناس إلى الدعاء الشهير الذي ردَّده المصريون حين ضربهم نابليون بونابرت بالمدافع: «يا خفيَّ الألطاف نجِّنا مما نخاف». والمطران يرى أنني «لن يجديني نفعًا» وكأننا في يوم القيامة، وكأنه هو قاضي الآخرة (الدينونة) الذي يحاسب الناس! يا نيافة الأمبا: حنانيك، اهدأ قليلًا، فالأمرُ أبسط بكثير مما تعتقد.

ومع أنني أرسلت برسائل كثيرة للمطران عبر (الأصدقاء المشتركين) كي يتريَّث في الفهم ولا يبادر برفض الرواية ابتداءً، حتى يهدأ، أو يفكر برويّة في الأمر ولسوف يكتشف

أن المسألة أبسط مما يظن. لكن الأمبا المطران لم يهدأ، ولم يعرف أن الأمر أبسط من ذلك، وبادرني بالخلاف والاختلاف والعداء، وهو ما نراه في الكتاب الذي فيه يكمل كلامه قائلًا: «نحن ننتظر قليل (يقصد: قليلًا) من الخجل عند الدكتور يوسف زيدان أو عند مَنْ منحوه جائزةً في الأدب العربي، أو على الأقل عند القارئ العربي.. إلخ». وبالطبع، فلا مانع عندي إطلاقًا في أن يخجل كلُّ هؤلاء، وأنا معهم، ولكن ما الذي سوف نخجل منه بالضبط.. لا أعرف.. ولا أحد يعرف غير المطران!

وبعد (التصدير) ثم (المقدمة) يأتي (التمهيد) الذي لم يقتصر على صفحة واحدة، كسابقَيْه، بل جاء في عشر صفحات كاملة، ابتدأت من الصفحة الثالثة عشرة. فلماذا أفاض المطران هذه المرة؟.. ليته ما أفاض! فقد ارتبك قلمه تمامًا بسبب قلقه مما هو مقبلٌ عليه، وراح يشير بشكل عشوائي إلى لقاءات تلفزيونية ومقالات صحفية، وخلال ذلك ينعي عليَّ أنني قلتُ ذات يوم، إن الأخلاق في مجتمعنا قد تدهورت (وهو أمر لا يختلف عليه أحد) ثم يقول بعد ذلك مباشرةً، بالحرف الواحد، إنني: «أنشر الفسق والفساد على عشرات الصفحات».. فما هذا يا نيافة المطران؟ كيف ارتضيت لنفسك مثل هذا الزعم، وكيف قادك إليه عقلك؟ ولماذا تنفعل على هذا النحو من دون مبرر مقبول، فتتّهم الناس تُهمًا خطيرة من دون دليل، وهي تُهم تعاقِب عليها جميعُ الشرائع والقوانين؟ أم تراك تظن نفسك كائنًا فوق جميع الشرائع والقوانين. وكأن من حقك أن تقول ما تريد، على مَنْ تريد «نَشْرُ الفسق والفساد!» لن أرد على كلامك هذا، فهو مما لا يجوز الرد عليه.

ثم يفيض صديقي (القديم) نيافة الحبر الجليل في ذلك التمهيد، لكنه لا يتحدث عن رواية عزازيل وإنما يورد مزيدًا من الاتهامات، فيقول: «ينشر د. زيدان الأضاليل ليس عن جهل ولكن عن معرفة، وذلك لتشبثه بالرغبة في الطعن في العقيدة المسيحية».. وهنا أسأله: لماذا تشنُّ هذه الحروب المُتخَيَّلة أيها الحبر الجليل؟ وأنت تعلم أنني قدمت خدمات كثيرة للتراث المسيحي. ولماذا تزعم ذلك وتنفرد به من دون الذين يعرفونني، وتشذُّ عن الأساقفة والقساوسة والآباء الأجلاء، الذين امتدحوا الرواية؟

هل أذكر لك بعض الأسماء، لأن الذكرى تنفع المؤمنين.. حسنًا: اقرأ ما كتبه القسُّ «نصر الله زكريا» عن الرواية في مجلة الهدى التي تصدرها الكنيسة الإنجيلية، وراجع ما قاله القسُّ «جورج مسوح» مادحًا الرواية في قناة الحرة (موجود على الإنترنت)، وانظر بروِيَّة في كلام العالم الجليل «المطران يوحنا جريجوريوس» الذي ظلمتَه زورًا وتجنيَّت عليه بهتانًا، حسبما سأوضح لاحقًا.. فهؤلاء، وغيرهم كثيرون من الذين كتبوا عن عزازيل، هم رجال دين لايقلون عنك مكانةً ولا تمسكًا بالديانة. ومع ذلك فقد امتدحوا الرواية التي تعتقد أنت أنك تواجهها، لأنهم قرءوها. بينما تشنُّ أنت حربًا ضارية على نصٍّ روائيٍّ، تعترف في كتابك بأنك لم تقرأ منه قرابة المائة صفحة. فكيف سمحت لنفسك بالرد على كتابٍ لم تقرأه كاملًا؟

والأعجب مما سبق، أن نيافة الحبر الجليل (الأمبا بيشوي) لا يتحدث في التمهيد عن عزازيل، وإنما عن بحثٍ ألقيته في المؤتمر الدولي التاسع للدراسات القبطية، وهو المؤتمر الذي انعقد بالبطريركية القبطية (البطرخانة) بالقاهرة في منتصف سبتمبر ٢٠٠٨ وكان المطران حاضرًا فيه ورفض آنذاك ما قبلته أنا من اقتراح بعض الآباء الأجلاء، أن نجلس سويًّا في ندوة محدودة كي نصفِّي ما يتوهم الأمبا بيشوي أنها خلافات بيننا. ولكن الأمبا المطران يومها رفض الاقتراح بحسمٍ، وعلَّل رفضه بأنه (يؤلف) كتابًا للردِّ على الرواية، وسوف يجلس معي بعد صدور الكتاب! وبعد صدور الكتاب جلس نيافة الحبر الجليل مع الصحفيين ليدلي بالحوارات الكثيرة، ومع المذيعين ليصبَّ جام غضبه عليَّ من جديد، وكأنه لا شاغل له في الحياة إلا رواية عزازيل ومؤلفها. بل بلغ من كرم أخلاق المطران، أن قال كلامًا لم أكن أحب أن يصدر منه، ولا أريده حتى أن يعتذر عنه. فمع أنه يعلم أن هذا المؤتمر الدولي للقبطيات كان سينعقد في فندق سونستا، وقبل يومين فقط من انعقاده تقرر أن تكون جلساته بالبطريركية المرقسية بالعباسية (البطرخانة) وهو يعلم أنني لم أكن متحمسًا للمشاركة في هذا المؤتمر، لولا إلحاح عددٍ من آباء الكنيسة (القبطية) الكبار، الذين أصروا على مشاركتي بالمؤتمر. لكن المطران على الرغم من ذلك كله، يقول للصحفيين بعدها الكلام التالي الذي نشرته عدة جرائد ومواقع إنترنت، وسوف أورده فيما يلي بنصِّه، ولن أعلِّق عليه لأنه كلام

لا يستحق التعليق.. يقول الأمبا المطران، ما نصه: «في المؤتمر كان يمكن أن أقول: لهم طلَّعوا الرجل ده بره، كنت مندوب البابا وكان يمكنني أن أقول لهم طلَّعوا الرجل ده بره، أنا لم أُشرف على المؤتمر، صحيح، لكني لو صمَّمت على ذلك، كانوا طلَّعوه بره. وكان يجلس على يمينه ويساره أساقفة، ولم أقل لهم قوموا من مكانكم وسيبوا الراجل ده يقعد لوحده».. هكذا تكلم المطران!

ولا بد أن نختتم الكلام عن قلق المطران، بالإشارة إلى أنه بدأ مناقشة بحثي في المؤتمر، قبل الكلام عن عزازيل التي ألَّف كتابه للرد عليها، وهو دليلٌ آخر على قلقه. فقد كان بحثي بعنوان «اللاهوت العربي» وهو عنوان كتابي الذي صدر بعد كلامه بفترة وجيزة، وكان يثير قلق المطران من قبل أن يصدر.

مستويات الخلل المنهجي

هناك عدة مستويات من الخلَل المنهجي في الكتاب المنسوب للأمبا بيشوي، وأول مستويات هذا الخلل أن نيافة الأمبا المطران يظن أن «عزازيل» هي وثيقة تاريخية أو محضر رسمي لواقعة أو سيرة فعلية لأحد الرهبان، مع أنها ببساطةٍ شديدة وحسبما هو وارد على غلافها (رواية) ولكن لأنه غير معتاد على قراءة الأدب، فقد انخدع بالإيهام الفني الذي ورد بمقدمة عزازيل، فظنها كتابًا يمكنه الرد عليه بكتاب. ولو كان الأمبا قد استفسر أو سأل لكان قد عرف أن عديدًا من الروايات الأدبية والقصائد الشعرية، المشهورة منها وغير المشهورة، لجأت إلى هذا الإيهام باعتباره تقنية من تقنيات السرد الروائي الحديث. فعلى سبيل المثال، بدأت أشهر رواية في الأدب الإسباني «دون كيشوت» أو «دون كيخوته» بإيهام القارئ بأنها أوراق تركها أحد الموريسكيين، فقام المؤلف «ثربانتس» بنشرها. وبدأت رواية أُمبرتو إكّو المعروفة «اسم الوردة» بأنها: مخطوطة بالطبع! وفي الأدب المصري المعاصر، كثير من الأمثلة على هذه الحيلة الفنية والتقنية السردية التي تسعى لاجتذاب القارئ وإشراكه في النص، فمن ذلك: الزيني بركات، لجمال الغيطاني (رواية) من يوميات المتنبي في مصر، لمحمد جبريل (رواية) ديوان النباحي، للدكتور حامد طاهر (شعر) مقتل هيباتيا الجميلة لمهدي بندق

(مسرحية).. فضلًا عن الديوان الشهير للشاعر أمل دنقل «أقوال جديدة عن حرب البسوس» وهناك كثيرٌ من الأمثلة على هذا النوع من النصوص الأدبية.

وفي الأدب الروائي تحديدًا، لا بد من وجود شخصيات تتصارع وتتحابّ، وتجتمع وتفترق، وتتنوع رؤاها وتتعدَّد مصائرها عبر الأحداث الروائية، التي تتصاعد تدريجيًّا بالوقائع الروائية من المبتدأ إلى المنتهى، عبر لغة أدبية خاصة وصور فنية يرسمها الخيال الروائي، كي يستشفّ القارئ من ذلك كله، ما يسمى «الخطاب الروائي» أو رؤية المؤلف المبثوثة بين حنايا النص الروائي.. ولأن الأمبا المطران غاب عنه ذلك كله، أو بعضه، فقد ظهر مستوى آخر من مستويات الخلل المنهجي في (قراءة) المطران للرواية، وهو ما تجلَّى بوضوح في كتابه الذي يظن هو أنه (رد) على الرواية. إذ يتوهَّم المطران أن الروايات عبارة عن (بيانات) يمكن له أن يتعقَّب عبارةً منها أو فقرة مجتزأة، ويسارع إلى التنديد بها والرد عليها. ولذلك نراه في طول (كتابه) وعرضه، يلتقط جملة حوارية ما، مردودًا عليها بعد حين أو غير مردود، ويثور ضدها باعتبارها تقريرًا يخالف التاريخ الذي يراه نيافة المطران صحيحًا، ولا يرى غيره. ثم يخرج من بعد ذلك كله بنتيجة عجيبة، هي أن الرواية بها أخطاء تاريخية. ومن ثم فهي تزييف للتاريخ، وعلى هذا فهي تهدم العقيدة.. هكذا يفكِّر المطران.

ولا أعتقد من جانبي أن (عزازيل) بحاجة إلى تأكيد روائيتها. لأنها ببساطة شديدة واحدةٌ من الأعمال الأدبية، وقد شهد لها بذلك عشراتٌ من كبار النقاد والكُتَّاب الأقباط والمسيحيين والمسلمين والعلمانيين، وعشرات الآلاف من القراء في مختلف المشارب والاتجاهات، رجالًا ونساءً. ثم جاء قرار لجنة التحكيم الدولية لجائزة البوكر العربية مؤكِّدًا قيمة «عزازيل» الأدبية فارتفعت بعد ثلاث تصفيات، إلى المستوى الأول للرواية العربية العالمية. وقد جاء قرار اللجنة بمنح الجائزة لعزازيل بإجماع الأعضاء، وهؤلاء الأعضاء (الدوليون) فيهم مسلمون ومسيحيون، عرب وأجانب، وليس فيهم ناقدٌ واحد يعيش بمصر المحروسة. فكيف يتوهَّم المطران أن اللجنة الدولية منحت الجائزة لعزازيل، لأنها تهاجم أحد آباء الكنيسة القبطية القدماء؟

ويقع المطران في خطأ منهجي جديد، حين يتصور أن الشخصيات الروائية يجب أن تكون مثل (جوقة) تردِّد الكلام نفسه، فلا تقول أي شخصية أي كلمة مخالفة، أو معبرة عن وجهة نظر أخرى غير تلك التي يعتقدها المطران أو بالأحرى يتوهَّمها، وهذا عجيبٌ جدًّا. ومن هذه الزاوية غاب عن المطران طبيعة الخطاب الروائي في عزازيل، وكيف أنها في النهاية تنتصر للإنسان ضد العنف المقيت الذي يتوَسَّل بالدين. ثم غاب عنه أن الشخصيات لا بد أن تتنوَّع وتتصارع أفكارها ومواقفها، وأننا حين نضع على لسان شخصية روائية قولًا ما، فهذا لا يعني بالضرورة أن ذلك هو رأي المؤلف. وإلا صارت المسألة مهزلة. فقد استعرض الأستاذ نجيب محفوظ شخصية القوَّاد في «القاهرة ٣٠» واستعمل جوته شخصية إبليس في «فاوست» واستعمل نيكوس كازانتزاكس شخصية المسيح في غير واحدةٍ من رواياته، فهل هؤلاء المؤلفون بالضرورة، هم هذه الشخصيات على اختلافها؟.. إنني حزينٌ لاضطراري إلى شرح هذه البديهيات التي انكفأتْ في وعي المطران، فقديمًا قال الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس: إن أخطر الأشياء على العقل الإنساني، انكفاءُ البديهيات.

وهناك مستوى آخر من مستويات الخلل المنهجي في تناول الأمبا لرواية عزازيل، وهو توتره الشديد تجاه شخصيتين بالرواية، الأول هو الراهب الشهير «آريوس» الذي ورد ذكره بشكل عارض مرة واحدة، والآخر هو الأسقف الكبير «نسطور» الذي جاء ذكره عدة مرات، لأنه كان من الشخصيات الأساسية في النصف الثاني من الرواية. ووجه الخلل المنهجي هنا، أن نيافة المطران لم يستطع التفرقة بين رأيه الشخصي في آريوس ونسطور من جهة، ومن الجهة المقابلة «السياق الروائي» الذي ورد ذكرهما خلاله، مما أدى بالمطران إلى ارتباك (شديد) في رد الفعل (الشديد) الذي أبداه ضد الرواية بعد شهور طوال من صدورها في عدة طبعات. إلا أن المطران لا يطيق أن يسمع أو يقرأ اسم «آريوس» واسم «نسطور» لأنهما يختلفان في الاجتهاد اللاهوتي عما يعتقده المطران، أو بالأحرى: كانا قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة، يقولان آراء تخالف ما يعتقده المطران اليوم.. وعلى كل حال، فسوف أعود بعد قليل إلى آريوس

ونسطور، التاريخيين، حتى أوضح لنيافة الأمبا أن هناك وجهة نظر أخرى فيهما، غير وجهة النظر التي يعتقدها هو.

وكان من الطبيعى أن يؤدي هذا الخللُ المنهجي، بمستوياته المختلفة، إلى لجوء المطران مرارًا إلى الحيلة الشهيرة (لا تقربوا الصلاة) من دون استكمال النص (وأنتم سكارى) ولذا راح يلتقط من حوارات الشخصيات بالرواية فقرات بعينها، أو عبارات مجتزأة، كي يثبت بذلك دعواه التي لم تثبت أبدًا وسوف تظل دومًا مثيرة للاستغراب. أعني دعواه العجيبة الزاعمة أن «رواية عزازيل هي أبشع كتاب عرفته المسيحية».

أبشع كتاب.. لماذا يا نيافة الأمبا؟ ألم تَرَ في عزازيل رقَّة الترانيم الإيمانية، ولحظات الصفو الديني للراهب هيبا؟ وكيف غاب عنك قلقه من علاقته بأوكتافيا ومرتا، وهو قلق نابع من صراع الدافع الإنساني مع الوازع الديني، أم أنك تظن أن الرهبان ليسوا بشرًا أو أنهم لا يخطئون؟ وكيف غابت عنك ما دُمْتَ قد قرأت الرواية، مشاهد مثل احتضان الراهب هيبا لصورة العذراء وبكائه على صدرها، ولقائه بالقديس خريطون الذي كان (تاريخيًّا) يختلي في مغارات البحر الميت، وهيمان الراهب هيبا روحيًّا عندما حضر القداس ببطريركية أنطاكية؟ وكيف تقول يا نيافة المطران إن الرواية ضد كنيسة الإسكندرية، وضد العقيدة المرقسية، وضد القبطية؟ سوف أعود لاحقًا لمسألة (القبطية) هذه، لكنني الآن سأوضح لك ما يلي، حتى يهدأ بالك قليلًا: هناك عديد من الشخصيات (القبطية) التي ظهرت بشكل إيجابي في الرواية، فمن ذلك عمّ الراهب هيبا الذي تولَّى تربيته، والقس الأخميمي، والقس يوأنس الليبي، والثري الدمياطي. وغير هؤلاء كثيرون بالرواية، لكنك يا نيافة المطران تظن أن الأسقف كيرلس هو وحده المرقسي، وهو وحده السكندري، وهو وحده القبطي، وهو وحده الإلهي المقدَّس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذا مستوى آخر من مستويات الخلل المنهجي، لأن الرواية (عزازيل) لم تقدِّم الأسقف كيرلس بغير ما اشتهر به، ولأن كل إنسان من شأنه أن يخطئ ويصيب. أم تراك تظن أن الأسقف كيرلُس لم يكن إنسانًا؟

وقد قاد الخللُ المنهجي نيافة المطران، إلى جرأةٍ شديدةٍ في تقرير عبارات عجيبة منها قولـه: «بدأ د. يوسف زيدان روايته بخدعة أطلقوا عليها حيلة فنية وإبداع، كان

من الممكن اعتبار الأمر كذلك لو كانت مجرد رواية أدبية لم تتعرَّض لكنيسة مجيدة ولدين سماوي شوَّه د.يوسف صورته وجرَّده من كل ما هو إلهي، وزيف حقائق تاريخية راسخة على مدى ستة عشر قرنًا من الزمان، وقد تجاهل تمامًا مشاعر الأقباط المسيحيين الذي نشأ وعاش بينهم» وبعد ذلك بصفحتين فقط، يتغير الأسلوب فجأة حين يخاطب المطران قارئه، خاطبًا وُدَّه، بقوله: «عزيزي القارئ.. نَهَجَ زيدان نَهْجَ دان (براون) فهل اسمه مجرد صدفة، زيدان = «زي» «دان»!

وهكذا يقتحم السياق كاتبٌ خفيفُ الظل، حتى إنني ابتسمتُ حين قرأت هذه (القفشة) ورأيتها واحدةً من نكات المطران التي أراد أن يخفِّف بها من كآبة كتابه، لكنني للأسف وجدتُ الفقرة التالية عليها مباشرة، تعود بالسياق إلى حالة الكآبة. ومن الواضح أن هذه الفقرة التالية كتبها شخصٌ آخر من ذلك الفريق الذي صرَّح الأمبا المطران أنهم كانوا (المساعدين) له في الكتاب لكنه لم يذكر أسماءهم، وهو بالقطع شخصٌ مختلفٌ تمامًا في لغته وأسلوبه، عن الشخص الذي (قفش القفشة) السابقة. يظهر لنا ذلك بوضوح، حين نقرأ الفقرة كاملة (صفحة ٣٠٤) حيث يقولون: «فهل اسمه مجرد صدفة، زي دان، يا للعجب، فابهتي أيتها السموات واقشعري أيتها الأرض».

لماذا يا نيافة المطران تريد للسماء أن تبهت؟.. وتعبيرك لا يصحُّ على كل حال من حيث اللغة العربية السليمة، فالبُهت من (البهتان) الذي لا تعرفه السماء، لكنك وافقت على استعمال المعنى العامي في سياق فصيح من دون الانتباه إلى أن السماء لا تبهت. ولماذا يا نيافة المطران تريد من الأرض أن تقشعر فتقوم الزلازل، هل من أجل (قفشة) خفيفة الظل، تشير للتشابه بين لقبي والاسم الأول لمؤلف شفرة دافنشي؟.. ما هذا يا نيافة المطران.

وحسبما يظهر من (أساليب) الكتاب المنسوب للمطران، فإن هناك خمسة أشخاص على الأقل قد كتبوه، ولذلك تخلخل سياق الكتاب واضطرب الأسلوب كثيرًا، بسبب تقلُّب الكاتبين واختلافهم. ففي بعض الصفحات يستمر السياق الوعظي المدرسي متصلًا، حتى يقطعه فجأة أسلوبٌ هجوميٌّ عنيفٌ لا يكف عن التنديد، والتعنيف. وفجأةً

يتغير السياق، فيتدفَّق معتمدًا على حشد نصوص كاملة من تراث الآباء السابقين، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى أسلوب معاصر يتعرَّض بلطفٍ إلى مجريات الأحوال في مجتمعنا المعاصر.. ولو استخلصنا من جملة ذلك، كل ما يخص الرد على رواية عزازيل في كتاب المطران، فلن نجده يزيد على صفحات معدودة، لعلها خمس عشرة (في كتابٍ كبير القطع، يقع في ٣٨٠ صفحة) ظل نيافة المطران يوسِّع بين سطوره ويكبِّر أبناط حروفه، حتى يملأ من الصفحات، العدد ذاته الذي جاءت فيه رواية عزازيل في طبعاتها العديدة[1]. وكان يمكن للمطران ببساطة، أن يرد على الرواية (إن كان لا بد له من ذلك) بمقالة واحدة، ويستغني عن كل هذا الحشو الذي لا داعي له.

ومن أعجب وجوه الخلل، أن المطران في خاتمة (الرد) يستشهد ضدي بنصٍّ من المزامير، يشير إلى خيانة يهوذا الإسخريوطي للسيد المسيح. فيضع في صفحة ٣٧٥ تحت عنوان «صديق سابق» ما ملخصه أنني بعدما كنا أصدقاء، خنتُه وكتبتُ عزازيل! وأقول هنا لنيافة المطران، إن رواية عزازيل كُتبت سنة ٢٠٠٦ وتم التعاقد على نشرها في صيف ٢٠٠٧ وصدرت في بداية سنة ٢٠٠٨ وقد عرفتك يا نيافة المطران بعد انتهائي من كتابة الرواية، وكان أول لقاء بيننا في صيف العام ٢٠٠٧، وقد التقينا بعد صدور الرواية بشهور في مؤتمر المخطوطات (مطلع صيف ٢٠٠٨).. فلا داعي ولا مجال، لما تكرِّره من الدعوى بأنني أخذت منك مصادر الرواية، ولا داعي ولا مجال لتشبيهي بيهوذا الإسخريوطي. لأنك لست المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ثم يقع نيافة المطران في خلل منهجي جديد، فادح، حين يتَّهمني صراحة بأنني أُمجِّد هيباتيا، العالمة الرياضية الشهيرة التي قتلها المسيحيون بالإسكندرية سنة ٤١٥ ميلادية ثم أظلم العالم كله من بعدها لقرابة خمسة قرون. والغريب هنا أن الأمبا المطران، بحسب ما ذكره على ظهر غلاف كتابه، هو (خريج كلية الهندسة، جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣) فكيف يمكن لخريج كلية الهندسة، أن يجحد فضل العالمة

---

(١) كانت طبعات الرواية عند نشر هذه المقالة قد بلغت أربع عشرة، وعند إعداد هذا الكتاب للنشر وصل العدد إلى سبع وعشرين طبعة (رسمية) عدا الطبعات المزورة وعمليات التحميل من مواقع الإنترنت.

الرياضية الفيثاغورية الشهيرة، هيباتيا ابنة ثيون الرياضي السكندري العظيم.. كيف؟.. وهيباتيا هي التي قدمت صنوفًا من البحوث الرياضية، وشرحت كتاب الجبر لديوفنطس السكندري، وأحيتْ مجد الإسكندرية العلمي الذي انطفأ بموتها.

وكيف طاوعك لسانك وقلمك يا نيافة المطران وأنت خريج كلية الهندسة، إلى اتهام هيباتيا بممارسة السحر.. السحر.. كيف؟ هل عرفت يا نيافة المطران أو عرف غيرك، أن هناك شخصًا واحدًا في التاريخ الإنساني، كان رياضيًّا وفي الوقت ذاته ساحرًا. إن الاشتغال بالرياضيات يا نيافة المطران، يضاد الاشتغال بالسحر والخرافات. بل إن الاشتغال بالرياضيات هو مقدمة لأي تفكير إنساني قويم، ولذلك كتب أفلاطون على باب مدرسته (الأكاديمية) عبارة: «لا يدخل علينا إلا مَنْ درس الهندسة».

فما الذي تحاوله يا نيافة المطران.. أتريد تشويه صورة هيباتيا؟ إنك لن تستطيع النيل من رمز باهر من رموز الإنسانية، مهما حاولت. ولن يجديك نفعًا، أن تستعير حجةً ضعيفةً كتبها رجال دين قدماء من أمثال سوزومين وسقراط المسيحي (بزعم أنهما مؤرِّخان) ضد شهيدة العلم وربة الرقة وأستاذة الزمان «هيباتيا» وقد كتب هؤلاء تبريراتهم البائسة، غير المقنعة، بعد مقتلها بسنوات. لأنها على زعمهم، كانت تشتغل بالسحر! ولا يصحّ أن يقال هذا عن هيباتيا، أبهى امرأة في الزمن القديم كله، وأذكى نساء الإسكندرية في كل العصور.. وكيف ترى يا نيافة المطران، إذن، شهادة سينيسيوس في حق هيباتيا، الذي قال إنها جعلت الإسكندرية منارة العلم في العالم ؟ وهو كما يعرف الجميع، كان رجلًا مسيحيًّا، بل رجل دينٍ، بل أسقفًا للمدن الخمس الغربية المسماة اليوم ليبيا.

فيا نيافة المطران، دعنا من الجدال وتعال إلى كلمة سواء. لقد كان مقتل هيباتيا على هذا النحو الفاجع كارثةً إنسانية، ينبغي علينا أن نتذكرها بأسى ونعتذر عنها، ونطلب لمن اقترفوها وتجرَّءوا عليها الغفران والصفح، فلعل الله يستجيب. ولعله تعالى يرحمنا جميعًا، فلا نشهد ثانيةً مثل هذه الفعلة الشنعاء التي مهما حاول مقترفوها والمعجبون بهم تبريرها، فسوف تظل سُبَّة في جبين الإنسانية، ولحظة عار في تاريخ الإسكندرية.. مدينتي.. ومدينتك.. ومدينة الله العظمى (في الزمن القديم).

ظُلم المطران لأخيه المطران

في الكتاب المنسوب غلافه لنيافة الأمبا عجائبُ كثيرة، من أغربها وأكثرها مدعاة للدهشة تلك الإشارة التي وردت في بداية الكتاب، حيث يقول المطران أو أحد (المعاونين) الذين تعاقبوا جميعًا على تجميع هذا الكتاب الأعجوبة، ما نصه بالحرف الواحد: «ما هو الهدف من رواية د.يوسف زيدان؟!(1) هل معرفة جزء من تاريخ مصر كما أراده ورآه د.يوسف زيدان، وصديقه في حلب نيافة المطران، الذي نكاد نرى بصماته في كل فصل من فصول الرواية، وربما في أغلب صفحاتها. أم أن الهدف هو تحطيم إيمان النفوس الضعيفة.. إلخ»(2).

وللوهلة الأولى، بدت لي الفقرةُ السابقة كواحدة من السقطات غير المقصودة، أو كواحد من سهام المطران الطائشة التي يمتلئ بها الكتاب المنسوب إليه، خاصةً أنها تأتي بدون مناسبة وبدون معنى، في حق عالم جليل يعترف بفضله الجميع هو الأب الجليل يوحنا إبراهيم (غريغوريوس) مطران السريان الأرثوذكس بسوريا، ورئيس الطائفة في حلب. وهو مطران أبرشية حلب العريقة، الضاربة بجذورها في التاريخ المسيحي، وأحد كبار اللاهوتيين وأكثرهم احترامًا على مستوى العالم أجمع.

ولم أفهم للوهلة الأولى، ما يقصده المطران (بيشوي) من إشارته للمطران (يوحنا) ولماذا يتوهَّم أن «بصماته في أغلب صفحات رواية عزازيل».. فظننتُ أن الأمر فيه خطأ مطبعي، أو فقرة ساقطة، أو اضطراب في ترتيب الكتاب الطافح بالاضطرابات أصلًا. ومن هنا، غضضتُ النظر عن تلك الإشارة غير اللائقة، بل المسيئة لي وللمطران الجليل يوحنا إبراهيم، الذي عرفته أواخر سنة ٢٠٠٧ في الوقت ذاته الذي تعرفت فيه إلى الأمبا بيشوي (أي بعد الانتهاء من كتابتي للرواية) ثم كان لقائي الثاني به في حضور الأمبا بيشوي، حيث دعوتهما معًا إلى مائدة غداء واحدة (شهر مايو ٢٠٠٨) أي بعد صدور رواية عزازيل بفترة، وكان اللقاء بيننا يومها وديًّا للغاية، حسبما توهَّمتُ

(١) علامة الاستفهام من عندهم، وعلامة التعجب من عندي.

(٢) الرد على البهتان، ص ١٣.

آنذاك، بل جرى الكلام أثناء الغداء عن الرواية (عزازيل) فامتدحها المطران (يوحنا) أمام المطران (بيشوي).. ومرَّ اليوم مفعمًا بالمسرَّة والمحبة.

ولما سبق، لم أتوقَّف عند الإشارة السابقة واعتبرتها كأنها سهو أو خطأ غير مقصود، ولكن الفاجعة غير المتوقعة من الأمبا بيشوي، جاءت بعد ثلاثمائة صفحة من كتابه (الأعجوبة) وتحديدًا في الفصل الثالث من الباب الثالث من الكتاب، وهو الفصل الذي جاء بعنوانٍ غامضٍ يبدو للوهلة الأولى كأنه عنوان فيلم سينمائى، هو: سر المطران.. وقد اعتقدتُ في بداية الأمر أن الأمبا يقصد نفسه، أو أن لديه أسرارًا سوف يُفصح عنها في هذا الفصل. لكن الأمر اتضح جليًّا مع ابتداء هذا الفصل الأغرب، الذي يشغل تسع صفحات تبدأ من صفحة (٣١٣) وهي بالمصادفة، سنة إصدار مرسوم ميلان للتسامح الديني مع الديانة المسيحية، والاعتراف بها كواحدةٍ من (الديانات) المسموح بها في الإمبراطورية البيزنطية، إلى جانب الديانات الوثنية المعترف بها آنذاك.

في هذه الصفحة البائسة، رقم ٣١٣، وضع الأمبا بيشوي عنوان الفصل كاملًا كالتالي: سر المطران المسيحي الأرثوذكسي المعجب بشغف بالرواية الهدَّامة للمسيحية الأرثوذكسية! (علامة التعجب من عندي) ثم راح يقول ما نصه: «هذا المطران يُبدي إعجابه الشديد بهذه الرواية.. وهو في هذا لا يمثل إلا نفسه فقط.. ونحن نتعجَّب، كيف وهو راهبٌ يقرأ الأجزاء اللاأخلاقية في الرواية.. ثم بعد ذلك يصفها في الندوة التي أُقيمت في حلب في ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٨ بقوله: قرأت الرواية بشغف رغم كثرة مشاغلي وأسفاري، لكني لم أستطع الكفَّ عن قراءة هذا النص الروائي الممتع، والذي لا يعرف تاريخ المسيحية لن يعرف مراد د. يوسف زيدان من الرواية، فهي رواية لاهوتية بحتة ترتبط بحقائق التاريخ وتخترق الخطوط الحمراء وتخترق أسوار الأديرة، وتقدم لغةً على قدر من الإعجاز البياني، خاصةً أنها تربط بين اللغتين السريانية والعربية، لتوجه الأفكار بقوة إلى أهمية التراث والمخطوطات، وإلى التاريخ الذي يسبق الإسلام، لأن يوسف زيدان يرى أن انتماءه العميق لهذه الأمة يعطيه الحق في النظر في تراثها الإسلامي والمسيحي، فالتاريخ المسيحي ليس ملكًا للمسيحيين وحدهم».

وبعدما قدم المطران (بيشوي) هذا الاقتباس من كلام المطران يوحنا راح يتخبَّط، كمن يبحث عن قطةٍ سوداء في غرفةٍ ظلماء. حتى إنه لم يتورع، مع أنه أهل للورع، عن القول «ماذا يعني نيافة المطران (يوحنا) بهذا الكلام؟ هل هو على غير قصد منه، قد كشف أن صديقه (يوسف زيدان) وضع ما يدور في فكره من تيهٍ، وتشوُّشٍ وحقدٍ على الديانة المسيحية».

وبطبيعة الحال، فلن ننظر في تناقضات المطران هذه على أساس منطقي عقلاني، لأن كلام المطران (بيشوي) لا يخضع للعقل ولا المنطق. وإلا فكيف يقول أولًا إن المطران (يوحنا) تظهر بصماته في أغلب صفحات الرواية، موحيًا للقارئ بأنه كتبها معي، ثم يقول بعدها إنني وضعت في الرواية ما يدور في فكر المطران يوحنا.. وكيف يقال عن الأب الجليل، العلامة (يوحنا إبراهيم) إنه حاقد على الديانة المسيحية؟ وهو الذي قضى عمره كله، ولا يزال يقضيه، في خدمة كنيسته الأنطاكية الوقور التي قدمت للمسيحية تراثًا هائلًا في الفهم والتفهم والتسامح، منذ قديسها البديع يوحنا ذهبي الفم، بل من قبله ومن بعده.

وليت المطران (بيشوي) قد اكتفى بهذا القدر من الهجوم على المطران (يوحنا) وإنما نراه يقول غير عابئ بكل ما أوصى به يسوع المسيح، عيسى عليه السلام، من المحبة حتى مع الأعداء ومن التواضع حتى مع الأقل شأنًا، ومن التسامح حتى مع الذين يلطمون خدودنا.. رحماتك يا أم النور.. يقول المطران بيشوي ما نصه: «أكد نيافة المطران (يوحنا) أنه قرأ الرواية قبل صدورها» (وهذا حقٌّ، لأنني أرسلت له نسخة إلكترونية في شهر ديسمبر ٢٠٠٧ قبل صدورها بشهر، لأنه كان خارج سوريا). وأبدى إعجابه الشديد بها كعمل فني من طراز رفيع، وأن يوسف زيدان كتب بريشة راهب يرسم أحداثًا كنسية حدثت بالفعل.. ثم يقول المطران (بيشوي) بعد ذلك: «السر وراء الموقف الغريب الذي يتخذه نيافة المطران (يوحنا) أنه قدم بحثًا عام ١٩٩٧ بواشنطن دافع فيه عن نسطور، ولكن مَنَعته الرئاساتُ الكنسية من نشره، وقدَّمه لي شخصيًّا لكي أعدِّله وأحذف منه.. لذلك استتر وراء الكاتب المسلم، وشجَّعه أن ينشر ما عجز هو

عن نشره.. فعلى ما يظهر أنه (يقصد المطران يوحنا) أمدَّ المؤلف بالمادة المطلوبة، ثم قام بمراجعة الرواية في النهاية». ثم يضيف المطران (بيشوي) وليته ما أضاف: «وفي إطار التحالف المذكور بين د. زيدان ونيافة المطران.. فإنني أشفق على شعب كنيستينا الشقيقتين (الإسكندرية، أنطاكيا) من هذا التضليل الذي يحاول أن يعيد الصراع المفتعل بين مدرستيهما..».

ما هذا الذي يقوله الأمبا بيشوي؟ وعلى أي أساس يطلق هذه الاتهامات العشوائية عن (التحالف.. البصمات.. الحقد على الديانة المسيحية.. الصراع بين الكنائس.. إلخ)، وكيف جاز له أن يظلم المطران الجليل يوحنا إبراهيم، ويتهمه بأنه قدم لي (مادة) الرواية؟ مع أنه قال قبل شهور إنه هو نفسه الذي قدم لي (المادة) التي اعتمدت عليها في الرواية. وهذا كله في حقيقة الأمر، باطل من تحته باطل ومن فوقه باطل. لسببٍ بسيطٍ هو أن هذه (المادة) تطفح بها المصادر والمراجع التي يعرفها المطران (بيشوي) والتي لا يعرفها، ولو كان قد قرأ مثلًا أعمال الباحث المصري د. رأفت عبد الحميد، لكان قد عرف أن الأمر لا يستحق كل هذه التحالفات والاتهامات المتناقضة التي يجرِّبها ضدي واحدةً بعد أخرى. فقد ذكر هذا الباحث المصري في كتبه الكثيرة المتداولة، حقائق أشد وأعتى مما ورد في روايتي.

وعلى كل حال، وتطبيقًا لما دعا إليه السيد المسيح، فسوف أشرح للمطران (بيشوي) موقف المطران (يوحنا) كي يهدأ قليلًا ويرتاح باله، ثم أشرح له «السر» في حملته الشعواء النكراء على المطران الجليل يوحنا، ثم أبين له أخيرًا أن المطران الجليل لم يتدخل من قريبٍ أو بعيدٍ في الرواية، أثناء كتابتها، لأنني لم أكن أصلًا قد عرفته آنذاك.. فأقول أولًا:

أما الذي دعا المطران يوحنا للإعجاب برواية (عزازيل) فهو أنه بالفعل متخصِّص في اللاهوت، وليس في أشياء أخرى، فقد درس هذه الموضوعات المعقدة منذ صغره فحاز دبلوم العلوم اللاهوتية والفلسفية من كلية مار أفرام اللاهوتية بلبنان، ثم التحق بالمعهد الحبري الشرقي في روما وحصل منه على الليسانس، ثم التحق بجامعة برمنجهام

البريطانية.. وبعد حين من الزمان، صار يوحنا إبراهيم (المطران الجليل) مديرًا لكلية مار أفرام اللاهوتية بلبنان، وفي العام ١٩٧٩ تمت سيامته مطرانًا لأبرشية حلب. إذن، فهذا الأب الجليل يعرف اللاهوت حقًّا، وقضى عمره في دراسته. ولم يقض أيامه في اللعب السياسي. وهو لم يُعرف عنه مثلما عُرف عن الأمبا بيشوي، الهجوم على أعلام الكنائس الكبار من أمثال الأب متى المسكين، والأمبا غريغوريوس (القبطي) الذي كان بالفعل واحدًا من أجلَّاء الآباء. ولهذه الأسباب، أدرك المطران الجليل (يوحنا إبراهيم) قيمة الجهد البحثي الجهيد الذي بُذل قبل كتابة الرواية، وقد ظهر هذا الجهد الذي لا يعلمه إلا الله، هامسًا في النص الروائي حسبما يقتضي السياق الروائي.

ولأن الأب الجليل «المطران يوحنا» متخصصٌ في الموسيقى السريانية والترانيم الكنسية، فقد أدرك ما لم يدركه المطران (بيشوي) من الرهافة الروحية والفنية في الرواية. وقد عبر صراحةً عن اندهاشه وإعجابه بها، من دون الوقوع في تلك (الحسابات) السياسية بالمعنى السيئ للكلمة، ومن دون التوغل في متاهة المؤلِّف المسلم والنص المسيحي مثلما فعل الأمبا بيشوي.. فالمؤلف في النهاية إنسانٌ، يكتب عن الإنسان.

وأما الحملة الشعواء للمطران (بيشوي) على المطران (يوحنا) فالسرُّ فيها هو الآتي: يعتقد الأمبا بيشوي في ذاته، أنه امتداد للأسقف (البابا) كيرلس الملقب لاحقًا بعمود الدين، مثلما يلقب الأمبا بيشوي حاليًا بأسد الكنيسة. لا بأس إن كان ذاك عمودًا أو كان هذا أسدًا، فإن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم، وما أنزل الله بها من سلطان. ولكن هذا الاعتقاد بالمماثلة، قاد الأمبا بيشوي إلى سلسلة من المماثلات المرتبطة بهذا الوهم. وقد أشرتُ سابقًا إلى أن الأمبا بيشوي يعتقد أنني أمثل شخص نسطور، وهو لا يكف عن إظهار دهشته مما يعتقده من إعجابي بالأسقف الجليل نسطور (وسوف أشرح له هذا الأمر بعد قليل).. وقد كان من أنصار نسطور، قديمًا، مطران حلب ورئيس أبرشيتها الذي كان اسمه أيضًا (يوحنا) وكان أيضًا تابعًا لكنيسة (أنطاكية) التي يتبعها اليوم المطران يوحنا إبراهيم. ولأن المطران يوحنا

الحلبي الأنطاكي القديم، انتصر لنسطور وحَكَمَ بَحْرم الأسقف كيرلس السكندري (أي إخراجه من نطاق الديانة المسيحية تمامًا) ولأن المطران يوحنا الحلبي الأنطاكي المعاصر، انتصر لرواية عزازيل. فقد تخيل الأمبا بيشوي أننا عدنا إلى سنة ٤٣١ ميلادية، وأننا في أجواء مجمع أفسوس المسكوني، وأن عليه أن يصبَّ اللعنات (الأناثيما) على رءوس المخالفين له في الرأي. ولذلك لم يتورَّع عن اتهام المطران (يوحنا) بهذه الاتهامات التي لو صحَّت، لكانت كفيلةً أن تخرجه عن نطاق الديانة، فهي اتهاماتٌ خطيرةٌ عقائديًا وشديدة الفداحة.. الحقد على الديانة المسيحية.. معاذ الله..

فيا نيافة الأمبا (بيشوي) حنانيك.. اهدأ قليلًا.. ولا يغرنك من حولك من أهل التهليل والتهويل.. ولا تظنن أنك تشوي المخالفين، فنيرانُك موهومة. وهذه النيران التي يلتهب بها كتابك وتصريحاتك الصحفية، غير محرقةٍ. واتهاماتك التي تجرِّب منها واحدةً بعد أخرى، تظل دومًا غير مقنعة. وثورتك العارمة على رواية عزازيل، مهما بالغت فيها، فهي غير مجدية.. فأنا لست نسطور، وهو ليس يوحنا الأنطاكي، وأنت لست الأسقف كيرلس. أنت الآن مطران أي رئيس أساقفة، وكذلك المطران يوحنا إبراهيم. ولا يجوز أن يعرِّض المطران بالمطران على هذا النحو، ولا يجوز لك أن تظلمه هذا الظلم الفادح. ولسوف نجتمع معًا في ميقات يومٍ معلوم، ويعلم آنذاك الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون.

وأما النقطة الأخيرة هنا، وهي أن المطران يوحنا إبراهيم لم يكن له دخل من قريب أو بعيد في نص (عزازيل) الذي يتوهَّم المطران (بيشوي) أن بصماته تظهر في معظم صفحاتها. فبيان ذلك لن أصرِّح به إلا رمزًا وتلميحًا، واستعارةً لواقعةٍ سابقةٍ مع اختلاف الحال والمقام، وأرجو من الأمبا بيشوي أن يستفهم مرادي من أحد العلماء، ويسأله عن مقصودي باختتام هذا الكلام بالآتي.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

سَوَابِقُ الطَّرَائق ولَوَاحقُ الحقَائِق

مع الصفحات الآتية أكون قد اختتمتُ كلامي مع المطران الأمبا بيشوي، ونفضتُ يدي منه بلا رغبة في المعاودة ولا نية في الاستئناف، خصوصًا أنه خدعني خدعةً كبرى تنمُّ عن ذكاء ودهاءٍ سياسي خطير، حين ظل يزعم أنه (يواجه) رواية عزازيل رأيًا برأي وحجةً بحجة، وأكَّد ذلك مرارًا في بيانه الأول الذي جاء من غير تبيان، وفي كتابه الأعجوبة: الرد على البهتان (وهو الكتاب الذي رأينا أنه يسيلُ وينزُّ بهتانًا) وفي أحاديثه التلفزيونية المسلِّية وحواراته الصحفية اللذيذة. لكنه فور استجابتي لرغبته في المناقشة، ومع أول مقالةٍ نُشرت من هذه المقالات السبعة؛ توارى فجأةً عن الأنظار واستتر خلف قسيس يسمِّي نفسه «ديسقورس» راح يرد عنه ردودًا لا تعرف الفرق بين الرد والترديد والتردُّد، ويكتب مقالات مهذبة غاية التهذيب، تليق برجل دينٍ مرموقٍ وقورٍ، بنفسه فخور.. يتقنُ إطلاق البخور.. ويكره مثل سيده، الأسقفَ نسطور.

والظاهر أن هذا التواري والاستتار والاختفاء، هو خدعةٌ معتادة ومنهج مألوف. فمن قبل المطران الأمبا بقليل، صَخِبَ عليَّ القُمُّصُ (عبد المسيح بسيط) الذي صال وجال ودعا للنـزال، حتى أخذه الشطط إلى طريق الأهوال، فاتهمني علانيةً بالإلحاد واللادينية. فاضطرني ذلك إلى اتخاذ الإجراءات القانونية ضده، فاختفى فجأةً عن صفحات الجرائد وقنوات الفضائيات. وهو الذي كان من قبلُ يملأ الأسماع بأعجب الأقاويل وأبدع التهاويل، حتى إنه قال في اليوم الذي اتهمني فيه بما سبق ذكره، أقوالًا أعجب، منها أن المسلمات محجَّبات لأنهن فقيرات! وأن د. محمد سليم العوَّا إرهابي! وأن د. محمد عمارة إرهابي! وأن الفاتح العظيم عمرو بن العاص كان «يلعب بالبيضة والحجر» على حدِّ قول القُمُّص المتحمِّس، الذي اسمه: بسيط!

ومع ذلك، فلأنني أعرف أن هذا القمُّص في الأصل، هو: عبدٌ للمسيح، وبسيط، وطيب. ولأنني كنتُ أحبُّ فيه خفَّة ظلِّه ودعاباته التي لا يكف عن إطلاقها وراء الكاميرات، ولأنني أعتقد أنه لم يكن يقصد ما يقول أو هو لم يضبط ما كان بعقله

اللطيف يجول، أو هو فقط أراد أن يصول ويطرح نفسه على أنه المهول. فلذلك كله، أراني أكثر ميلًا لمسامحة القُمُّص على تطاوله، وأقرب موقفًا لتعذيره. ولذا، فإذا اعتذر عن إساءاته اعتذارًا رسميًّا، فسوف أُسقط فورًا الدعوى القضائية التي رفعتُها ضده، وأتنازل عنها في أول جلسة[1].

وكذلك كان الأمر مع الأمبا بيشوي، الذي صرتُ مؤخرًا أتفهم أسباب هيجانه وصخبه على عزازيل (الرواية) وأتقبَّل طبيعة الدور المنوط به في الدفاع عما يسميه هو: العقيدة القويمة والأمانة المستقيمة والتقاليد المستديمة (الصواب لغةً: المستدامة) ولذلك فسوف أسامحه على ما كان منه، وأغضُّ النظر عن خدعته الأخيرة. بل سأشرح له بإيجاز مقصودي من العنوان الجانبي: سوابق الحقائق ولواحق الطرائق.. حتى لا يحتار.

تعلم يا نيافة المطران أننا، أنت وأنا، لسنا بالطبع أول الناس الذين اختلفوا في أمر نظروا إليه من زاويتين. وتعلم بالتأكيد أن ما اختلفنا فيه مؤخرًا هو بطبيعته أمرٌ خلافيٌّ غير محسوم، وقد يختلف حوله من بعدنا آخرون. فهذه (طرائق) مختلفة للنظر، لها في تاريخنا (سوابق) أدت إلى إقرار (حقائق) معينة يجب أن تكون (لواحق) ملزِمة لمن أراد أن يناقش أمرًا من الأمور، على نحو رشيد. ولذلك فسوف أختتم كلامي معك، بإشارات إلى سوابق الطرائق وما نتج عنها من لواحق الحقائق، وأجعل لك ذلك في نقاط محددة، بيانها كالآتي:

أولًا: لا يجب يا نيافة المطران الأمبا أن نترك عقولنا نهبًا للتوهُّمات، ولا يجب أن ننهمك في الخلاف بلا منهج أو قواعد أو آداب في الاختلاف. انظُرْ مثلًا ما فعله القسيس المسمى ديسقورس، الذي ناب عنك عند اختفائك، وراح يطنطن ويمخرق ويموِّه (ويزعبب) دون ضابط ولا رابط. قل له يا نيافة المطران إنه لم يكن موفقًا، ولا متوافقًا مع تعاليم المحبة التي جاء بها السيد المسيح، سواءٌ كان المسيح إنسانًا

---

(١) تنازلتُ بعد كتابتي هذا الكلام عن الدعوى القضائية المرفوعة ضد القمص «بسيط» فعاد بعد شهور للهجوم عليَّ، فعدت إلى المحكمة وصدر لي حكم ضده بالسجن والغرامة، لكنني لم أتمسَّك بتنفيذه.

نبيًا كما أعتقد، أو كما تعتقد أنت ربًا كاملًا وإلهًا لم يفارق لاهوته ناسوته طرفة عين. لا يهم ما نعتقده فيه ولا ضرر من تنوع الاعتقادات، فمن طبيعة البشر التنوع. ولكن تعاليم المسيح معروفة، بصرف النظر عن طبيعته التي طالما اختلف الناس حولها، وكان الواجب على القسيس (القَسّ) النائب عنك، أن يراعيها. ولسوف أعطي لك مثالًا على عدم كماله، من واقع كلامه الذي ظل يغني به من دون أن يُطرب، ويهوِّل فيه ويهلِّل من دون أن يضرب. وهذا المثال ورد في مقالته التي نعى عليَّ فيها أنني سهوتُ عند قراءة المكتوب على صورة المسيح (الآخر) التي وضعتها أنت في صدر الكتاب المنسوب إليك. سهوتُ فقرأتُ دميانا (دميانوس) لأن الخط المكتوبة به العبارة دقيق، لم يكن واضحًا لي بالقدر الكافي. وهذا كل ما في الأمر، فكيف عالج نائبك هذه المسألة الفرعية التافهة؟ بدأ مقالته المنشورة ضدي في جريدة المصري اليوم بقوله: «سوف أفاجئ القراء بإعلان فضيحة كبرى، مؤسسة على براعة (يوسف زيدان) في فن صياغة الكذب..» ثم تلا ذلك بقوله المؤدَّب المهذَّب: «سقط (يوسف زيدان) غير مأسوف عليه، وانتظروا مفاجأتي في السطور المقبلة» وبعدما قدم هذه التقديمات الدالة على أخلاقه القويمة وأمانته المستقيمة، صرَّح بالمفاجأة المنتظرة والفضيحة الكبرى حسب تعبيره، وذكر أنني قرأت دميانا: دميانوس! ثم قال موجِّهًا لي كلامه المحترم الذي تحاشى فيه الفحش في القول، وتجنَّبَ به الفجور في الخصام، ما نصه: «وكان ينبغي قبل السقوط في هذه الهوة العظيمة، أن تسترشد بدارس للغة الإنجليزية، أو يكفيك في هذا الشأن أحد أطفال المدارس الإنجليزية، فالترجمة الصحيحة للعبارة هي: دير القديسة دميانة» ثم يبلغ القس، رقيق الحس، غايةَ أخلاقه السمحة حين يقول عقب ما سبق: «ولذا فإنني أدعو (يوسف زيدان) لتخصيص جزء من قيمة الجائزة المادية التي حصل عليها (البوكر) لتعلُّم اللغة الإنجليزية، ربما يفيده هذا مستقبلًا..».

فيا نيافة الأمبا، قل لمن ناب عنك إن أسلوبكم غير لائق بكم بالمرة، وإن المسألة لا تستحق كل ما تفضل به من الكلام (الطيب) (المهذب) (الفاضل) خاصةً أنه وهو المسكين، لم يعرف أن هذه المسألة التافهة التي توقف عندها مهلِّلًا، لا علاقة لها

أصلًا باللغة الإنجليزية. لأن اللواحق المميزة لأسماء المؤنث والمذكر، بإضافة الألف الأخيرة للاسم المؤنث وإضافة الواو والسين للمذكر، هي مسألة تخص اللغة اليونانية وليس الإنجليزية. ففي لغة اليونان القديمة، كانوا يفرقون بهذه (اللواحق) بين المؤنث والمذكر، فيقولون: دميانا، دميانوس.. أوكتافيا، أوكتافيوس.. بُلخاريا، بُلخاريوس.. وهكذا! فاهدءوا رحمكم الله، وقولوا للناس قولًا سديدًا، وتذكروا أنه من سوابق الطرائق ولواحق الحقائق، قول الشاعر: «وتعظم في عين الصغير صغارها، وتصغر في عين العظيم العظائم».. هكذا تحدث المتنبي.

ثانيًا: اعلمْ يا نيافة المطران، الأمبا، الحبر، الأسد.. إلخ، أنك لم تردّ قَطُّ على رواية عزازيل، ولم تعطِ نفسك الفرصة أصلًا لقراءتها. لأنهم (قالوا لك) أو (نقلوا إليك) أو (أوهموك) بأن الرواية فيها ما يخالف اليقين المتين والحق الأبدي الذي تعتقده أنت، وما هو باليقين ولا بالحق إلا من زاوية واحدة فقط، هي زاويتك وحدك، أنت ومَنْ حولك. ومن «سوابق الطرائق ولواحق الحقائق» التي سأهديها إليك فيما يلي، قولٌ مضى عليه ثمانية قرون من الزمان، وأرجو منك أن تقرأه معي بتمهلٍ حتى تُدرك مبناه وتمسّ معناه:

«وربما أوجبَ استقصاؤنا النظرَ، عُدولًا عن المشهورِ والمتعارف. فمن قَرَعَ سَمْعَهُ خِلافُ ما عَهِدَهُ، فلا يُبادرنا بالإنكار. فذلك طَيْشٌ. فَرُبَّ شَنعٍ حَقٌّ، ومألوفٍ محمودٍ كاذبٌ. والحقُّ حَقٌّ في نفسه، لا لقول الناس له. ولنذكُرْ دومًا قَوْلَهم: إذا تساوتِ الأذهانُ والهِمَمُ، فمتأخِّرُ كُلِّ صناعةٍ، خيرٌ بالضرورة من متقدِّمها»..هكذا تحدَّث ابن النفيس.

ثالثًا: يا نيافة المطران اعلمْ أن ما هلَّلتَ به وهوَّلتَ، من صخبٍ كثير حول مشاهد العشق في رواية عزازيل (التي لم تقرأها أصلا) كان أمرًا لا أرتضيه لك، بل أترفَّع بك عنه، وأرى أنه ما كان يجب أن يصدر منك. فقد جاء حديثك في هذا الموضوع مشوَّشًا، مؤسفًا، دالًا على أنك معزول عمن حولك وعمن سبقك. فقد أُثير مثل هذا الأمر من قبل حول كتاب (ألف ليلة وليلة) الذي احتوى على مشاهد أفظع كثيرًا مما في رواية

(عزازيل) وتضمن ألفاظًا صريحةً هي أشد على الأسماع مما في الرواية. ولذلك ثار البعض ضد (ألف ليلة وليلة) حتى قال لهم عالمٌ قدير وشيخٌ جليل، هو بالاتفاق واحدٌ من أهم الذين اشتغلوا بالتراث العربي في القرن العشرين، وقد يكون أهمهم على الإطلاق. قال في عبارةٍ أراها من «سوابق الطرائق ولواحق الحقائق» ما نصه:

«الحديثُ هذه الأيام عن كتاب ألف ليلة وليلة، مؤسفٌ ومحزنٌ.. ويكشف عن جوانب سيئةٍ رهيبةٍ مخيفةٍ، تضاف إلى غيرها من الجوانب التي تندرج تحت عنوان: فَسَادُ حياتنا الثقافية.. إنَّ ما يُثار من أن هذا الكتاب فيه من الألفاظ المكشوفة، ما يمكن أن يُفسد عقول شباب وشابات هذه الأمة، يقدم دليلًا جديدًا لهذا السُّخْفِ الذي اخترناه.. فالقضية تتطلب معالجةً أخرى، وبحثًا هادئًا يبدأ بقراءة أجزاء هذا الكتاب، والوقوف طويلًا عند صفحاته، وتأمل عباراته وسطوره. ومن حق بعضنا أن يقرأه أو لا يقرأه، لكن ليس من حقنا جميعًا أن نحكم بإلغائه أو بحرقه! إن اتهامكم لهذا الكتاب بأن به ألفاظًا مكشوفة.. هذه الألفاظ في رأيي لا خوف منها، فهي ألفاظ العلم نفسه؛ وإذا كان لها تأثيرٌ ضارٌ، فكيف يستخدمها علماء اللغة وأصحابها. أقولُ إنها ليست ألفاظًا ضارةً، وإنها ألفاظ طبيعية وعادية، يستخدمها البشر في كل مكان، وليس من مصلحة البشر أن يجهلوا مثل هذه الألفاظ، فهي ضرورةٌ من ضرورات الحياة»..
هكذا تحدَّث محمود شاكر.

رابعًا: إن ما يحيِّرك يا نيافة المطران الأمبا من انحيازي لآريوس ونسطور، وهي الحيرة التي عبَّرتَ عنها عدة مرات في حواراتك الصحفية ولقاءاتك التلفزيونية، فضلًا عن ورودها أكثر من مرة في الكتاب المنسوب إليك. إنما هي حيرةٌ في غير موضوعٍ وفي غير موضعها، وسوف أشير إليها حالًا مُوَضِّحًا لك بإيجاز الأمر الذي تعتقد أنه (سر) فتقول دومًا: ما سرُّ إعجابه بآريوس ونسطور؟.. وليس في الأمر سر، بل رؤية موضوعية لمفكرين كنسيين كبار، تتهمهم أنت بالهرطقة ويتهمك أتباعهم أيضًا بالهرطقة، غير أنني أنظر إلى المسألة بعيدًا عن تلك الاتهامات المتبادلة، فأجد أن الآريوسية قدمت حلولًا عبقرية للمشكلة اللاهوتية المتعلقة بالطبيعتين (الإلهية،

الإنسانية) للسيد المسيح، من خلال مفهوم «التبنِّي» الذي قام عليه هذا المذهب الذي قدَّمه الراهب الجليل، مصري الهوية، ليبـي الأصل، شامي الإقامة، إسباني المنفى، إسطنبولي الاغتيال: آريوس (المتوفى مسمومًا سنة ٣٣٦ ميلادية).

وأما الأسقف الجليل نسطور، فقد قدم تصورًا لاهوتيًّا من وحي أستاذه الأسقف تيودور المصِّيصي، متوافقًا مع طبيعة العقلية العربية العملية التي كانت تسود منطقة الهلال الخصيب، حسبما أوضحت ذلك تفصيلًا في كتابي الأخير: اللاهوت العربي وأصول العنف الديني.. وبالمناسبة، أرجو منك يا نيافة الأمبا ألا تقرأ هذا الكتاب وألا تكلف نفسك عناء الانشغال به، لأنه لا يناسب أفاضل الرهبان من أمثالك. فهو كما ذكرتُ بالنصِّ في أولى صفحاته: «لم يُوضع هذا الكتاب للقارئ الكسول، ولا لأولئك الذين أدمنوا تلقِّي الإجابات الجاهزة عن الأسئلة المعتادة، وهو في نهاية الأمر كتابٌ، قد لا يقدِّم ولا يؤخِّر».

والنسطورية التي تكرهها يا نيافة الأمبا، لا أكرهها. بل أرى فيها كنيسةً عظيمة لا تقلُّ عن غيرها من كبريات الكنائس، وهي التي أدخلت الديانة المسيحية إلى أنحاء قارة آسيا، واشتغل أتباعها بالعلوم والمعرفة والترجمة من اليونانية والسريانية إلى العربية، فكان ذلك مقدمة للنهضة العلمية للعرب المسلمين الذين حملوا مشعل العلم والحضارة خلال القرون الطوال التي ظل العالم فيها مظلمًا، كئيبًا، ممقوتًا. ومن سوابق طريقة نسطور في فهم الديانة، ولواحق حقائقه التي لاحت في سماء اللاهوت العربي، قوله: «لا يجوز تسمية العذراء مريم بأم الله، فهي امرأة قديسة ولدت بمعجزة، لكنها ليست أُمًّا للإله. ولا يجوز لنا الاعتقاد بأن الله كان طفلًا يخرج من بطن أمه بالمخاض، ويبول في فراشه فيحتاج للقماط، ويجوع فيصرخ طالبًا ثدي أمه. الربُّ كاملٌ، كما هو مكتوب. فكيف له أن يتخذ ولدًا، سبحانه، ومريم العذراء إنسانةٌ أنجبتْ من رحمها الطاهر بمعجزة إلهية، وصار ابنها من بعد ذلك مجلى للإله ومخلِّصًا للإنسان، صار كمثل كوةٍ ظهرت لنا من خلال أنوار الله، أو هو مثل خاتمٍ ظهر عليه النقش الإلهي.

وظهور الشمس من كوةٍ لا يجعل الكوة شمسًا، كما أن ظهور النقش على خاتم لا يجعل الخاتم نقشًا».. هكذا روى الراهب هيبا آراء نسطور في رواية عزازيل، متطابقًا مع ما يمكن استخلاصه من الكتب اللاهوتية القديمة.

* * *

وبعد.. فيا نيافة المطران، ما زالتْ لك في نفسي مودةٌ قديمة، وأنت لك أيضًا من وراء ذلك الوظائف الكنسية الكثيرة والمهام الدينية التي لا تنتهي، وعندي كذلك عملٌ كثير وانشغالات. فدعنا نكف عن هذا الجدل، عملًا بقوله تعالى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ وهو قولٌ قد لا تؤمن بسماويته، لكنك لن تنكر سمَّوه وأهميته.

الفصل الرابع

أسرارُ الخلاف وأهوالُ الاختلاف(*)

(*) المقالات السبع، أصل هذا الفصل، نُشرت أواخر العام ٢٠٠٩.

انتهى الجزء الأول من كتاب
متاهات الوهم
للدكتور
يوسف زيدان

ويليه الجزء الثاني
بعد شهرين من رفع الجزء الأول

25 April 2013